يوكيو ميشيما

المعبد الذهبي

ترجمة ميسرة عفيفي

المعبد الذهبي

تأليف
يوكيو ميشيما

ترجمة
ميسرة عفيفي

هنـــداوي

المعبد الذهبي

金閣寺

يوكيو ميشيما

由紀夫 三島

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٠ ٣٦٣٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة اليابانية عام ١٩٥٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ ميسرة عفيفي.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	٣١
الفصل الثالث	٥١
الفصل الرابع	٧٥
الفصل الخامس	٩٧
الفصل السادس	١١٩
الفصل السابع	١٣٧
الفصل الثامن	١٦٩
الفصل التاسع	١٩١
الفصل العاشر	٢٠٧

الفصل الأول

كان أبي يحدِّثني في طفولتي كثيرًا عن المعبد الذهبي.

لقد وُلدت في رأس برٍّ منعزل يمتد في بحر اليابان شماليَّ شرق مدينة مايزورو. ولكن مسقط رأس أبي الأصلي لم يكن هناك، بل وُلد أبي في قرية شيراكو التي تقع في الجزء الشرقي من مدينة مايزورو. ثم صار أبي الراهبَ المقيمَ للمعبد البوذي في رأس البر النائي هذا، بعد أن ترهبَن، وتزوَّج أمي من أهل القرية، وكنتُ أنا ثمرةَ ذلك الزواج.

لم يكن بالقرب من معبد رأس بر «ناريو» هذا مدرسةٌ إعدادية مناسِبة. وفي النهاية رحلتُ أنا بعيدًا عن والديَّ، فأُرسلت إلى بيت عمي بمسقط رأس أبي، ومن بيته كنتُ أتردَّد على مدرسة «شرق مايزورو» الإعدادية سيرًا على الأقدام.

كان مسقط رأس أبي قريةً ذات أشعة شمس غزيرة. ولكن مع ذلك حتى لو كان اليوم يبدو مشمسًا بلا أي غيوم مطلقًا، كانت السماء تمطر أمطارًا فجائية غزيرة أربع أو خمس مرات في اليوم الواحد خلال شهرَي نوفمبر وديسمبر من كل عام. وأعتقد أن شخصيتي المتقلِّبة نشأت بسبب طبيعة تلك القرية.

كان يمكن رؤية الجبال البعيدة في شهر مايو بعد العودة من المدرسة في المساء، من غرفة المذاكرة بالطابق الثاني لبيت عمي. يستقبل بطن الجبل ذو الأوراق اليانعة أشعةَ الغروب، في خضمِّ السهول، كان يمكنني رؤيتها كأنها شاشة من ذهب. وكلما كنتُ أرى ذلك كنت أتخيَّل المعبدَ الذهبي.

أثناء رؤيتي للمعبد الذهبي الحقيقي في الصور والكتب الدراسية، كان شبح المعبد الذهبي الذي حدَّثني عنه أبي ينتصر عليه داخل قلبي. من المفترض أن أبي لم يقُل مطلقًا إن المعبد الذهبي الحقيقي يتألَّق بلون ذهبي، ورغم ذلك — طبقًا لأبي — ليس على وجه

الأرض ما هو أكثرُ جَمالًا من المعبد الذهبي، وكذلك من خلال حروف كلمة المعبد الذهبي ونطقه، كان المعبد الذهبي الذي رسمتُه في قلبي، شيئًا لا حدودَ ولا نهاية له.

إذا صادف أن رأيتُ حقلَ أَرُز بعيدًا يتلألأ سطحُه بأشعة الشمس، كنتُ أعتقد أنه مسقطٌ لظل المعبد الذهبي الذي لا يمكن رؤيته. سلسلة جبال كيتشيزاكا التي تكوِّن الحدودَ الفاصلة بين محافظة فوكوي ومحافظة كيوتو هنا، تقع في الشرق تمامًا من بيت عمي. كانت الشمس تشرق من بين تلك الجبال. ومع أن كيوتو في الواقع تقعُ على الجهة الأخرى تمامًا، لكنني كنتُ أرى المعبد الذهبي يحلِّق عاليًا في سماء الشرق بين ثنايا الجبل تحت أشعة الشمس المشرقة.

وبهذا الحال، يظهر لي المعبدُ الذهبي في كل مكان، وكان في هذه النقطة يشبه البحرَ في تلك القرية، لعدم رؤيتي له فعليًّا. فخليج مايزورو يقع على مسافة ٦ كيلومترات ناحيةَ الغرب من قرية شيراكو، ولكن تحجُب الجبال ذلك البحرَ فلا يمكن رؤيته. ولكن دائمًا ما يلوح في تلك الأرض هاجسُ البحر. ونشمُّ في الهواء من وقت لآخر رائحةَ البحر، وعندما يعصِف البحر، تهرُب أعداد كبيرة من طيور النورس وتأتي إلى هنا، وتهبِط عند حقول الأَرُز المحيطة بنا.

كنتُ بسبب ضَعف جسمي أنهزم أمام الآخرين في سباق الجري ولعب «العُقلة»، وعلاوةً على ذلك، جعلني تلعثمي الذي وُلدتُ به منطويًا أكثرَ وأكثرَ. وعندما عرَف الجميع أنني ابنُ راهب معبد سخِرَ مني شرارُ الأطفال بتقليدِ راهبٍ متلعثم يقرأ كتاب السوترا وهو يتلعثم. ثمَّة درسٌ في المنهج عن مخبِر شرطة متلعثم، فكانوا ينادونني ويقرءون عليَّ هذا الدرس بالتحديد بصوتٍ عالٍ.

ولا داعيَ بالطبع للقول إن التلعثم وضع بيني وبين العالَم الخارجي سدًّا منيعًا. لا يخرج الحرف الأول بسهولة. رغم أنَّ الحرف الأول هو قُفل الباب الذي بين العالم الخارجي وعالمي الداخلي، إلا أنني لم أُفلِح ولو مرةً واحدة في محاولة فتحِ ذلك القُفل بمهارة. الشخص العادي من خلال تحكُّمه بحرِّية في الكلمات وسيطرته عليها، يمكنه أن يجعل البابَ الذي بين العالَمين الداخلي والخارجي مفتوحًا دائمًا على مصراعيه، ويستطيع أن يجعل بذلك تيارًا جيدًا من الهواء بينهما، إلا أنني لا أقدِر على ذلك مهما فعلت. فقد علا الصدأ القُفلَ تمامًا.

يشبه المتلعثم أثناء لهفته المستميتة من أجل نطق الحرف الأول، عصفورًا صغيرًا يتلوَّى محاولًا تخليصَ جسده الذي التصق بدَابُوق عالِمه الداخلي المركَّز. وفي اللحظة التي

فُصل فيها جسده أخيرًا، يكون الوقت قد فات. وأحيانًا ما يبدو أن العالم الخارجي في الواقع قد توقَّف عن الحركة وأخذ راحةً لينتظرَني أثناء كفاحي هذا. ولكنَّ الواقع الذي ينتظرني، لم يَعد واقعًا طازجًا. وعندما أصِل أخيرًا، وبعد جهدٍ جهيد، إلى العالم الخارجي، أجد دائمًا أن اللحظة تغيَّرت وانحرفت ... فأجِد واقعًا ساءت درجةُ طزاجته؛ واقعًا راقدًا يُطلِق رائحةً شبه عفِنة، وهذا هو فقط ما أعتقد أنه يناسبني.

وكما يمكن تخيُّل ذلك بسهولة تامة، يصبح صبيٌّ مثل هذا راغبًا في امتلاك نوعين متناقضين من السُّلطة. كنتُ أحبُّ ما تذكره كتبُ التاريخ عن الحكام الطغاة. فإذا كنتُ أنا طاغيةً متلعثمًا وقليلَ الكلام، فسيعيش الأتباعُ في رعبٍ ليلًا ونهارًا في محاولةِ قراءة تعبيرات وجهي. فما من ضرورةٍ لإعطاءِ شرعية لقسوتي وعنفي بكلماتٍ واضحة وسلسة. فصمتي فقط هو الذي يعطي الشرعيةَ لكل أنواع القسوة. وبهذه الطريقة أستمتع بتخيُّل أنني أُعدِم المدرِّسين وزملاء الدراسة الذين يحتقرونني يوميًّا، جميعًا بلا رحمة، ولكن من جهةٍ أخرى، أستمتع كذلك بأنني أنا ملِك للعالم الداخلي، كفنان عظيم ممتلئ بنظرةٍ شمولية هادئة. ورغم فقر مظهري الخارجي إلا أنَّ عالَمي الداخلي كان غنيًّا هكذا أكثرَ من أي شخص آخر. أليس من الطبيعي أن يفكِّر الصبي الذي به عيبٌ لا يُزال بسهولة في السرِّ أنه إنسان مختار ومصطفى؟ كنت أشعر أنه تنتظرني في مكانٍ ما من هذا العالم مهمةٌ، أنا شخصيًّا لا أعرف عنها شيئًا.

... أتذكَّر الواقعة التالية.

كانت مدرسة شرق مايزورو الإعدادية ذاتَ مبانٍ ساطعة مبنية على الطراز الجديد، وبها فِناء واسع، وتحيط بها جبال ممتدة.

وفي يومٍ من أيام شهر مايو، جاء أحدُ خرِّيجي المدرسة الذي أصبح طالبًا في الصف الأول بأكاديمية مايزورو البحرية العسكرية، ليزورَ مدرستَه السابقة.

كانت بشَرته سمراء من أشعة الشمس، وتظهر أرنبة أنفه النابغة من تحتِ مقدِّمة قبَّعته الرسمية التي ارتداها حتى العمق، لقد كان مثالًا للبطل الشاب من رأسه حتى أَخْمَص قدميه. وكان يحكي أمام زملائه الأصغرِ منه عن حياة الأكاديمية الصعبة المليئة بالقواعد والقوانين. بل وكان يحكي عن تلك الحياة التي يُفترض أنها تعيسة بائسة، بنبرةِ صوت وكأنها حياةٌ فاخرة باهرة مليئة بالترفيه. وكان يمتلئ فخرًا بأقل جهد ويعلَم بالضبط بثِقل وأهمية تواضعه في صِغر سنِّه وشبابه هذا. كان يَفرد صدره المزيَّن بضفيرة

الزي الرسمي بفخرٍ مثل التمثال الذي يوضع على مقدمة السفينة وهي تخترق رياحَ البحار في تقدُّمها للأمام.

كان يجلس على درجات السلَّم الحجرية المكوَّنة من درجتين أو ثلاث درجات التي تؤدي إلى فِناء المدرسة. ويتجمَّع حوله أربعة أو خمسة من الطلاب الأصغرِ منه سنًّا الذين يسمعون حديثَه هذا في هُيام بالغ، وقد تفتَّحت زهور شهر مايو مكتملةً في ركن الزهور على السطح المائل، مثل زهرة التيوليب وزهرة البِسلة، وشقائق النُّعمان والخشخاش المنثور. وكذلك أزهرت شجرة المنغوليا زهرتَها البيضاء العملاقة فوق رءوسهم.

لم يكن المحدِّث والمستمعون، يتحرَّكون وظهروا كما لو كانوا تمثالًا تذكاريًّا لواقعةٍ ما. أما أنا فكنت أجلس وحيدًا على دَكةٍ في فِناء المدرسة تبعُد قرابة مترين منهم. كان ذلك هو منتهى الأدبِ مني. أدب مني تُجاه زهور شهر مايو، وتُجاه الزي الرسمي المفعَم بالفخر، وتُجاه أصوات الضَّحك المشرقة.

حسنًا، كان البطل الشاب مهتمًّا بأمري أنا أكثر من عُبَّاده هؤلاء. وبدا وكأنني أنا الوحيد فقط الذي لم يُذعِن بما يليق بجلاله، وبدا كذلك أن شعوره بذلك جرح كبرياءه. عرف اسمي منهم. ثم صاح:

«أنت! يا ميزوغوتشي!»

مناديًا عليَّ أنا الذي أقابله لأول مرة. أخذت أحملق فيه بجِدية وأنا على صمتي. في ضحكاته التي وجَّهها إليَّ ما يشبه تملُّق المتسلِّط.

«ألا تَرُدُّ؟ هل أنت أخرس؟»

«مـ...مـ...متـ...متلعثم.»

ردَّ أحدُ عُبَّاده نيابةً عني وجعل الجميع يلوون أجسامهم ضحِكًا. الضحك سخرية! يا له من فعلٍ برَّاق للغاية.

بدَت لي ضحكات زملائي القاسية تلك التي يتميَّز بها الفتيان في صباهم، برَّاقة مثل بَتَلات الزهور التي تعكس أشعةَ الشمس الزاهرة.

«ماذا! هل أنت متلعثم! ألن تدخل أنت أيضًا إلى الأكاديمية البحرية؟ سنعالج لك تلعثمَك هذا في يوم وليلة!»

لا أدري السببَ ولكنني فجأةً أجبتُ بالرد المناسب الواضح، انسابت الكلمات في سلاسة، وبلا أي ارتباط بالإرادة، خرجَت في لمح البصر.

«لن أدخل. فأنا سأصبح راهبًا.»

صمت الجميع من الذهول. وانحنى البطل الشاب على الأرض، وقبض بيده على عودٍ من العُشب ووضعه في فمه.

«حقًّا! هذا يعني أنني بعد عدة سنوات سأحتاج إلى رعايتك!»

في ذلك العام كانت الحرب العالمية في المحيط الهادئ قد بدأت بالفعل.

... في ذلك الوقت على ما أتذكَّر كان قد نشأ داخلي وعيٌ محدَّد. وهو أنني أفتح ذراعيَّ على امتدادهما للعالم المظلِم وأنتظر. وفي النهاية تدخل زهور شهر مايو، والزِّي الرسمي، وزملاءُ الدراسة السيِّئو الخُلق، داخل ذراعيَّ المفتوحتَين. الوعي الذاتي أنني أسحب بنفسي العالَم من قاعدته السفلى وأقبض عليه وأعصره ... ولكن ذلك الوعي الذاتي، كان أثقلَ من الحد اللازم لكي يصبحَ فخرًا لصبي صغير.

فالفخر يجب أن يكون خفيفًا مشرقًا ومتوهجًا ظاهرًا للعِيان. أريد شيئًا يمكن أن تراه العين. أريد شيئًا يظهر أمام عين أي شخص، ثم يكون فخرًا لي. مثلًا، الخنجر الذي يتدلَّى من خَصره، ذلك هو بحقٍّ الشيءُ الذي أريده.

لقد كان الخنجر الذي ينظر إليه جميعُ طلاب المدرسة الإعدادية بإعجاب وتقدير، مزخرفًا بزينة في منتهى الجَمال حقًّا. وقد سمِعتُ أن طلاب الأكاديمية البحرية يَبرُون أقلامهم الرصاص خُلسةً بذلك الخنجر، ولكن، يا لها من أناقةٍ أن تستخدم عن عمدٍ رمزَ الوقارِ هذا في تلك الأفعال اليومية التافهة!

بالصدفة كانت الملابس الرسمية لطالب الأكاديمية البحرية مخلوعةً ومعلَّقة على السور المصبوغ بلونٍ أبيض. السروال والقميص الداخلي الأبيض كذلك ... كانت جميعها تفوح منها رائحةُ بشَرة الشاب التي تَنِزُّ بالعَرق، بالقرب مباشرةً من الزهور. أخطأتْ نحلات العسل وأراحت أجنحتها على وردة القميص الأبيض التي تلمع متألقة. كانت قبَّعة زي الأكاديمية الرسمي التي تتزين بضفيرة من الخيوط الذهبية، معلَّقة بعمقٍ على أحد أعمدة السور بالشكل الذي كانت به على رأسه. كان الشاب قد قبِل تحدي الطلاب الأصغر منه سنًّا وذهبوا جميعًا إلى الملعب الخلفي ليلعبوا معًا مصارعةَ السومو.

تلك الأشياء التي خُلعت ورُميت تعطي انطباعًا بأنها مقبرة المجد. وزادت زهور شهر مايو الكثيرة من هذا الانطباع. إذا فصَّلتُ القول فالقبَّعة الرسمية التي تعكس مقدِّمتها ورنيشًا أسودَ، وبجانبها الحزام الجلدي المعلَّق وبه الخنجر، بعد أن انفصلا عن جسده، على العكس أطلقا جَمالًا شاعريًّا، وكان ذلك نفسه في منتهى الكمال مثل الذكريات ... بمعنى أنها بدَت لي في شكل إرثٍ لبطلٍ شابٍّ مات في الحرب.

تأكدتُ من عدم وجود أي شخص حولي. وتصاعدَت صيحاتٌ عالية من ملعب مصارعة السومو. فأخرجتُ من جيبي سكينَ تقليم الأقلام الرصاص التي بها صدأ ... ثم اقتربتُ متسللًا، وفي خلفية غمد ذلك الخنجر الجميل، نقشتُ جُرحين أو ثلاثة بقطعها لتكون قبيحة.

ربما يُصدِر أحدٌ عليَّ حكمًا متسرِّعًا بأنني فتًى به صفات شاعر، من خلالِ ما ذكرته عاليه. ولكن حتى اليوم، لم يسبق لي كتابة شيء، ولا حتى يومياتي، فما بالُك بالشِّعر. أنا لا أملِك دافعًا للتفوُّق على الآخرين من خلال تعويض القدرات الناقصة عندي بقدراتٍ أخرى. إذا قلنا ذلك بقول مختلف، فقد كنت متغطرسًا أكثرَ من الحد اللازم لكي أكونَ فنانًا. ظلَّ الحُلم في أنْ أصبح فنانًا أو طاغية، حُلمًا كما هو، وكأنه لم تكن لديَّ في الواقع أي رغبة في البدء بعملِ شيء وتحقيقه على الأرض.

ولَم أعانِ من وجودِ دافع التعبير، الذي يجعلني أحاول إفهامَ الآخرين؛ فقد كان الأمر الوحيد الذي أفتخر به، هو عدم وجودِ مَن يفهمني. كنت أعتقد أن القدَر لم يعطِني تلك الأشياءَ التي تبدو لعين الناس. كانت وحدتي تزداد سُمنةً بالتدريج كما لو كانت خِنزيرًا.

وتصطدم ذكرياتي هذه فجأةً بحادثةٍ مأسوية وقعت في قريتنا. ورغم أنه من المفترض أن تلك الحادثة ليس لها في الواقع أي علاقة بي، إلَّا أن شعورًا بأنني اشتركت فيها اشتراكًا مؤكدًا لا يزول من داخلي.

من خلال تلك الحادثة واجهتُ أمورًا عدة دفعةً واحدة. واجهتُ أشياءَ متنوِّعة مثل الحياة، والشهوة الحسية، والخيانة، والحُب والكراهية. ولكن فضَّلَت ذاكرتي أن تغضَّ الطرْف عن العناصر السامية المتوارية في تلك الحادثة وتنكِرَها.

كانت هناك فتاة جميلة تسكن على بُعد بيتين من بيت عمي، اسمُها يويكو. كانت عيناها واسعتين وصافيتين. وربما لأن هذا البيتَ مِلكٌ لهم كانت تصرفاتها تتسم بالغطرسة والتعجرُف. ورغم أنها مدلَّلة من الجميع، إلا أنها كانت وحيدة، ولا يُدرى فيما كانت تفكِّر. الفتيات الحقودات كن يقولن شائعاتٍ، محتواها أن يويكو رغم أنها ما زالت عذراء على الأرجح إلا أنَّ صفاتها تلك هي صفاتُ امرأة عاقر.

كانت يويكو قد تخرَّجت لتوها من مدرسة بنات، وأصبحت ممرِّضة متطوِّعة في مستشفى مايزورو للقوات البحرية. كان المستشفى يبعُد مسافةً يمكن التردُّد إليها باستخدام الدراجة. وكان وقت خروجها للعمل في الصباح الباكر مع انبلاج ضوء الشروق من بين جنبات الليل؛ لذا كانت تسبق وقتَ ذهابنا للمدرسة بحوالي ساعتين.

في إحدى الليالي، تذكَّرتُ جسمَ يويكو وغرقتُ في تخيُّلات كئيبة سوداء، ولم أستطِع الخلودَ إلى النوم فنهضتُ من الفراش في الظلام، وانتعلت حذائي الرياضي وخرجت من باب المنزل في الساعات الأولى من فجر ذلك الصيف.

ولم تكن تلك الليلة هي أولَ مرة أتذكَّر فيها جسمَ يويكو. فتفكيري بها من وقتٍ لآخر تدريجيًّا أصبح ملتصِقًا بي، وكأنه كتلةٌ من ذلك التفكير، أصبح جسد يويكو أبيضَ ومرنًا ومتبلورًا في شكل كتلة لحم واحدة لها رائحة، غارقة في ظلال ظلام خافت. تذكَّرتُ سخونة أصابعي عندما أفكِّر في ذلك. وتذكرتُ كذلك المرونة التي تقاوم تلك الأصابعَ والرائحةَ التي تشبه رائحةَ غبار الطَّلع.

جريتُ في الطريق المظلمة في الفجر في خط مستقيم. لم تفلح الأحجار في عرقلة قدمي، وفتح الظلام الطريقَ أمامي بحرية ووضوح.

انفتحت الطريق أمامي في ذلك المكان، وكانت منطقةً نائية على طرَف ياسوأوكا التابعةِ لقرية شيراكو. ثمَّة شجرة دردار وحيدة وكبيرة الحجم. كان جذع شجرة الدردار مبتلًّا بندى الصباح. أخفيت جسمي وراء الجذع القريب من الجذور، وانتظرتُ أن تأتيَ دراجة يويكو من التجمُّع السكني.

كنتُ أنتظر فقط وليس في نيتي عملُ شيء. كنتُ قد جريت حتى انقطعت أنفاسي، وبعد أن حاولت إراحةَ أنفاسي تحت ظل الدردار، لم أكن أعرف ما الذي أحاول أن أفعله بعد ذلك. ولكن لأنني قد عشتُ حياتي حتى الآن بلا أي رابطة أو علاقة مع العالَم الخارجي، فقد كنتُ أتخيَّل أنني إذا قفزتُ مرةً إلى ذلك العالم الخارجي، فسيكون كل شيء سهلًا، وأكون قادرًا على كل شيء.

لسعتني بعوضةُ الزاعجة في قدمي. وسمِعت صيحاتِ الدِّيَكة هنا وهناك. نظرتُ إلى الطريق لأستشرفَ الأمر، فبدا لي على البُعد شيءٌ أبيض مبهم. كنت أعتقد أن ذلك هو ضوء الفجر، ولكنها كانت يويكو.

بدت يويكو راكبةً الدراجة، وقد أضاءت المصباح الأمامي. انزلقت الدراجة دون أن تصدِر أيَّ صوت. من ظل شجرة الدَّردار ظهرتُ فجأة للدراجة ووقفتُ أمامها. فرملتِ الدراجة فجأةً وبخطورة شديدة.

وقتَها أحسستُ أنني أصبحت مثل صخرة. الإرادة والرغبة والشهوة، كلُّها تحجَّرت. مرةً أخرى العالم الخارجي موجودٌ حولي وجودًا مؤكدًا بلا أي علاقة بما في داخلي. عندما انتعلت حذائي الرياضي الأبيض وخرجت من بيت عمي، وجريت في الطريق المظلمة حتى

وصلت إلى ظل شجرة الدَّردار تلك، لم يكن الأمر عندي سوى مجرَّد أنني جئتُ جريًا بكلِّ ما أوتيتُ من قوة مستجيبًا لِما في داخلي من هاجس. ولكن كان المعنى مفتقَدًا بالكامل إلى درجةٍ مرعبة للغاية، في أسقف بيوت القرية التي تبرُز ظلالها بحوافَّ منخفضة وسط ظلام الفجر، وفي الأشجار الواقفة السوداء، وفي قمة جبل أوبایاما، وحتى في يويكو الواقفة أمام عيني. كان الواقع قد وُجد هناك دون انتظار لتدخُّلي في الأمر، بل قد أُعطيتُ أنا ذلك الواقع الكبير الذي بلا معنًى والمظلم تمامًا، واقترب مني بثِقَل لم أشهد مثله حتى الآن.

كنت أفكِّر كما أفعل دائمًا أن الكلمات هي الشيء الوحيد على الأرجح الذي ينقذ الشخص في موقفٍ كهذا. كانت الكلمات تُشتِّت ذهني، في الوقت الذي يجب فيه العمل والحركة. والسبب في ذلك أن الكلمات صعبة الخروج من فمي، ولذلك يُسجَن عقلي في ذلك، وأنسى أن أقومَ بالحركة والفعل. لقد كنتُ أعتقد أن الفعل الذي يعني ترْكَ الأرضِ والطيرانَ في الجو، يأتي مصاحبًا للكلام.

لم أرَ شيئًا. ولكن كما أعتقد، عندما انتبهت يويكو لي في البداية مع خوفها، كانت تنظر فقط إلى فمي. كانت على الأرجح تتلوى وتزوم بلا معنًى في ظلام الفجر، ظلَّت تنظر فقط إلى حفرةٍ ضيقة مظلمة غير ممتعة، حفرةٍ صغيرة قذرة الشكل وكأنها وكْر حيوان برِّي حقير، بمعنى أنني أقصد فمي. وارتاحت بعد أن تأكَّدت أنه لن يخرج من هناك أيُّ قوة تربطني بالعالم الخارجي.

قالت يويكو:

«ماذا بك؟ أتفعل هذا الفعل الغريب، رغم أنك متلعثم؟!»

كان ذلك الصوت به صحةٌ وحيوية مثل نسائم الصباح الباكر. دقَّت يويكو الجرس ثم وضعت رِجلها مرةً ثانية على البدَّال. ثم لفَّت حولي وكأنها تتجنَّب حجرًا على الطريق. ورغم أنه ما من أثرٍ لإنسان، ويويكو تجري بدرَّاجتها حتى حقول الأَرُز البعيدة في الجهة الأخرى، كنتُ أسمع مرةً بعد أخرى صوتَ الجرس الذي تدقُّه يويكو على سبيل السخرية.

... جاءت أمُّها إلى بيت عمي في تلك الليلة بناءً على شكوى من يويكو. وعنَّفني بشدة عمِّي الذي عادةً ما يكون وديعًا. ولعنتُ يويكو، وأصبحتُ أتمنَّى موتَها، وبعد عدة أشهر تحقَّقت تلك اللعنة. ومن وقتها وأنا أحمل تأكيدًا بقدرتي على إحلال اللعنة بالآخرين.

كنتُ أتمنَّى موتَ يويكو أثناء نومي وأثناء استيقاظي. كنت أتمنَّى اختفاءَ ورحيل الشاهد على عاري. من المؤكَّد أن عاري سيختفي ويزول من هذا العالَم، فقط لو اختفى الشاهد. الآخرون كلُّهم شهود. ومع ذلك إذا اختفى الآخر فسيزول ما يسمَّى العار. أنا

رأيت عالَم الآخر — بمعنى عالَم الآخر الذي لا يتركنا بمفردنا مطلقًا والذي يتقدَّم ليصبح شريكًا في الجريمة، ليكون شاهدًا — في خلفية عين يويكو التي لمع ظلُّها في ظلام الفجر مثل الماء، تكِلُّ العين التي ظلَّت تنظر إلى فمي بلا حَراك. يجب أن يفنى الآخر ويندثرَ. من أجل أن أستطيع توجيهَ وجهي نحو الشمس توجيهًا حقيقيًّا، يجب أن يندثرَ العالم.

تركتْ يويكو عملَها في مستشفى القوات البحرية بعد شهرين من تلك الشكوى، وتقوقعتْ في بيتها. وأثار أهلُ القرية شائعاتٍ متنوِّعة. ثم في نهاية الخريف وقعت تلك الحادثة.

... لم نكن نتخيَّل ولا في الأحلام أن عسكريًّا هاربًا من القوات البحرية قد تسلَّل إلى قريتنا هذه. ولكن في ظهرِ ذلك اليوم جاء فجأةً جنودُ الشرطة العسكرية إلى مقر بلدية القرية. ولكن لأن مجيء الشرطة العسكرية لم يكن بالأمر الغريب أو النادر، فلم ينتبه أحدٌ للأمر.

كان ذلك في يوم مشمس من أواخر أيام شهر أكتوبر. ذهبتُ كما أفعل دائمًا إلى المدرسة، وأنهيت استذكاري الليلي، وجاء الوقت الذي يجب فيه النوم. وكنت أنوي إطفاءَ الإضاءة عندما سمِعت أصواتَ جري عدد كبير من الناس يلهثون مثل قطعان الكلاب في طريق القرية أسفل نظري. نزلتُ إلى الطابق السفلي. وعند مدخل البيت كان أحدُ أصدقاء المدرسة ينتظر، وصرخ فيَّ وفي عمي وزوجته اللذين صحَوَا من النوم، قائلًا:

«الشرطة العسكرية تُمسِك يويكو الآن في الجهة الأخرى. هيا بنا نذهب معًا.» انتعلتُ القبقاب وأسرعتُ بالجري. كانت ليلة ينيرها القمر جيدًا، وتسقط ظِلال أعمدة سنابل الأَرُز الجافة زاهيةً واضحةً هنا وهناك على حقول الأَرُز التي حُصدت.

تحرَّكت ظلالٌ سوداء لتجمُّعٍ من البشر تحت ظلال الأشجار. كانت يويكو تجلس على الأرض ترتدي ملابسَ غربيةً يبدو أنها سوداء، ووجهها شديد البياض. وكان حولها أربعةٌ أو خمسة من جنود الشرطة العسكرية وأبواها. صاح أحد الجنود غاضبًا وهو يمدُّ يدَه بما يشبه وجبةَ طعام ملفوفة. وكان الأب يحرِّك وجهه يمينًا ويسارًا، يعتذر للجندي ثم يؤنِّب ويلوم ابنته. والأم تبكي مقوَّسة الظهر.

كنا نراقب ذلك المشهدَ من الناحية الأخرى وبيننا حقلُ أَرُز. وكان عددُ المتجمِّعين للرؤية في ازدياد مستمر مع الوقت، وتتلامس أكتافهم في صمت. يقبع القمر فوق رءوسنا صغيرًا وكأنه عُصِر.

شرح صديق الدراسة الأمرَ لي في أذني.

وهو أن جنديَّ الشرطة العسكرية كان قد كمِن ليويكو التي حملت وجبةَ الطعام الملفوفة وخرجت من بيتهم متوجهةً إلى التجمُّع السكني المجاور. وأنها لا شكَّ كانت تنوي إعطاءَ تلك الوجبة إلى العسكري الهارب من الخدمة. وأن علاقة يويكو والعسكري الهارب توثَّقت في مستشفى القوات البحرية، ولذلك طُردت يويكو من العمل في المستشفى بعد أن حمِلت منه. كان جندي الشرطة العسكرية يسألها طالبًا منها الإفصاح عن مكان اختباء العسكري الهارب من الخدمة، ولكن يويكو كانت جالسةً في مكانها لا تتحرَّك، وترفض الكلام في عناد تام.

أمَّا أنا فقد كنتُ أتأمَّل يويكو فقط دون أن تطرِف لي عين. بدَت لي كامرأة مجنونة أُمسِكَ بها. كان وجهها تحت القمر ثابتًا لا يتحرَّك.

لم يسبق لي حتى الآن أن رأيت وجهًا يمتلئ بالرفض إلى هذه الدرجة. أنا أعتقد أن وجهي مرفوضٌ من العالَم كلِّه. ولكن وجه يويكو كان هو الذي يرفض العالَم. كان ضوء القمر ينساب دون إذنٍ على تلك الجبهة والعين وأرنبة الأنف والخدود، ولكنَّ الوجه الثابت بلا حركة كان فقط يُغسل بواسطة ذلك الضوء. إذا حرَّكت عينيها قليلًا، إذا حرَّكت فمها قليلًا، فالعالم الذي تحاول أن ترفضه، سيَعتبر ذلك إشارة، ويتدفَّق إليها من تلك الثغرة كانهيار جبل الجليد.

كتمتُ أنفاسي وراقبتُ ذلك المشهد. إنه وجهٌ توقَّف التاريخ عنده فلا يحكي أيَّ شيء سواء عن الماضي أو عن المستقبل. يمكننا رؤية ذلك الوجه العجيب، فوق أفرع الشجر المقصوصة التي قُطِعت أطرافُها ورُميت منذ فترة قصيرة. ذلك الوجه العجيب الذي رُسمت على مقطعه الجانبي دوائرُ الحلقات الشجرية الجميلة، والذي انكشف فجأةً لعالَم لا ينتمي إليه من الأصل، وقد غمرته ريحٌ وأشعة شمس لم يكن يُفترَض أن يتعرَّض لهما، وقد توقَّف نموُّه هنا، مهما بدا جديدًا وطازجًا ويلفُّه لونٌ مائي منعِش. وجه عُرِّض لهذا العالم، فقط من أجل أن يرفضه.

لم أستطِع إلا أن أشعر أن تلك اللحظة التي كان فيها وجه يويكو بهذا الجَمال، لا يمكن أن تُكرَّر مرةً ثانية لا في حياتها هي، ولا في حياتي أنا الذي أشاهده الآن. ولكنَّ استمرار ذلك لم يكن بالوقت الطويل الذي توقَّعته. فجأةً ظهرت تغيراتٌ في ذلك الوجه الجميل.

نهضت يويكو واقفة. وأعتقد أنني رأيتها تضحك في تلك اللحظة. بدا لي أنني رأيت لمعانَ تلك الأسنانِ الأمامية البيضاء في ضوء القمر. ولا أستطيع مواصلةَ الكتابة أكثرَ من ذلك عن تلك التغيرات. والسبب أن وجه يويكو التي نهضت واقفةً هرب من ضوء القمر

الواضح واختفى وراء ظلال الأشجار الواقفة. وللأسف لم أستطِع رؤيةَ التغيرات التي اعترَت يويكو عندما أخذت قرار الخيانة. ربما لو كنتُ رأيتُ ذلك بالتفصيل، لنبَتَ فيَّ قلبٌ يغفر للبشر، قلبٌ يغفر كلَّ شيء بما في ذلك مختلف أنواع القبح.

أشارت يويكو إلى ظلٍّ جبل قريب من تجمُّع منازل كاوارا المجاور.

صاح أحد جنود الشرطة العسكرية:

«إنه معبد كونغوين.»

بعد ذلك تولَّدت داخلي فرحةٌ عارمة مثل فرحة الأطفال بالأعياد. وزَّع جنود الشرطة العسكرية المهامَّ فيما بينهم، وقرَّروا محاصرةَ معبد كونغوين من الجهات الأربع. وطلبوا من أهالي القرية التعاون. انضممتُ أنا مع خمسة أو ستة من الفتيان بسبب الفضول الخبيث، إلى المجموعة الأولى تقودنا يويكو لترشدنا إلى المكان. اندهشتُ من خطواتِ يويكو المليئة بالثقة وهي تسير بصحبة جنود الشرطة العسكرية، تتقدَّم الجموعَ في الطريق التي ينيرها ضوء القمر.

يُعَدُّ معبد كونغوين معبدًا شهيرًا جدًّا، ويقع في سفح الجبل على بُعد ربع ساعة من ياسوأوكا؛ فهو يشتهر ببرجه الثلاثي الفخم، وبشجرة التورية التي يقال إن الأمير تاكاؤكا قد زرعها بيده الكريمة، ويشتهر كذلك بأعمال النحَّات جينغورو هيداري. وقد ذهبتُ كثيرًا في الصيف لكي ألعبَ عند شلالات الجبل الذي يقع في خلفية المعبد.

يقع سورُ المبنى الرئيس للمعبد بجوار ضفة نهر. فوق السور الطيني المتهالك، ينبُت الكثير من الحَسَك، وبَتَلاته البيضاء تلمع حتى في الليل. وبجانب مدخل المبنى الرئيس تُزهِر الكاميليا. سارت الجموع بمحاذاة النهر في صمت عميق.

ويقع أيضًا المبنى الرئيس لمعبد كونغوين في مكانٍ أعلى من ذلك. وبعد عبور جسر ماروكيباشي ثمَّة برجٌ ثلاثي على اليمين وغابةُ أشجار القَيْقَب على اليسار. وفي عمقها تعلو سامقةً درجاتٌ حجرية عددها مائة وخمس درجات. وهي مصنوعة من الحجر الجيري؛ لذلك فهي سهلة الانزلاق.

التفَت أحد الجنود إلى الخلف قبل عبور جسر ماروكيباشي، وأوقف حركةَ الجموع بإشارةٍ من يده. يقال إنه في الماضي ثمَّة بوابة عليها تمثالا نيؤو من صنْع أونكيه وابنه تانكيه. ويملِك معبد كونغوين سلسلة جبال تسوزورا من هنا إلى نهايتها ... كتمنا جميعًا أنفاسنا.

حثَّ الجنودُ يويكو على التحرُّك. عبرَت هي جسرَ ماروكيباشي بمفردها، وبعد فترةٍ عبرْنا نحن خلفها. يختفي الجزء الأسفل من الدرجات الحجرية في الظل. ولكن كان ضوء

القمر ينير نصفَها العلوي. أخفينا أنفسنا هنا وهناك في الظلال بالجزء الأسفل من الدرجات الحجرية. وظهرت أشجار القيقب التي بدأت تتلوَّن، تحت ضوء القمر في لون أسود.

يقع المبنى الرئيس لمعبد كونغوين أعلى الدرجات الحجرية، ومعلَّق من هناك على اليسار بميلٍ ممرٌّ يؤدي إلى قاعة خالية تشبه قدس الأقداس. تبرُز تلك القاعة الخالية في الهواء، وثمَّة عددٌ كبير من الأعمدة والألواح العرضية المجمَّعة في تقليدٍ لمسرح معبد كيوميزو، كانت تلك الأعمدة تدعَم تلك القاعة من أسفل الجرف. غُسل المبنى الرئيس وجسر العبور والهياكل المجمَّعة بالرياح والأمطار، فكانت الأعمدة والألواح العرضية بيضاءَ في غاية النقاء كأنها هيكلٌ عظمي. يُظهِر شجر القَيْقَب الكثيف بألوانه الحمراء والذهبية توافقًا رائعًا مع ذلك المبنى المعماري الذي يبدو كهيكلٍ عظمي، ولكن بدا الإطار الخشبي مريبًا وضوء القمر يغمُره في الليل على شكل بُقَع هنا وهناك، ولكنه بدا أيضًا آسرًا خلابًا.

يبدو أن الجنديَّ الهارب يختبئ داخل المبنى الرئيس فوق المسرح. وكانت خُطة جنود الشرطة العسكرية هي استخدامَ يويكو طُعمًا للإمساك به.

اختبأنا — نحن الشهودَ — في الظل، وكتمنا أنفاسنا. كان خدَّاي ساخنين رغم إحاطتهما بنسيم الليل البارد في أواخر شهر أكتوبر.

صعِدت يويكو بمفردها الدرجات المائة والخمس المصنوعة من الحجر الجيري. صعِدت بفخر مثل شخص مجنون ... كان جانب وجهها الجميل هو فقط الأبيض بين ردائها وشعرها الأسودين.

من بين القمر والنجوم وغيوم الليل، والجبل الذي يلمِس الهواء عند قمم أشجار الأرْز التي على شكل الحِراب، وظلال ضوء القمر المتناثرة كالنقاط، والمباني التي تبرُز برَّاقة، من بين كل تلك الأشياء، سَكِرتُ فقط من الجَمال النقي والمتألق لخيانة يويكو. كانت هي الوحيدة المؤهَّلة لكي تصعد تلك الدرجات الصخرية البيضاء بإباء وفي عزة وكبرياء. كانت تلك الخيانة، مثل النجوم والقمر وأشجار الأَرْز التي على شكل الحِراب. بمعنى أنها كانت تسكن معنا، نحن الشهودَ، في هذا العالم وتستقبل هذه الطبيعة. كانت تصعد تلك الدرجات كوكيل يمثِّلنا.

كنتُ وقد لهثَت أنفاسي لا أستطيع الكفَّ عن الاعتقاد التالي:

«إنها من خلال خيانتها تقبَّلتني أخيرًا. لقد أصبحت الآن مِلكي.»

... إن الأحداث في لحظة زمنية معينة تسقط من ذاكرتنا. ولكن ما زالت صورة يويكو وهي تصعد الدرجات الحجرية المائة والخمس التي نبَت عليها العفن الأخضر، أمام عيني. ويُعتقد أنها ستظل تصعد تلك الدرجات الحجرية إلى الأبد.

ولكنها بعد ذلك ستصبح شخصًا مختلفًا. على الأرجح أن يويكو التي انتهت من صعود الدرجات الحجرية، خانتني مرةً أخرى، خانتنا كلَّنا. يويكو من فصاعدًا، لن ترفض العالَم بأكمله. وكذلك لن تقبله بأكمله. ولكنها أسلمت جسدَها لنظام شهوة الحب، وأسقطت جسدَها لتكون امرأةً من أجل رجل واحد فقط.

ولذلك فأنا لا أستطيع أن أتذكَّر المنظرَ إلا كمنظر لوحة قديمة طُبعت على حجر إردواز ... عبَرت يويكو الجسرَ الواصل بين المبنيَين ونادت في ظلام المبنى الرئيس. ظهر ظلُّ رجل. تحدَّثت يويكو إليه بشيءٍ ما. فتوجَّه الرجل إلى منتصف الدرجات الحجرية، وضرب بالمسدس الذي كان يمسكه في يده. مقابل ذلك انطلقت من وسط الدرجات الحجرية المختفية خلف أفرع الأشجار طلقاتُ جندي الشرطة العسكرية ردًّا على ذلك. قبض الرجل على المسدس مرةً أخرى، ووجَّهه إلى ظهر يويكو التي كانت تحاول الهروبَ إلى المبنى الرئيس، وظل يضرب عدةَ طلقات. وقعَت يويكو على الأرض. ثم وضع الرجل فوَّهة المسدس على صدغه وأطلق النار.

... تسابق الجميع في صعود الدرجات الحجرية وأولهم جنودُ الشرطة العسكرية، وأسرعوا إلى مكان الجثَّتين، بينما كنتُ كما أنا أخفي جسدي في ظل أوراق شجر القيقب بلا أي حركة. تتراصُّ قِطع الأخشاب البيضاء بالطول والعرض، وترتفع سامقةً فوق رأسي. ومن فوقها يسقط صوت ترنُّح أحذية تطأ أرضية المبنى الرئيس المغطَّاة بالألواح الخشبية وقد أصبح صوتها في منتهى الخفَّة. تداخلت أشعَّة اثنين أو ثلاثة مصابيح يدوية محمولة متضاربة، وتخطَّت الدرابزين ووصلت إلى أفرع شجر القيقب.

لم أكن أعتقد إلا أنَّ كل ذلك يحدث بعيدًا عني. لا يتوتَّر الأشخاص البليدو الحس، ولا يتحيَّرون ما لم تنزف الدماء. ولكن عندما نزفت الدماء، كانت المأساة قد انتهت بالفعل. كنت قد بدأت أنْعَس في توقيت غير معروف. وعندما استيقظت، كان الجميع نسُوني وتركوني وحيدًا، يملأ المكان حولي تغريدُ العصافير، وأشعة شمس الصباح التي تشعُّ بعمق وقوة تحت أفرع أشجار القيقب. يستقبل مبنى الهيكل العظمي الشمسَ من تحت ركن الزينة، وبدا كأنه بُعث مرة ثانية للحياة. وبرز ناتئًا ذلك المبنى الرئيس الفارغ في هدوء وفخر من بين أودية أشجار القيقب.

نهضت واقفًا، وهززتُ جسمي، ثم حككتُ جسدي هنا وهناك. البرودة فقط هي التي تبقَّت داخل جسمي. الذي تبقَّى فقط هو البرودة.

في عطلة الربيع من العام التالي، زارنا والدي في بيت عمي وكان يرتدي وشاحَ الرهبان فوق الزي الوطني. وقال إنه سيأخذني معه إلى كيوتو مدة يومين أو ثلاثة أيام. كان مرضُ أبي الرئوي قد تدهور كثيرًا، واندهشتُ لاضمحلال صحته. حاولتُ أن أثنيَه عن الذهاب إلى كيوتو بتلك الحالة، ليس أنا فقط ولكن عمي وزوجته كذلك، ولكنه لم يسمع لنا. وعندما أفكِّر في ذلك الأمر بعد أن انقضى، أعتقد أن أبي كان يريد أن يقدِّمني لكبير رهبان المعبد الذهبي أثناء حياته.

بالطبع كانت زيارة المعبد الذهبي هي حلمي لسنواتٍ طويلة، ولكن لم أجد نفسي متقبِّلة الذهابَ في هذه الرحلة وأبي يبدو بهذه الحالة من المرض الشديد الواضحة لكل ذي عينين مهما تظاهر أبي بغير ذلك. تولَّدت في قلبي الحيرة والتردُّد، باقتراب اللحظة التي أتقابل فيها أخيرًا مع المعبد الذهبي الذي لم يسبق لي رؤيته. يجب أن يكون المعبد الذهبي جميلًا بأي حال من الأحوال. ولم يكن الأمر هنا مرهونًا كله بجَمال المعبد الذهبي ذاته، بل كان مرهونًا بقدرة قلبي أنا على تخيُّل ذلك الجَمال.

لقد كنت ضليعًا بكلِّ ما يتعلق بالمعبد الذهبي بقدرِ ما يمكن لعقلِ صبي أن يتفهَّمه. يذكر أحد كتب الفن العادية تاريخَ المعبد الذهبي كما يلي:

«لقد قبِل القائد العسكري يوشيميتسو أشيكاغا (١٣٥٨–١٤٠٨) تنازُلَ عائلة سايؤنجي له عن الجبل الشمالي كيتايامادونو، وهناك بنى له منتجعًا جبليًّا هائلَ الحجم. والمباني الرئيسة كانت مبانيَ بوذية مثل مبنى شاريدن، وقاعة غومادو، وقاعة سنبودو، ومبنى هوسوين، ثم مباني للسُّكنى مثل مبنى شيندن، وغرفة كوغنوما، وقاعة الاجتماعات، ومبنى برج المرآة السماوي، ومبنى النجم الشمالي، ومبنى إزوميدونو، ومبنى كانسيتسو. ونال مبنى شاريدن أثناء بنائه اهتمامًا كبيرًا، وهو الذي سُمِّي فيما بعدُ باسم المعبد الذهبي. ومن الصعب وضعُ خطٍّ فاصل وواضح لوقت تسميته باسم المعبد الذهبي، ولكن يبدو أن ذلك كان بعد تمرُّد أونين (١٤٦٧–١٤٧٧)، وفي عصر بون ميه (١٤٦٩–١٤٨٧) أصبح يُستخدم ذلك الاسم على نطاق واسع.

يتكوَّن المعبد الذهبي من ثلاثة طوابق على شكلِ برجٍ يُطِل على بِركةٍ في حديقة واسعة (بِركة كيوكو)، ويُعتقد أنه انتُهي من بنائه في عام ١٣٩٨. الطابقان الأول والثاني بُنيا على طراز قصور النبلاء، واستُخدمت به ستائرُ تُطوى للحماية من الأمطار والرياح وأشعة الشمس، أما الطابق الثالث فبُنيَ على طراز قاعات الزِّن البوذية الخالصة، بغرفٍ في ثلاثة اتجاهات، وفي المنتصف بابٌ مُنشَأ على عتبة، ونافذتان على اليمين والشمال على شكل رأس

اللهب. وصُنع سقفُ المبنى على طراز «سقف الخيمة»؛ حيث يرتفع فوقه طائر العنقاء المصنوع من النحاس المطلي بالذهب. تبرُز كذلك شرفة «سوسيه»، التي بُنيت على طراز «منصة الصيد» في مواجهة البِركة، محطِّمةً لرتابة المبنى بأكمله. يميل سقف المبنى ميلًا معتدلًا، ويعتمد الإفريز المفرَّغ على أعمدة من خشبٍ رقيق فاخر ذي قطعيات جميلة. يتناغم المبنى الذي على طراز معماري للمنازل السكنية مع القاعات البوذية، ويتوافق جَمالُ الحديقة الفاخرة مع المباني، ويظهر فيها ذوق يوشيميتسو الذي أدخل ثقافة طبقة النبلاء لتوضِّح لنا جيدًا البيئةَ العامة لذلك العصر.

بعد موت يوشيميتسو ومن خلال أمره في وصيته، تحوَّل كيتايامادونو إلى معبدٍ بوذي لطائفة الزِّن، وسُمِّي باسم معبد روكوؤنجي. ونُقل بعضٌ من تلك المباني إلى أماكنَ أخرى وهُدم بعضها، ولكن لحسن الحظ ظلَّ المعبد الذهبي فقط باقيًا.

بُني المعبد رمزًا على عصور الظلام، مثل قمرٍ في سماء الليل. وهنا، كان من الضروري أن تكون هناك خلفية من الظلام للمعبد الذهبي في أحلامي، تدفعه وتُبرِزه عمَّا يحيط به. فهو يجلس بهدوء وسكينة تامة في وسط الظلام، حيث تُطلِق الأعمدة الرفيعة الجميلة للبناء من داخلها أشعةً دقيقة. مهما حكى البشر عن ذلك المبنى، فالمعبد الذهبي الجميل، بِصمته، يجب أن يُكشف تركيبه الدقيق المرهف للعِيان، وأن يتحمَّل الظلام الحالك المحيط به. كذلك فكرتُ في طائر العنقاء النحاسي المطلي بالذهب في قمَّة هذا السقف المنكشف للرياح والأمطار طَوال تلك السنين الممتدة. ذلك الطائر السِّحري باللون الذهبي، لا ريبَ أنه قد نَسي أنه طائر، فلا هو يصيح في الفجر معلنًا وقت الصباح ولا هو يرفرف بجناحيه. ولكن من الخطأ الاعتقاد أنه لا يطير. فرغم أن باقي الطيور يطير عبر المكان، إلا أن طائر العنقاء الذهبي هذا يفرد جناحيه المتألقين ويطير بهما عبر الزمان إلى الأبد. الزمان هو الذي يضرب جناحيه. يضرب جناحيه ويذهب متقهقرًا للخلف. ومن أجل أنه يطير بالفعل، لم يكن للعنقاء فقط إلا أن يتشبَّث، وهو في هيئة الثبات، بقدميه الذهبيَّتين المهيبتين بالأرض، ناظرًا في غضب، رافعًا جناحيه عاليًا، ملوِّحًا بريش ذَنَبه للخلف.

عندما أفكِّر بهذه الطريقة، أصل إلى اعتقاد أن المعبد الذهبي ذاته هو عبارة عن سفينة في غاية الجَمال عبَرت بحر الزمان آتية إلينا. ما يقوله كتاب الفن عن المعبد الذهبي إنه «بناء مفرَّغ قليل الجدران»، يجعلك تتخيَّل بناءَ السفينة، وتظهر تلك البِركة التي تُطِل عليها هذه «العوَّامة» المعقَّدة ذات الطوابق الثلاثة، كأنها رمزٌ للبحر. وأن المعبد الذهبيَّ جاء عابرًا لياليَ لا عددَ لها. إنه عبورٌ لبحر هائل لا يُعرف متى ينتهي. ثم في أثناء النهار،

تلقي تلك السفينةُ العجيبة مرساتَها بوجهٍ يتصنَّع الجهل وتترك نفسَها لهذا العدد الكبير من الزوَّار. وعندما يأتي الليل، تحصُل على دفعة قوية من الظلام المحيط، ثم تنفخ السقف ليكون مثل الشُّراع وتُبحِر من جديد.

لا أبالغ لو قلتُ إن أولى المشكلات الصعبة التي واجهتني في حياتي هي الجَمال. إن أبي راهبٌ بسيط في قرية ريفية، وحصيلة كلماته فقيرة، علَّمني فقط قول «ليس في هذا العالَم ما هو أجملُ من المعبد الذهبي». كنتُ أشعر بعدم الرضا والاستياء الشديد من فكرة وجود الجَمال بالفعل في مكانٍ أجهله. فمعنى وجودِ الجَمال هناك وجودًا مؤكدًا هو أنني أُبعِدتُ عن الجَمال في مكانٍ منعزل.

ولكنَّ المعبد الذهبي لم يكن يمثِّل بالنسبة لي مجرَّد فكرة نظرية. فرغم أن الجبال تَحيل بيني وبين رؤيته، إلا أنه يمكنني إذا أردتُ، الذهابُ إليه لرؤيته في مكانه. فهو شيء يمكن لمس جَماله بالأصابع هكذا، وينعكس بوضوح في العيون. كنت أعلم، بل كنتُ أُومن تمامًا بوجود معبد ذهبي ثابت غير متغيِّر، في وسط أشكال متغيرة كثيرة.

وأحيانًا ما أعتقد أن المعبد الذهبي عبارة عن تصميم صغير دقيق يمكن احتواؤه داخل يدي. وكذلك أحيانًا ما أعتقد أنه معبدٌ عملاق مثل وحش ضخم يرتفع شامخًا حتى السماء العالية. فلم يكن موجودًا في عقلي أثناء فترة الصبا، فكرةُ أن الجَمال لا بد أن يكون بدرجةٍ مناسبة، وألا يكون كبيرًا ولا صغيرًا. وكنتُ أفكِّر عندما أرى زهرةً صيفية صغيرة، تشعُّ أشعةً مبهمة بعد أن تبتلَّ بندى الصباح، في أنها جميلة مثل المعبد الذهبي. أيضًا عندما أرى غيومًا تقف حاجبةً الجبالَ البعيدة، ويتألَّق منها فقط حوافُّها الكئيبة التي تحوي البرقَ في لون ذهبي، هذا الجلال يذكِّرني بالمعبد الذهبي. وفي النهاية أصبحتُ حتى لو رأيت وجهَ إنسان جميل أصِفه داخلي بـ «أنه جميل مثل المعبد الذهبي».

كانت تلك الرحلة مليئةً بالأحزان. خط سكة حديد مايزورو يقف في المحطات الصغيرة من محطة غرب مايزورو إلى ماغورا ثم أويسوغي، ثم يمرُّ عبر محطة أيابي، متجهًا إلى كيوتو، ولكن كانت عربة الركَّاب قذرة، وفي المناطق المحاذية لوادي هوزو التي تكثر فيها الأنفاق، يقتحم دخانُ الفحم العرباتِ دون هوادة ولا استئذان، وبسبب ذلك الدخان الخانق سعل أبي عدةَ مرات.

رغم قلة الركَّاب إلا أن أغلبهم كان له علاقة بالقوات البحرية. وكانت عربة الدرجة الثالثة كاملةَ العدد بالركَّاب من عائلات الضباط الصِّغار الرتبة، وجنود البحرية والعمال العائدين من زيارتهم في مركز التدريب والصيانة التابعِ للقوات البحرية.

نظرتُ في الخارج إلى سماء الربيع ذات السحاب الثِّقال. ثم نظرتُ إلى الوشاح الذي يرتديه أبي على صدره فوق الزِّي الوطني، وكذلك نظرتُ إلى صدورِ الجنود الشباب، ذوي الوجوه الصحية، المزيَّنةِ بأزرار ذهبية اللون. أحسستُ أنني في المنتصف بينهما. فإذا وصلتُ إلى سنِّ العشرين، فسيستدعيني الجيش. ولكن حتى لو افترضنا أنني أصبحتُ جنديًّا هل يا تُرى أستطيع أداءَ واجبي بإخلاص مثل هؤلاء الجنود الصغار الذين هم أمام عيني؟ لقد كانت قدماي كلٌّ واحدة منهما في عالم مختلف على أي حال. ورغم أنني كنت في هذه السن الصغيرة، إلا أنني كنت أشعر أن عالَم الموت الذي يسيطر عليه أبي، وعالَم حياة الشباب، على وشْك الارتباط تحت جبهتي القبيحة العنيدة، خلال الحرب كوسيط بينهما. هل سأصبح أنا عقدةَ ذلك الارتباط؟ هل إذا متُّ شهيدًا في الحرب، يتضح لي في نهاية الأمر أن كلا الطريقين اللذين أمام عيني الآن له نفس المآل؟

لقد كانت فترة صباي متعكرة بلونٍ معتم. وكان العالَم مرعبًا وذا ظل مظلم، ولم أكن أملِك حياةً واضحة تمامًا مثل النهار الأبيض.

مع اهتمامي بسعال أبي، كنت أنظر مراتٍ كثيرة إلى خارج نافذة القطار على نهر هوزو. كان النهر يأخذ لونًا أزرقَ شديدَ القتامة، مثل مادة كبريتات النحاس التي تُستخدم في تجارب الكيمياء في المدرسة. وفي كل مرة نخرج من النفق، كان وادي هوزو يبتعد عن خط السكة الحديد، ثم يأتي مرةً ثانية مقتربًا اقترابًا غيرَ متوقَّع، وكأنه مخرطة ذات لون أرزق قاتم محاطة بأحجار ملساء تدور وتلف مصدِرةً صوتًا هادرًا.

كان أبي يخجل من فتح وجبة الطعام، التي تحتوي على أرز أبيض مكوَّر، في عربة القطار.

«إنه ليس أرزًّا من السوق السوداء، بل إنه تبرُّع من أتباع المعبد؛ لذا يجب أخذُه بامتنان.»

قال ذلك بصوتٍ يسمعه المحيطون بنا وهو يُخرِج الأرز ليأكله، وأكل أبي بالكاد واحدةً من كورِ الأرز تلك الصغيرة الحجم.

لم أكن أعتقد أن هذا القطار المتهالك المليء بالسُّخام في طريقه إلى العاصمة. بل كان لديَّ إحساس أن هذا القطار يتقدَّم متوجهًا لمحطة الموت. وعندما فكَّرت في ذلك أحسست أن الدخان الذي يملأ العربة عند كل نفق به رائحةُ أفران حرق الجثث.

... ولكن على الرغم من كل شيء، أُصيب قلبي بالخفقان عندما وقفتُ أمام المدخل الرئيس لمعبد روكوؤنجي. سأرى أخيرًا أجملَ ما في هذا العالم.

مالت الشمس إلى الغروب، والتحفتِ الجبال بالضباب. ودخل عددٌ من زوار المعبد من نفس الباب أمامنا وخلفنا أنا وأبي. وعلى الجانب الأيسر من البوابة، برجُ الناقوس محاطًا بغابة من البرقوق ما زالت بها زهور متفتِّحة.

وقف أبي أمام بوابة المبنى الرئيس التي تتقدَّمها شجرة سنديان عملاقة وطلب الدخول. فقيل له إن الراهب المقيم لديه زائرون حاليًّا ويريد من أبي الانتظارَ عشرين أو ثلاثين دقيقة.

فقال لي أبي:

«هيا نلقي نظرةً ونلفُّ حول المعبد الذهبي خلال هذه المدة.»

وعلى ما يبدو كان أبي يريد أن يريَني أنا ابنه كيف أنه يستطيع الدخولَ مجانًا من بوابة الزوار بسبب معرفتهم به. ولكن الرجل الذي يبيع التذاكر والبطاقات وكذلك الشخص الذي يتأكَّد من التذاكر عند بوابة الدخول تغيَّروا تمامًا عن أولئك الذين كانوا موجودين عندما كان أبي يأتي كثيرًا إلى هنا منذ أكثرَ من عشر سنين.

«عندما آتي في المرة القادمة، من المؤكد أنهم سيتغيَّرون مرة أخرى.»

قال أبي ذلك بوجهٍ يميل إلى الشعور بالبرد، ولكني أحسستُ أن أبي أصبح بالفعل غير واثقٍ من مسألة «آتي في المرة القادمة».

ولكني تعمدتُ وبما يليق بصبيٍّ (في هذا الوقت فقط، في الوقت الذي أتعمَّد فيه التمثيل الشرير، أكون صبيًّا حقيقيًّا) أن أسبقه بمرح، وتقريبًا ذهبتُ جريًا. سيظهر هنا أمام عينيَّ المعبدُ الذهبي الذي اشتقت إليه في أحلامي بكامل هيئته دون تمنُّع.

كنتُ أقف على هذا الجانب من بِركة كيوكو، وكان المعبد الذهبي على الجانب الآخر من البِركة كاشفًا عن واجهته الأمامية تحت الشمس التي بدأت في الميل ناحية الغرب. كان يختبئ أغلبُ منصة الصيد (سوسيه) في الجانب الأيسر من الجهة الأخرى. وكان ظلُّ المعبد الذهبي بتفاصيله الدقيقة منعكسًا على البِركة التي طفَت الطحالب وأوراق الأعشاب المائية متناثرةً على سطحها، وبدا لي ذلك الظل المنعكس في غاية الكمال. جعلت شمس الغروب انعكاسَ ماء البِركة، يهتزُّ على الجانب الخلفي لإفريز كل طابق. بالمقارنة مع إشراقة الجوانب، كان انعكاس الجانب الخلفي لتلك الأفاريز في غاية الوضوح والتألُّق، مما جعل المعبد الذهبي يبدو وكأنه منحنٍ للخلف مثل لوحةٍ رُسمت بطريقة منظور مُبالغ فيها.

وضع أبي يدَه المريضة النحيلة على كتفي وقال:

«ما رأيك؟ أليس جميلًا؟ الطابق الأول يسمَّى هوسوين، والثاني تشوندو، والثالث كوكيوتشو.»

تأمَّلتُ المعبد وأنا أغيِّر وجهةَ النظر بدرجاتٍ متنوِّعة أو أعوج عنقي بأشكال مختلفة. ولكن لم يحدُث لي أيُّ انبهار. إنه لم يَزِد عن مجرد مبنًى قديم صغير مكوَّن من ثلاثة طوابق اسودَّت جدرانه بفعل الزمن. وحتى طائر العنقاء الذي على القمة، لم يبدُ لي إلا كأنه غرابٌ واقف. ليس جميلًا بأي حال، بل على العكس أحسستُ بتنافُر يسبِّب حالةً من الانزعاج. فكَّرت، هل يا تُرى «الجَمال»، هو شيء قبيح هكذا؟

لو كنتُ صبيًّا متواضعًا محبًّا للدراسة، لربما كنتُ أندُب حظي لعدم اكتمال حاسة التذوُّق لديَّ، قبل أن أسقط بهذه السهولة في خيبة الأمل. ولكن غطَّى ألمُ الخيانة، الذي أصاب قلبي بعد توقُّعه الجَمالَ إلى هذه الدرجة، على كل شيء آخر.

فكرتُ أن المعبد الذهبي يتنكَّر في هيئة شيء آخر مختلف ليُخفيَ جَماله. حيث من الممكن أن يخدع الجَمالُ أعينَ الناس من أجل أن يحميَ نفسه. يجب عليَّ الاقترابُ أكثر من المعبد الذهبي، وإزالة الحاجز الذي أشعر به بشدة على عيني، وفحص كل تفاصيله على حدة، ورؤية جوهر هذا الجَمال بعينيَّ هاتين. فهذا هو السلوك الطبيعي، ما دمتُ لا أُومن إلا بالجَمال المنظور لعيني فقط.

حسنًا لقد قادني أبي بجلال واحترام، فصعِدنا إلى الحافة الجانبية لمبنى هوسوين. نظرتُ أولًا إلى نموذج المعبد الذهبي البديع الموضوع في صندوقٍ زجاجي. أعجبني ذلك النموذج. فقد كان على العكس هو الأقربَ إلى المعبد الذهبي الذي كنت أراه في أحلامي. وجعلني هذا النموذج الشبيه تمامًا بالمعبد الذهبي والموجود داخله، وكأنه كونٌ صغير داخل الكون الكبير، أفكِّر في التماثل اللانهائي. استطعت لأول مرة أن أرى حُلمًا فيه معبدٌ ذهبيٌّ أصغرُ من هذا النموذج، معبدٌ ذهبيٌّ مطلَق الكمال، ثم معبدٌ ذهبيٌّ أكبر من الحقيقي بدرجةٍ لا حدَّ لها، كأنه يحوي العالَم كلَّه.

ولكن لم تظلَّ قدماي واقفتين أمام النموذج بلا نهاية. فقد أرشدني أبي بعد ذلك إلى تمثال يوشيميتسو الشهير المسجَّل أثرًا وطنيًّا. ويسمَّى ذلك التمثال الخشبي تمثال «روكوؤنيندونو ميتشيوشي» وهو اسم يوشيميتسو بعد حلقِه رأسَه ودخوله عالَم الرهبنة.

ولكن هذا التمثال لم يبدُ لي إلا كصنم غريب ملوَّث بالسُّخام، ولم أشعر فيه بأي جَمال. وحتى عندما ذهبنا إلى الطابق الثاني المسمَّى تشوندو، ورأيتُ لوحة الملاك العازف في السقف التي يُقال إنها من عمل ريشة الفنان ماسانوبو كانو، لم أحسَّ بأنها جميلة.

نظرت إلى أسفل شاردًا على سطح البِركة وأنا أستند بظهري إلى الدرابزين الدقيق. كانت البِركة مضاءة بشمس الغروب، ويسقط مباشرةً ظلُّ المعبد الذهبي فوق سطحٍ يشبه مرآةً نحاسية صدِئة من العصور القديمة. كانت سماء الليل تنعكس على الطحالب الخضراء والأعشاب أسفل الماء. كانت سماء الليل تلك تختلف عن السماء التي فوق رءوسنا. فقد كانت مشرِقة ورائقة، وتمتلئ بضوء هادئ، يبتلع تمامًا هذا العالَم الأرضي بأكمله من أدناه ومن داخله، ويترسَّب المعبد الذهبي في داخلها، مثل مرساةٍ عملاقة من الذهب الخالص امتلأت تمامًا بالصدأ …

كان الراهب المقيم دوسن تاياما صديقًا لأبي في المعبد نفسه أثناء تعلُّم الزِّن. وقضيا معًا فترةَ الزِّن مدة ثلاث سنوات، وأثناء تلك الفترة كانا يبيتان معًا في مكان واحد. وكانا قد دخلا عالَم الرهبنة بعد أن أنهيا إجراءات الوقوف يومًا كاملًا أمام المدخل، وجلوس جِلسة الزِّن للتأمل مدة ثلاثة أيام، المعروفة من قديم الزمان في المكان المخصَّص لمعبد شوكوكوجي الذي بناه كذلك القائد العسكري يوشيميتسو. ليس هذا فقط، وهذا ما حكاه لي الراهب دوسن فيما بعدُ في وقتٍ كان معتدِل المزاج، فلم يكونا صديقين هكذا في وقت الشدة فقط، بل عند خلودهما إلى النوم أيضًا، وكانا صديقين كذلك في متعة تسلُّقهما المعبدَ والذهاب لجلبِ المومسات.

بعد أن زُرنا المعبد الذهبي أنا وأبي وعندما مررنا مرةً أخرى عند مدخل القاعة الرئيسة، أُرشِدنا إلى ممر واسع وطويل، فدخلنا غرفةَ الراهب المقيم في مبنى المكتبة الكبرى التي تُطِلُّ على الحديقة التي بها شجرة صنوبر شهيرة تأخذ شكل مركب تنين. جلستُ على ركبتي بتبجيل جِلسةً متخشبة وأنا بالزي المدرسي، ولكن أبي عندما وصل إلى هذا المكان ظهر عليه سريعًا الراحة والاسترخاء. ومع تخرُّج أبي وكبير رهبان هذا المعبد من المعبد نفسه إلا أن الاختلاف بينهما كان عظيمًا في تفاوت الرخاء البادي على ملامحهما. فأبي ذابلٌ من المرض، فقير المظهر وبشَرته جافة معفَّرة، وفي المقابل بدت بشَرة الراهب «دوسن» بلون وردي كالحلوى. وفوق مكتب الراهب المقيم تراكم كالجبال ما يتناسب مع رخاءِ معبدٍ مثل هذا؛ رسائل وطرود ومجلات وكتب مرسَلة من جهاتٍ وأشخاص عديدة مقفولة لم تُفتح بعدُ. أمسك الراهب المقيم بأطراف أصابعه الممتلئة مقصًّا وفتح غلاف أحد الطرود.

«هذه حلوى أُرسلت إليَّ من طوكيو. مثل هذه الحلوى أصبحت نادرة. يقال إنها لا تُرسل إلى المحلات، بل تُرسل إلى الجيش والهيئات الحكومية مباشرةً.»

شرِبنا الشاي الأخضر الخفيف وأخيرًا أكلنا تلك الحلوى الغربية التي لم يسبق لي أكلُها من قبل، وكانت تشبه حلوى جافة. كلما زاد توتُّري سقط بلا حدٍّ مسحوقُ الحلوى على ركبة سروالي الأسود.

تبادل أبي والراهب المقيم النقاشَ حول اهتمام الجيش وكبار موظفي الدولة بمعابد الشنتو فقط، في حين ينتقص من شأن المعابد البوذية، وأظهرا الغضبَ والحَنق تجاه الاضطهاد الذي تلاقيه معابد البوذية وليس التقليل من شأنها فقط، وفكَّرا في كيفية إدارة شئونها في المستقبل.

كان الراهب المقيم قصيرًا وسمينًا، وبالطبع به تجاعيدُ، ولكن كانت كل واحدة من تلك التجاعيد في غاية النظافة. كان وجهه بيضويًّا وأنفه طويلًا، كأنه يأخذ شكل تجمُّد دهون منزلقة من أعلى. ورغم أن الوجه كان كذلك، إلا أن الرأس المحلوق تمامًا كان فظًّا وخشنًا، وكأن قوَّته الروحية متجمعة في رأسه، كان رأسه فقط حيوانيًّا بدرجة مريعة.

تحوَّل حديث الراهب المقيم مع أبي إلى ذكريات فترة دراستهما للرهبنة. تأمَّلت أنا صنوبر مركب التنين في الحديقة. كانت عبارة عن شجرة صنوبر عملاقة أفرعها منخفضة ومعقَّدة تأخذ هيئة المركب، الأفرع التي في المقدمة فقط متعدِّدة ومرتفعة. ويبدو أن جماعة سياحية جاءت لزيارة المعبد قبل موعد الإغلاق بقليل، وصلت إلينا عبْر السور أصواتُ الصخب والزحام من ناحية المعبد الذهبي. امتصَّت السماء نهايات الربيع أصواتَ الأقدام وأصوات الأشخاص، فلا نسمع الأصوات حادةً، بل نسمعها تتردَّد لينة خفيفة. تبتعد أصوات الأقدام وكأنها صوتُ تيار البحر، فتجعلك تعتقد أنها أصوات أقدام الكائنات الحية[1] يعبرون فوق الأرض. نظرتُ عاليًا مثبتًا نظري على طائر العنقاء في قمة المعبد الذهبي الذي يجتهد في امتصاص أشعَّة الضوء المتبقية في فترة الغروب.

«هذا الولد ...»

سمِعت أبي يقول ذلك فجأةً، فحوَّلت نظري نحوه. لقد أودع أبي مستقبلي وديعةً بين يدي الراهب دوسن داخل الغرفة التي أصبحت تقريبًا مظلمة.

«لا أعتقد أنني سأعيش طويلًا، بهذه المناسبة أرجو منك أن تقبل عندك هذا الولد.»

«حسنًا. سأقبله.»

[1] الكائنات الحية هي ستَّة كائنات تتناسخ فيها الروح طبقًا للمعتقَد البوذي، وهم سكان السماء والبشَر والجن والحيوانات ذوات الأربع والعفاريت المتصارعة، وأخيرًا سكان الجحيم. (المترجم)

الأمر الذي اندهشت له هو أنَّ الحديث الممتع بينهما بعد ذلك، كان عن أحاديثَ شائعةٍ لموت عدد من مشاهير الرهبان المختلفين. مثل موت راهب شهير بعد أن قال: «آه ... إن الموت ليس ببعيد»، وراهب شهير آخر قال مثلما قال غوته تمامًا: «هل لي بضوءٍ أكثرَ!» وراهب شهير ثالث كان حتى موته يسجِّل حسابات أموال معبده.

بعد ذلك دُعينا لتناول وجبة العشاء التي تسمَّى «ياكوسيكي»،[٢] وسُمح لنا بالمبيت في المعبد تلك الليلة، وبعد العشاء حفَّزت أبي، فذهبنا مرةً أخرى لرؤية المعبد الذهبي. والسبب أن القمر كان قد صعِد في وسط السماء.

انفعل أبي بمقابلة الراهب المقيم بعد فترة انقطاع طويلة، ولذا كان مرهقًا إرهاقًا كبيرًا، ولكن عند سماع كلمة المعبد الذهبي ذهب معي وهو يستند على كتفي وأنفاسه تتقطَّع.

صعِد القمر من جانب جبل فودو. ليستقبلَ المعبد الذهبي ضوءَ القمر من خلفه، وينطويَ ظلُّه المظلِم المعقَّد ساكنًا، ولكن ينزلق من إطار نافذةِ كاتو على قمَّة كوكيوتشو فقط ظلٌّ أملس للقمر. ولأن القمَّة في الطابق الثالث مفرغة من الحوائط بدا أن تلك المنطقة فقط هي التي يسكن فيها ضوء القمر الخافت.

صاحت طيورُ الليل من خلف جزيرة أشيهارا ثم طارت. أحسستُ بثِقل يدِ أبي الهزيلة على كتفي. عندما نظرتُ إلى تلك الكتِف، وبسبب درجة انعكاس ضوء القمر، شاهدت يدَ أبي تتحوَّل إلى هيكل عظمي.

بعد العودة إلى ياسوأوكا، بُعث جَمال المعبد الذهبي الذي أعطاني هذه الدرجة من فقدان الأمل، في قلبي مرةً أخرى. ويومًا بعد يوم، وفي غفلةٍ من الزمن، عاد المعبد الذهبي الجميل مرةً أخرى أكثرَ مما كان قبل أن أراه. ولم أستطِع التعرُّف على ما هو الجميل فيه. ولكن الذي نشأ وتربَّى على وهم، على العكس، أخذ دفعةً وتأثيرًا أكبر للوهم بعد أن عُدِّل من الواقع مرة.

لم يَعُد وهمُ المعبد الذهبي يلاحقني في الأشياء والمناظر التي تلفت انتباهي من حولي. بل أصبح المعبد الذهبي تدريجيًّا موجودًا وجودًا حقيقيًّا بدرجةٍ أعمقَ وأصلب. فقد برز

[٢] ياكوسيكي بمعنى حجر الحرق، حيث كان رهبان الزِّن الزاهدون في الماضي يضعون حجرًا ساخنًا على بطونهم في الليل من أجل إلهاء شعورهم بالجوع. وبعد ذلك أُطلق هذا الاسم على وجبة العشاء. (المترجم)

كلُّ عمود من أعمدته، ونافذة كاتو والسقف وكذلك العنقاء في القمَّة أمام عيني بوضوح تام، وكأنها تكاد تلمس يدي. حتى التفاصيل الدقيقة تتناغم مع التركيبة الكلية المعقَّدة، بما يشبه انسيابَ لحن كامل لعملٍ موسيقيٍّ ما عندما تتذكر فقط جزءًا صغيرًا منه، فكنتُ إذا تذكَّرتُ أيَّ جزء من المعبد الذهبي كان شكله الكامل يتردَّد صداه في داخلي.

ولأول مرة في حياتي أكتب خطابًا إلى أبي قلت له فيه:

«كما ذكرت لي يا أبي: إن المعبدَ الذهبي هو أجمل شيء في الوجود.»

بعد أن اصطحبني أبي وأعادني إلى منزل عمي، عاد على الفور إلى المعبد المنعزل في رأس البر.

وردًّا على الخطاب، تسلَّمتُ برقيةً جاءت من أمي تقول إن أبي نزف الكثير من الدماء بسبب السل ومات.

الفصل الثاني

بموت أبي انتهت لديَّ مرحلة الصبا انتهاءً حقيقيًّا، ولقد اندهشتُ كثيرًا أنني في تلك المرحلة لم أمتلك أيَّ نوع مما يمكن تسميته اهتمامًا بالبشر. وتطوَّرت هذه الدهشة، عندما رأيتُ أنني لم أحزن بأي قدْرٍ لموت أبي، وهو ما لا يمكن تسميته دهشةً، بل أصبح نوعًا من الانطباع بالضَّعف وعدم امتلاك أي قوة.

توجَّهتُ إلى قريتي على وجه السرعة، وعندما وصلت كان أبي مسجًّى في التابوت بالفعل. والسبب أنني مشيتُ سيرًا على الأقدام حتى وصلت إلى خليج أوتشيؤرا، وهناك استأجرتُ مركبًا، فاستغرقت العودة إلى ناريو يومًا كاملًا من الإبحار بمحاذاة الساحل. كان الوقت هو ما قبل موسم المطر حيث الجو شديد الحرارة كلَّ يوم. وبعد أن ألقيتُ نظرةَ الوداع على وجه أبي، تقرَّر أن يُحرق على الفور بجوار شاطئ البحر، فحُمل التابوت إلى مكان الحرق في رأس البر المقفِر.

كان موت الراهب المقيم لمعبدٍ بوذي في قرية ريفية أمرًا في منتهى الغرابة. كان أمرًا ملائمًا ملائمةً زائدة عن الحد، فصار غريبًا. كان أبي يشكِّل ما يمكن اعتباره المركز الروحي لتلك المنطقة، وكان هو الذي يرعى أتباع المعبد في كلِّ ما يتعلَّق بحياتهم، وهو الشخص المفوَّض منهم بالتعامل معهم بعد موتهم. هذا الشخص مات في معبده. وهو ما أعطى لهم انطباعًا عميقًا بأنه كان مخلِصًا في عمله لأقصى درجة، الرجل الذي يدور عليهم ليعلِّمهم كيفيةَ الموت، أخطأ وهو يعمل محاكاة الموت فيموت، ليعطيَهم إحساسًا بنوع من أنواع الخطأ المهني.

كان تابوت أبي في الواقع كأنه مُركَّب داخل شيء مرتَّب بكل ترتيب ممكن، وموضوعًا بحيث يعطي إحساسًا بأنه في مكانه المناسِب بدرجة زائدة عن الحد. وكانت أمي وصِغار

الرهبان وأتباع المعبد يبكون أمام التابوت. كانت قراءة صغار الرهبان لكتب السوترا المقدَّسة كأنهم يتلقَّون إرشادات أبي من داخل التابوت.

كان وجه أبي مدفونًا وسط زهور بدايات الصيف. كانت الزهور ما زالت حيةً لدرجةٍ تسبِّب الإعياء، وكأنها تنظر إلى قاع بئر. والسبب هو أن وجه الميت ابتعد ابتعادًا لا نهائيًّا عن سطح الوجود الذي يملِكه الوجه أثناء حياته، وأبقى فقط ما يشبه حافةَ وجه تم توجيهه إلينا؛ لأنه وقع في عمقٍ بدرجة لا يمكن الارتفاع منه ثانية. ثمَّة شيء يُدعى المادة، في مكان بعيد عنَّا بدرجة كبيرة، وطريقة هذا الوجود، أنه لا يمكن أن تصل إليه أيدينا بدرجةٍ كبيرة، لا شيء يمكن أن يحكيَ عن ذلك أكثرَ واقعية من وجه الميت. لأول مرة يمكنني ملامسة الروح وهي تتحوَّل إلى شيء مادي من خلال الموت هكذا، أحسستُ في ذلك الوقت أنني أصبحتُ أتفهَّم تدريجيًّا سببَ تعامُل «المادة» — مثل زهور شهر مايو، أو الشمس، أو المكتب، أو مبنى المدرسة، أو القلم الرصاص — معي بهذه الدرجة من البرود، وسبب ابتعادها عني.

حسنًا، كانت أمي وأتباع المعبد يراقبون آخرَ لقاء بيني وبين أبي. ولكن لم يتقبَّل قلبي العنيد تلك الكلمة التي توحي بمقارنة مع عالم الأحياء. لم يكن لقاءً أو ما شابه، أنا فقط كنت أنظر إلى وجه أبي الميت.

وكانت الجثة فقط يُنظر إليها. أنا فقط كنتُ أنظر. كانت عملية النظر، تجري كما هي في الوضع العادي بلا أي وعي لها، عملية النظر، هي برهانٌ على حياة الكائن الحي كما هي الآن، ويمكن لها أن تكون علامةً على العنف والقسوة، وكانت بالنسبة لي تجربةً زاهية مزدهرة. هكذا تعلَّم الفتى الذي لا يغنِّي بصوتٍ عالٍ، ولا يجري ويلف صارخًا، التأكُّدَ من حياته.

أنا الذي كنتُ صاحبَ العديد من الصِّفات الدنيئة، وقتَها، لم يحسَّ وجهي المشرق الذي لم يبتلَّ بأي قدْر ولو قليلًا من الدموع، بأي عارٍ من أن يتَّجه نحو أتباع المعبد. كان المعبد فوق جرفٍ عالٍ يُطلُّ على البحر. وفي خلفية المُعزِّين كانت غيوم الصيف المعقَّدة فوق مياه بحر اليابان تحجُب المنظر.

بدأ الرهبان في قراءة كتب السوترا المقدَّسة الخاصة بالجنازة في طائفة الزِّن التي تواكب حمْل الجثة، وانضممتُ أنا إليهم. وكانت القاعة الرئيسة مظلِمة. وكانت الرايات المعلَّقة على الأعمدة، وأنواع الزهور التي تُزين المزهريات داخل القاعة تلمع باستقبال أشعة الإضاءة التي تتسرَّب من المصابيح. وتدخل من حينٍ لآخر رياحُ البحر فتقلب أطرافَ زي

الرهبان الذي أرتديه. لمحتُ بطرف عيني التي تقرأ كتاب السوترا هيئةَ غيوم الصيف الواقفة التي لا تنقطع وهي تحفِر بقوة أشعةً شديدة وقوية.

تلك الأشعة الخارجية القاسية التي لا تنفكُّ تصب على نصف وجهي بلا انقطاع. ذلك الاحتقار المتألق.

... عندما كانت الجنازة على وشْك الوصول إلى المحرقة على بُعد مائة أو مائتي متر قابلتنا أمطارٌ فجائية. وكان الوقت مناسبًا أننا نمرُّ أمام بيت أحد أتباع المعبد السمح النفس، فاستطعنا جميعًا الاحتماءَ من المطر داخل البيت مع التابوت. لم يكن هناك ما يشير إلى أن المطر سيتوقَّف. وكان يجب أن تتقدَّم الجنازة إلى الأمام. وهنا قام الجميع بإعداد أدوات المطر، وغطَّوا التابوت بورق منقوع في الزيت، وحملوه إلى المحرقة.

كان ذلك المكان عبارة عن شاطئ صغير ممتلئ بالأحجار والحصى في الجزء السفلي لرأس البر البارز في البحر في الجهة الجنوبية الشرقية للقرية. وكما سمِعت هذا المكان يُستخدم كمحرقة لجثث أهالي القرية منذ زمن بعيد، والسبب هو أن الدخان المتصاعد من الحرق في هذا المكان لا ينتشر في ربوع القرية.

كانت موجات ذلك الشاطئ عارمةً بدرجة خاصة جدًّا. وأثناءَ ما كانت الموجات تتحرَّك مهتزة ومتفاقمة وكأنها تحطِّم سطحَ الماء المفعم بالقلق، كانت الأمطار تنغرز فيها بلا توقُّف ولو لحظةً. تخترق الأمطار التي تحجُب الأشعَّة سطحَ البحر غارزةً فيه نفسَها في برود وهدوء. ولكن تهبُّ رياح البحر فجأةً ضاربةً أحجارَ ضِفة البحر الباردة في اضطرب. تصبح الأحجار البيضاء سوداء وكأنها هبَّت عليها قطرات حِبر الفحم الأسود.

وصلنا إلى هناك بعد أن عبَرنا نفقًا، ولكننا انتظرنا داخل النفق لنتجنَّب الأمطار، أثناء إعداد عمال المحرق نارَ الحرق.

لم أستطِع رؤيةَ منظر البحر. فقط الموج والأحجار السوداء المبلولة، والأمطار. كان التابوت الذي رُش بالزيوت، له لون سطح الخشب اللامع، وكان يطرقه المطر.

اشتعلت النيران. كانت كمياتٌ كبيرة من الوقود الذي يوزَّع في التموين من الدولة قد أُعدَّت من أجل الراهب الميت، ولذا كانت النيران على العكس تقاوم الأمطارَ واهتاجت وهي تصدِر أصواتًا مثل ضربِ السياط. رأيت بوضوحٍ هيئةَ اللهب الشفافة في وقت النهار، وسط الدخان الكثيف. الدخان مع تصاعُده وتراكمه بعضه فوق بعض بغنًى ووفرة، كان يهبُّ قليلًا قليلًا نحو الجرف، وفي لحظة معيَّنة، وفي منتصف الأمطار، يتصاعد اللهب فقط في شكل رائع.

انطلق فجأةً صوتٌ مرعب كأنه لشيء ينشق نصفين. وطار غطاء التابوت لأعلى.

نظرتُ إلى أمي التي تقِف بجواري. كانت أمي واقفةً تقبِض بيديها على المِسْبحة البوذية. كان وجهها متجمدًا بدرجة بشعة، ورأيته قد انكمش بدرجة مريعة حتى لقد تخيلتُ أنه وصل إلى حجمٍ يمكن أن يدخل في قبضة يدي.

ذهبتُ طبقًا لوصية أبي إلى كيوتو وصرتُ تلميذًا يتعلَّم الرهبنة في المعبد الذهبي. اتَّبعت وقتَها الراهبَ المقيم وقمتُ بخطوات الدخول في الرهبنة من حلق الرأس وارتداء ملابس الرهبان. ودفع الراهب المقيم لي مصاريفَ الدراسة، ومقابل ذلك كنتُ أقوم بخدمة كبير الرهبان. أي إنني كنتُ مثل أي طالبٍ مقيم في منزله تمامًا.

الشيء الذي انتبهتُ له بعد أن دخلت المعبدَ مباشرةً هو أن الجيش أخذ رهبانَ الدير المزعجين، ولم يبقَ إلا العجائز وصغار السن جدًّا من الصبيان. وقد ارتحتُ كثيرًا بعدما جئتُ إلى هنا من عدة أمور. فلا أحدَ يسخر مني مثل المدرسة الإعدادية المدنية، بسبب أنني ابنُ راهب معبد؛ لأن الكل هنا على شاكلتي ... الذي اختلفت فيه عنهم هو فقط تلعثمي ودمامة وجهي قليلًا. تركت مدرسة شرق مايزورو الإعدادية، وبتوصيةٍ من الراهب المقيم، انتقلتُ إلى مدرسة رينزاي الإعدادية، وتقرَّر أن أبدأ التردُّد على المدرسة من فصل الخريف الدراسي الذي يبدأ بعد أقلَّ من شهر. ولكن كنتُ أعرف أنه مع بداية المدرسة سيتم ترحيلي على الفور إلى أحد المصانع ضمن عمالة مساعِدة وقتَ الحرب. وأمامي الآن بضعة أسابيع باقية من العطلة الصيفية للتعوُّد على البيئة الجديدة التي وُضِعت فيها. مع دهشتي كانت فترة العطلة الصيفية في الحِداد، عطلةً صيفية هادئة للغاية في نهايات الحرب عام ١٩٤٤ ... قضيتُ حياتي في المعبد بصفتي تلميذَ رهبنةٍ في انتظامٍ وجِدٍّ ملتزِمًا بالقواعد، وكان ذلك يذكِّرني بأنها آخرُ عطلاتي مطلقًا. وكنتُ أستمِع إلى صوتِ حشرات الزيز وقتَها بكل تفاصيله.

... كان المعبد الذهبي الذي كنتُ أراه بعد غياب عدةَ أشهر ذا منظر هادئ وسط أشعة الشمس في أواخر الصيف.

كنتُ أحمل رأسًا أخضرَ قد حلقتُه لتوي عند عملي استعدادات الدخول في الرهبنة؛ ذلك الشعور بأن الهواء ملتصِق تمامًا برأسي، وتفكيري في ذلك داخل ذلك الرأس، وتلك البشَرة النحيفة الحسَّاسة تجاه أي جروح، ذلك الإحساس العجيب بالخطر عند تلامسه مع مواد العالم الخارجي.

عند رفعِ ذلك الرأس والنظر إلى المعبد الذهبي، فالمعبد الذهبي ليس من عيني فقط، ولكنني أشعر أنه يدخل إليَّ مقتحِمًا من رأسي أيضًا. وذلك الرأس يسخن استجابةً لأشعة الشمس، ويَبرُد استجابةً لنسيم الغروب.

كنتُ أريح يدي الممسكة بمكنسة التنظيف، وأهمس في قلبي قائلًا: «أيها المعبدُ الذهبي، أخيرًا جئتُ إليك لأسكنَ بجوارك. ليس مهمًّا أن يكون ذلك على الفور، ولكن أرجو في وقتٍ ما أن تُظهِر لي شعورًا بالأُلفة وأن تبوح لي بأسرارك. فجَمالك يبدو وكأنه يمكن رؤيته بوضوحٍ على بُعد خطواتٍ قليلة، ولكنه مع ذلك محجوبٌ عني. أرجو أن تجعل الصورة الأصلية لك أكثرَ جَمالًا من الصورة التي أحتفظ بها لك في قلبي. وكذلك إذا كنتَ أجملَ لدرجةٍ لا تقارن بها أي شيء على وجه الأرض، فاحكِ لي لماذا أنت بهذه الدرجة من الجَمال؟ ولماذا يجب أن تكون بهذا الجَمال؟»

كان المعبد الذهبي في ذلك الصيف، يجعل الأخبارَ الحزينة، التي تتوالى توضِّح الوضعَ المظلم للحرب، طُعمًا له فيبدو متألقًا وأكثرَ حيويةً ونشاطًا عن ذي قبل. كان الجيش الأمريكي قد احتل جزيرةَ سايبان في شهر يونيو، وغزا جيش الحلفاء نورماندي في نفس الشهر. كذلك قلَّ عدد زوار المعبد بدرجةٍ لافتة جدًّا للنظر، وبدا أن المعبد الذهبيَّ وكأنه يستمتع بتلك الوحدة وذلك الهدوء.

كان من الطبيعي جدًّا أن فوضى الحرب والقلق، وكثرة عدد الجثث والدماء الغزيرة، تَزيدان جَمال المعبد الذهبي غنًى ووفرة. في الأصل المعبد الذهبي هو مبنًى أنشأه القلق، مبنًى خطَّط له عدد كبير من الناس يحملون قلوبًا مظلمة وفي مقدمتهم قائدٌ عسكري. لا ريبَ أن التصميم المتفكك ذا الطوابق الثلاثة — الذي لا يمكن لمؤرِّخ فنِّي أن يجد له مثيلًا إلا هنا فقط — بحث عن طرازٍ يبلور القلق فأصبح تلقائيًّا هكذا. لو بُنيَ كطرازٍ واحد مستقر، لَمَا استطاع المعبد الذهبي أن يضمَّ داخله ذلك القلق، ولا شك أنه كان سينهار منذ زمن بعيد.

... ورغم ذلك، مرات كثيرة أريح يدي الممسكة بمكنسة التنظيف، وأنظر عاليًا إلى المعبد الذهبي، وفي كل مرة أشعر بالعجب والدهشة لوجود المعبد الذهبي في هذا المكان. مثلما كان في وقتٍ ما، في ليلة واحدة، عندما زُرت المعبدَ الذهبي مع أبي رغم أنه على العكس لم يعطني هذا الإحساس، فالاعتقاد طَوال تلك السنوات الطويلة التي عشتها أن المعبد الذهبي أمام عيني، هو شعورٌ يصعُب تصديقه.

عندما كنتُ في مايزورو، كنتُ أعتقد أن المعبد الذهبي يقع بلا تغيير في ركن من أركان مدينة كيوتو، ولكن عندما سكنتُ هنا، أعتقد أن المعبد الذهبي يظهر لي فقط عندما أنظر

إليه، وعندما أبيتُ الليل في المعبد الرئيس مثلًا، يأتيني إحساسٌ بأن المعبد الذهبي انعدم وجودُه. من أجل ذلك كنت أذهب لرؤية المعبد الذهبي أكثرَ من مرة في اليوم الواحد مما جعل أقراني يسخرون مني. لكن أيًّا كان عدد المرات التي رأيت فيها المعبد الذهبي كنتُ أعتقد أن وجوده هنا أمرٌ عجيب، وفي طريق عودتي إلى المعبد الرئيس بعد رؤيتي له، أغيِّر وجهتي فجأةً وأنظر إليه مرةً أخرى، أشعر وكأن المعبد الذهبي سيختفي فورًا مثل يوريديس.

حسنًا بعد أن انتهيت من التنظيف حول المعبد الذهبي، تلافيت شمسَ الصباح التي بدأت أخيرًا تزيد من حرارتها وسخونتها، ودخلتُ الجبل الخلفي، وصعدتُ الطريقَ الضيقة المؤدية إلى مبنى سِكَّاتيه. ولأنه لم يحِن الوقت بعدُ لفتح الحديقة، فلا أثر لأي إنسان في أي مكان. حلَّق سربٌ من الطائرات المقاتلة جاء على الأغلب من قاعدة مايزورو الجوية، تحليقًا منخفضًا جدًّا فوق المعبد الذهبي ثم رحلتْ تاركةً مع رحيلها أصواتًا رعدية شديدة.

ثمَّة بِركة مياه موحشة في الجبل الخلفي، تغطيها الطحالب تُعرف باسم «أمِّينتاكو» وداخل البِركة جزيرة صغيرة، وفي وسط الجزيرة برجٌ صغير من الأحجار عبارة عن خمس درجاتٍ يسمَّى هاكوجانوتُسكا. في الصباح في تلك المنطقة، تكون أصوات الطيور صاخبة للغاية، ولكن لا تُرى طيور، بل تصيح الغابة كلُّها.

نبتَت حشائش الصيف حتى أطراف البِركة. ويحُد الطريق الضيقة منطقة الحشائش تلك من خلال سورٍ منخفض. كان يرقد في تلك المنطقة فتًى يلبَس قميصًا أبيض. تستند مِدَمَّة من الخيزران على شجرة القيقب المنخفضة التي بجواره.

أنهض الفتى جسمَه باندفاع قوي، كأنه يحفِر حفرةً في هواء الصباح الصيفي الهادئ الذي يفوح في هذا المكان، وقال:

«ماذا؟ هل هو أنت؟»

إنه فتًى اسمه تسوروكاوا كنتُ قد تعرَّفت عليه ليلة أمس فقط. وُلد تسوروكاوا في معبدٍ غني يقع في ضواحي طوكيو، ويُرسل إليه مصاريف الدراسة ومصاريفه الشخصية والمواد الغذائية بوفرة من منزل أبويه، ولكن أرسله والده الذي له معرفة قديمة بالراهب المقيم، إلى المعبد الذهبي فقط من أجل أن يتذوَّق تدريبَ الرهبان. وكان يعود إلى طوكيو في عطلةِ كل صيف، ولكنه عاد ليلةَ أمس قبل انتهاء العطلة. تسوروكاوا الذي يتحدَّث بلهجة أهل طوكيو المتميزة من المفترض أنه سيكون زميلَ دراسة لي في مدرسة رينزاي بدايةً من فصل الخريف القادم، وقد أصابتني طريقة كلامه السريعة الواضحة تلك، بالإحباط بالفعل منذ أمسِ.

ثم الآن فقدَ لساني النطقَ بعد أن قال لي: «ماذا؟ أهو أنت؟» ولكن يبدو أن تسوروكاوا ترجم صمتي هذا إلى أحد أنواع النقد له.

«حسنًا، ليس ضروريًّا أن تقوم بالتنظيف بكل هذه الجِدية. فسيأتي الزوار ويتَّسخ المكان من جديد، علاوةً على أن عدد الزوار نفسه قليل.»

ضحكتُ قليلًا. ويبدو أن تلك الضحكات البلهاء التي تتسرَّب مني دون قصد، تكون بذورًا للألفة مع أشخاص بعينهم. ولكن لا أستطيع أنا أن أتحمَّل هكذا مسئولية الانطباعات التي أعطيها للآخرين حتى تفاصيل التفاصيل.

تخطيتُ السورَ وجلستُ بجوار تسوروكاوا. نام تسوروكاوا مرةً أخرى وقد أحاط رأسه بذراعه التي كان جانبها الداخلي أبيضَ شفافًا لدرجة أن تشفَّ عروق الدماء الداخلية، رغم أن الجانب الخارجي منها قد اسمرَّ تمامًا من أشعة الشمس. تنثر أشعة الصباح المتسربة من بين الأشجار، ظلالَ الأعشاب ذات اللون الأخضر الشاحب. عرفت بحَدْسٍ طبيعي أن ذلك الفتى على الأرجح لا يعشق المعبدَ الذهبي مثلي. والسبب أنني كنتُ منذ زمن أجعل سببَ تعلُّقي الشاذ بالمعبد الذهبي هو قبح ملامحي.

«سمعتُ أن والدك مات.»

«أجل.»

حرَّك تسوروكاوا مُقلتَيه بسرعة ومهارة، ودون أن يخفيَ ذلك ركَّز ذهنه في استنتاج تفسير يناسب صبيًّا في عمره:

«هل حبُّك الشديد للمعبد الذهبي، أنك عندما تراه، تتذكَّر والدك؟ مثلًا أن والدك كان يعشق المعبد الذهبي أو شيئًا من هذا القبيل؟»

أحسستُ أن هذا التفسير الذي أصاب نصفَ الحقيقة، لم يعطِ أيَّ تغيير لملامح وجهي التي لا تتأثر، فشعرتُ قليلًا بالفرحة. كان تسوروكاوا لديه هواية تجاه مشاعر البشر — مثلما يفعل بكثرة فتًى يهوى صُنْع دليل لعينات الحشرات — فهو يقسمها في نظافة وجَمال متأنق في أحد أدراج غرفته، ومن وقت لآخر يُخرجها ويحاول أن يختبرها على الطبيعة.

«من المؤكَّد أنك حزنت كثيرًا لموت والدك. ولذا يبدو عليك الشعور بالوحدة. لقد اعتقدتُ ذلك منذ أن رأيتك ليلةَ أمس لأول مرة.»

لم أشعر تجاه ذلك بأي اعتراض، وعندما قيل لي ذلك، ومن خلال انطباع الطرَف الآخر بأنه يبدو عليَّ الشعور بالوحدة، جاءني إحساس بالاطمئنان والحرية فخرجت الكلمات سلسةً من فمي:

«لم أشعر بأي حزن.»

رفع تسوروكاوا رموشَه الطويلة لحد الإزعاج، ونظر تجاهي.

«حقًّا؟ ... هل كنتَ تحقد على والدك؟ أو على الأقل كنت تكرهه؟»

«لا، لم أكن أحقد عليه، ولم أكن أكرهه ...»

«حقًّا؟ لماذا إذن لم تحزن عليه؟»

«نوعًا ما. هكذا كان.»

«لا أفهم!»

اعتدل تسوروكاوا في جِلسته على العشب لَمَّا واجه تلك المشكلة الصعبة.

«إذا كان الأمر كذلك، فهل من سببٍ أكبرَ من ذلك للحزن؟»

قلت له:

«ما هذا؟ أنا لا أفهم.»

ولكن بعد أن قلتُ ذلك، ندِمت على حبي لخلقِ حالة من الاستفهام. لم يكن الأمر يمثِّل لي استفهامًا أو أيَّ شيء من هذا القبيل. كان أمرًا تامَّ الوضوح. لقد كانت مشاعري أيضًا تتلعثم. دائمًا لا تأتي مشاعري في الوقت المناسب. ونتيجةً لذلك، كانت حادثة موت أبي، ومشاعر الحزن التي تجتاحني، كانتا منفردتين ومستقلَّتين إحداهما عن الأخرى، ولم ترتبط كلٌّ منهما بالأخرى، وأعتقد أنهما لم تتقابلا بالفعل معًا. انحراف بسيط في الزمن، تأخُّر بسيط، دائمًا ما يكون الحدث ومشاعري منفصلَين بعضهما عن بعض، وعلى الأرجح يُحدِث ذلك حالةً من الانفصال الجوهري. إنْ كان ثمَّة شيءٌ ما يسمَّى حزني، فهو على الأرجح، ليس له أي علاقة بحدثٍ ما، بل يهجم عليَّ هجومًا مفاجئًا دون أسباب ...

... مرةً أخرى انتهى الأمر دون أن أستطيعَ شرْحَ كل ذلك للصديق الجديد الذي أمام عيني. وأخيرًا ضحِك تسوروكاوا وقال:

«هاه، أنت شخص غريب!»

شعرتُ بالسعادة وأنا أرى الأشعة المتسرِّبة من بين الأشجار، التي تحرَّكت على تجاعيد قميصه الأبيض. كانت حياتي أيضًا مقبِلة على تجاعيدَ مثل تجاعيد قميصه. ولكن يا لها من أشعة بيضاء متألقة تلك التي يعكسها قميصه بتجاعيده! ... تُرى هل بدوتُ أنا أيضًا كذلك؟

تنشط معابِد الزِّن بناءً على قواعد وتقاليد طائفة الزِّن بغضِّ النظر عن العالم الخارجي. ولأننا في موسم الصيف فمهما تأخرنا فلا بد أن نستيقظ في الخامسة صباحًا.

الاستيقاظ صباحًا يُطلَق عليه اسم «افتتاح القواعد». نبدأ بعد الاستيقاظ مباشرةً بالواجب الصباحي وتلاوة كتاب السوترا، وتسمَّى الدورات الثلاث، لأننا نقرؤه ثلاثَ مرات. وبعد ذلك، نبدأ في تنظيف المباني من الداخل، بمسحِها بالخِرَق. ثم يأتي وقت تناول وجبة الإفطار من حَساء الأَرُز المسلوق.

ونتلو كتاب السوترا الخاص بتناول حَساء الأَرُز المسلوق ونصُّه:

«شويوجيري ... نيوبي أنجين ... كوهوبوهِن ... كيوكينجورا ...»

ثم بعد تناول الطعام نقوم بالأعمال المعتادة مثل اقتلاع الحشائش ثم تنظيف الحديقة، ثم تقطيع الحطب ... إلخ. إذا بدأت الدراسة، يكون الوقت بعد ذلك هو وقتَ الذهاب إلى المدرسة. وبعد العودة من المدرسة مباشرةً يمكننا تناول طعام العشاء. وبعد ذلك أحيانًا ما يكرمنا الراهب المقيم بإلقاء محاضرة عن كتاب السوترا المقدَّس. وفي الساعة التاسعة وقتُ فتح الوسادة؛ أي وقتُ النوم.

كانت أعمالي اليومية هي كما سلف، وإشارةُ الاستيقاظ من النوم، هي صدى صوت الجرس الذي يدور به الراهب المكلَّف بالطبخ.

في المعبد الذهبي، أي معبد روكوؤنجي، في الأصل يجب أن يظلَّ اثنا عشر أو ثلاثة عشر فردًا. ولكن بسبب الاستدعاء للجيش والاستدعاء للعمل في المصانع الحربية، لم يكن في المعبد إلا الدليل الذي يقوم بوظيفة الاستقبال والبالغ من العمر بضعة وسبعين عامًا، والمرأة التي تقوم بأعمال الطبخ والتي يقترب عمرها من الستين، والراهب المقيم الذي يدير العمل ونائبه، ثم نحن الثلاثة تلاميذ الرهبنة فقط. العجائز نبت فيهم العفن وهم نصف موتى، والشباب عبارة عن أطفال صغار. وينشغل الراهب المقيم ونائبه في أعمال الحسابات.

بعد عدة أيام، أخبروني أن إحدى مهامي هي توصيل الجرائد إلى غرفة الراهب المقيم (نحن ندعوه كبير الرهبان). كان وقت وصول الجرائد بعد انتهاء وجبة الفطور، والانتهاء من أعمال التنظيف. تصبح أعمال النظافة متعجلة وغير متقَنة؛ لأن مَن يقوم بها عددٌ قليل، ويجب أن تنتهيَ في زمن قصير، رغم أنه يجب مسح كل ممرات المعبد ذي الثلاثين غرفة. أذهب إلى البوابة وآخذ الجرائد وأعبر من الممر أمام قاعة الرسل وآخذ دورةً من خلف مبنى الضيوف، فأصل إلى مبنى المكتبة الكبرى حيث يقع مكان إقامة كبير الرهبان. مُسحت الممرات حتى المكان، بسكبِ نصف دلو مياه بنيةِ أن يجفَّ؛ لذا فالماء المتبقي في نتوءات الألواح يتلألأ مع أشعة شمس الصباح ويبلل قدميَّ حتى العرقوب. ولأننا في فصل

الصيف كنت أشعر بالمتعة. ولكن، تعلَّمت من زميلٍ تقليدًا سريًّا عند وصولي إلى غرفة كبير الرهبان، وهو أن أمسح قدميَّ بسرعة بطرَف رداء الرهبنة عندما أجثو أمام الباب قائلًا: «من فضلك.» فيرُدُّ بالقول: «هاه.»

أثناء شمي رائحةَ حبر المطبعة الذي تفوح منه جِدة وطزاجة الحياة المدنية، كنت أُسرِع الخطى في الممرات وأنا أختلس النظرَ إلى عناوين الجريدة الرئيسية. وعندئذٍ، قرأت عنوانًا رئيسيًّا يقول: «ألا يمكن تلافي القصف الجوي لعاصمة الإمبراطورية؟»

لم أجرِّب أن أربِط بين المعبد الذهبي والقصف الجوي حتى ذلك الوقت، وربما يكون ذلك أمرًا عجيبًا. في هذه الأثناء وبعد سقوط جزيرة سايبان، اعتُبر القصف الجوي على الأراضي اليابانية لا يمكن تفاديه، وتم الإسراع في إخلاء سكان أجزاء من مدينة كيوتو بالقوة. ومع ذلك ما من علاقةٍ بتاتًا بين المعبد الذهبي شبهِ الأبدي وكارثةِ القصف الجوي. كان كلٌّ من المعبد الذهبي الخالد وتلك النار المصنَّعة علميًّا يَعرف جيدًا الطبيعة المختلفة للآخر، وأحسستُ أنهما إذا التقيا فسيتفادى أحدهما الآخرَ برشاقة.

... ولكن ربما يختفي المعبد الذهبي في النهاية حرقًا بنار القصف الجوي. إذا سارت الأمور على هذا الحال، فمن المؤكَّد أن يكون مآل المعبد الذهبي إلى رماد.

... بعد أن تولَّدت لديَّ هذه الفكرة في داخلي، زاد جَمال المعبد الذهبي مرةً أخرى بدرجة مأسوية.

كان ذلك اليوم، هو ظهيرةَ آخر يوم من العطلة الصيفية، ومن المقرَّر أن تبدأ الدراسة في المدرسة من اليوم التالي. رحل كبيرُ الرهبان لتنفيذ مراسم إحياء ذكرى أحد الأموات، واصطحب معه نائبه. فعرض على تسوروكاوا الذهابَ معه إلى السينما. ولكن لأنني كنتُ غيرَ متحمس لذلك، فقدَ هو كذلك حماسَه على الفور. كانت تلك إحدى صفات تسوروكاوا.

أخذنا نحن الاثنان وقتَ فراغٍ لعدد من الساعات، ولففنا الجُرْموق (رِباط الساق) حول سِروالينا الكاكيين، وخرجنا من المبنى الرئيس وعلى رأسينا قبَّعتا مدرسة رينزاي المتوسطة. كان يومًا من أيام الصيف التي تلتهب فيها أشعَّة الشمس، ولم يكن ثمَّة زائر ولو واحدًا للمعبد.

«إلى أين نذهب؟»

أجبتُ على ذلك السؤال، فقلت إنني قبل الذهاب إلى أي مكان أريد أن أشاهدَ المعبد الذهبي ببطء وتمعُّن؛ لأنني من الغد لن أستطيع أن أرى المعبد الذهبي في مثل هذا التوقيت، وربما يحترق المعبد الذهبي بواسطة القصف الجوي أثناء غيابنا في المصنع. كنتُ أتلعثم

بقول هذه الحجج الواهية، وأثناء ذلك كان يبدو على وجه تسوروكاوا ملامح الاستياء والتململ.

تدفَّق عَرقٌ غزير على وجهي بعد أن انتهيت من قول ذلك فقط، وكأنني قلت شيئًا مخجِلًا. كان تسوروكاوا هو الوحيدَ الذي بُحتُ له بتعلُّقي المريب بالمعبد الذهبي. ولكن ملامح تسوروكاوا الذي كان يسمع مني ذلك، كانت فقط تعبِّر عن شعورٍ بنفاد الصبر، الذي تعودتُ رؤيتَه من أي شخص يبذل جهده لكي يستطيع سماعَ كلامي المتلعثم.

أصطدم دائمًا بمثل هذا الوجه. في حالة الاعتراف بسرٍّ خاص، وفي حالة الإعراب عن التأثُّر بارتفاع الجَمال، وفي حالة إخراج ما في أحشائي وإظهاره، الذي أصطدم به دائمًا هو مثل هذا الوجه. لا يُظهِر الإنسان مثل هذا الوجه تجاه إنسان طبيعي. يقلِّد ذلك الوجه بدرجة عالية من الإخلاص، شعور التململ المضحك الذي على وجهي كما هو، ليصير إن صحَّ التعبير مثل مرآة مخيفة. أيًّا كانت درجة جَمال الوجه، في ذلك الحين، يتغيَّر إلى وجهٍ قبيح يشبه قبحي تمامًا. وعندما أرى ذلك تنخفض في الحال قيمة الشيء المهم، كنتُ أحاول أن أعبِّر عنه، إلى شيءٍ لا قيمة له مثل قرميد أسطح البيوت …

كانت أشعَّة الشمس المباشرة العنيفة تفصل بين تسوروكاوا وبيني. ينعكس الضوء على وجه تسوروكاوا اليافع فيجعل شحمه يلمع، وتلتهب الرموش في وسط الأشعة رِمشًا رِمشًا، وتمتد فتحة الأنف بهواء ساخن ورطب، ينتظرني أن أنتهيَ من كلماتي.

أنهيتُ حديثي. وفي نفس لحظة انتهائي من الحديث، تملَّكني الغضب، فتسوروكاوا لم يُقم بالسخرية من تلعثمي قط منذ أن قابلته وحتى الآن، ولا مرة واحدة.

«لماذا؟»

استعلمتُ منه بهذا السؤال. كما ذكرتُ مرارًا فأنا أفضِّل السخرية أو الاحتقار أكثرَ من التعاطف.

لاحت على مُحيَّا تسوروكاوا ابتسامةٌ خلابة. ثم قال:

«في الأصل أنا إنسان لا أبالي بتاتًا بهذا الأمر.»

أصابتني دهشة. أنا الذي نشأتُ في منطقة ريفية ذات بيئة قاسية، لم أكن أعرف هذا النوع من طيبة القلب. علَّمتني طيبة تسوروكاوا اكتشافًا جديدًا، أنني أظل كما أنا حتى لو نزعنا التلعثم من وجودي. تذوقتُ بكل كياني متعةَ أن أكون عاريًا تمامًا بلا أي غطاء. فعيون تسوروكاوا التي تحفُّها رموش طويلة، تقبَّلتني بعد أن نزعت مني التلعثم.

والسبب أنني حتى ذلك الوقت، كنت أُومن تمامَ الإيمان وبدرجةٍ مريبة أن تجاهُل أنني متلعثم يعني إلغاءَ وجودي ذاته.

... أحسستُ بالسعادة وبتوافُق المشاعر. وليس عجيبًا أنني لم أنسَ لأمد طويل منظرَ المعبد الذهبي الذي رأيته وقتَها. مررنا أمام العجوز الذي يقوم بدور موظف الاستقبال، كان في غفوةٍ وهو جالس، وأسرعنا بمحاذاة سورِ الطريق التي لا أثرَ لإنسان بها، حتى وصلنا إلى مقدمة المعبد الذهبي.

... يمكنني التذكُّر بوضوح تام. يقف شابَّان يرتدي كلٌّ منهما قميصًا أبيضَ، على أحد ضِفتَي بِركة كيوكو، ويلفَّان حول ساقيهما جُرموقًا، ويضع كلٌّ منها ذراعه على كتف الآخر. كان المعبد الذهبي أمام هذين الاثنين دون أي نوع من الحواجز.

كان شبابنا في الصيف الأخير، والعطلة الصيفية الأخيرة، ثم آخر يوم منها يحلِّق في القمة بدرجة تخلُب العين. وكان المعبد الذهبي كذلك، يحلِّق على القمة مثلنا، ليواجهنا ويحاورنا. قرَّب انتظار القصف الجوي بيننا وبين المعبد الذهبي إلى هذه الدرجة.

بسطت أشعة شمس نهايات الصيف الهادئة، قشرةً ذهبية على سقف الطابق العلوي للمبنى. وملأت الأشعة التي تغمُر ما تحتها مباشرةً، داخل المعبد الذهبي بظلامٍ يشبه ظلامَ الليل الحالك. ورغم أن الزمن الخالد لهذا البناء المعماري كان يسحقني ويعزلني فيما مضى، إلا أن مصيره — وهو الحرق بقذائف النيران — جاء ليلتصقَ بمصائرنا. وربما يندثر المعبد الذهبي قبلنا. وعندها يمكن الاعتقاد أن المعبد الذهبي يملِك حياةً مثل حياتنا.

تلفُّ أصوات حشرات الزيز جبالَ الصنوبر الأحمر المحيطة بالمعبد الذهبي، وكأنها عزائمُ عدد لا نهائي من الرهبان تبتهل للحماية من الحرائق: «غيا غيا. كيا كيا غيا غيا. أنون نون. شيفورا شيفورا. هاراشي فورا هاراشي فورا.»

كنت أفكِّر في أن هذا الشيء الجميل سيئول إلى رماد في وقتٍ ليس بعيدًا. ومن خلال ذلك، تطابقت صورة المعبد الذهبي الذي في ذهني، مع المعبد الذهبي الذي على أرض الواقع، كما تتطابق اللوحة التي رُسمت بالتخطيط على ورقٍ شفاف للوحة حريرية، فوق اللوحة الأصلية، تدريجيًّا تتطابق تلك التفاصيل؛ السقف على السقف، الإفريز البارز تجاه البحيرة على الإفريز، درابزين تشوندو على درابزين تشوندو، نافذة قمة البرج الثالث المسمَّاة كوكيو على نافذة كوكيو. لم يَعُد المعبد الذهبي مبنًى معماريًّا راسخًا. بل كان إذا جاز القول، تجسيدًا لرمزية فناء عالَم الظواهر. أصبح المعبد الذهبي على أرض الواقع، من خلال هذا التفكير، جميلًا بحيث لا يقل عن الصورة التي في ذهني.

غدًا ستسقط النيران من السماء، وستئول تلك الأعمدة الرفيعة الجسم، وتلك الخطوط المتموجة للسطح الفاخر كلها إلى رماد، وربما لن نستطيع رؤيتها مرةً أخرى. ولكنه يقف أمام عيني الآن، بصورته البالغة الدِّقة، رابطَ الجأش، بينما تغمُره أشعةٌ مثل نيران الصيف.

على حافة الجبل، ثمَّة غيوم مهيبة شامخة، مثل التي أحسستُ بها في حافة عيني عندما كنتُ أقرأ السوترا بجوار رأس أبي المسجَّى في تابوته. كانت ممتلئة بأشعة متراكمة كئيبة، تنظر من علٍ إلى ذلك المبنى المعماري الرقيق الحسَّاس. فقدَ المعبد الذهبي تحت مثل هذه الأشعة القوية لشمس أواخرِ الصيف، جاذبيةَ الأجزاء الدقيقة، ولُفَّ بظلام بارد في داخله المعتِم كما هو، ولكن ذلك الظل المحيط يبدو وكأنه يرفض العالَم المتألق المحيط به. ويحاول طائر العنقاء الذي على القمَّة أن يصمد أمام الشمس دون أن يترنَّح فيشحذ حوافره، ويتشبَّث بقوة في قاعدته.

التقط تسوروكاوا، الذي سئم من تحديقي ونظري الطويل، حجرًا صغيرًا من الأرض بجوار قدمِه، وألقى به في بِركة كيوكو مقلدًا بمهارةٍ رُماةَ كرة البيسبول لترتطمَ بقلبِ انعكاسِ ظلِّ المعبد الذهبي في البِركة.

امتدَّت الموجات دافعةً الفطريات التي على سطح الماء، وفي التو والحال، انهار وزال المبنى المعماري الجميل الدقيق التفاصيل.

كان العام الذي مرَّ بعد ذلك حتى انتهاء الحرب، فترةً كنتُ فيها على علاقةِ أُلفة قوية مع المعبد الذهبي، حيث كنت منشغلًا بسلامته غارقًا في جَماله. إذا فصَّلنا القول، فقد كانت الفترة التي رفعني المعبد الذهبي فيها لأكون على نفس ارتفاعه، واستطعت أن أحبَّ المعبد الذهبي دون خوف. ولم أكن استقبلت من المعبد الذهبي ذلك التأثير السلبي بعدُ أو تجرَّعت سُمَّه.

كانت المحنة المشتركة بيني وبين المعبد الذهبي في هذا العالَم ترفع من معنوياتي. لقد عثرت على وسيطٍ يربط بيني وبين الجَمال. أحسستُ ببناء جسر بيني وبين ما كنتُ أعتقد أنه يرفضني ويُبعدني عنه.

كانت تُسكرني حتى الثمالة فكرةُ أن النيران التي تحرقني وتُفنيني هي نفسها التي تحرق المعبد الذهبي وتفنيه. نفس الكارثة، تحت مصير نفس النيران المشئومة، أصبح العالم الذي أسكنه أنا والمعبد الذهبي ينتمي لنفس البُعد الواحد. يملِك المعبد الذهبي، مثل بدني الشنيع الهش، بدنًا كربونيًّا قابلًا للحرق رغم صلابته. عندما أفكِّر في ذلك، أحيانًا ما

أشعر أنه يمكنني الهرب حاملًا المعبدَ الذهبي في لحمي بين خلايا جسمي، مثل اللص الذي يهرُب بعد أن بلع جوهرةً ثمينة لإخفائها.

خلال ذلك العام، لم أتعلَّم السوترا، ولم أقرأ كتابًا، بل أريد منكم التفكيرَ في أني كنت منشغلًا يومًا بعد يوم من الصباح للمساء بين تدريب النفس والتدريبات العملية ورياضة الدفاع عن النفس، والمساعدة في الإخلاء القسري وأعمال المصنع. ابتعدَت عني الحياة بفضل الحرب، وساعد في ذلك شخصيتي الحالمة. كانت الحرب بالنسبة لنا، نحن الفتيان، عبارة عن تجربة مضطربة عاجلة بلا أي نوع من أنواع الأحلام التي ليس لها أيُّ واقع في الطبيعة، مثل الحَجْر الصحي الذي تم عزله عن معنى الحياة.

في نوفمبر من عام ١٩٤٤، قصفت المقاتلات B29 طوكيو لأول مرة، وظلَّ الاعتقاد وقتَها أن كيوتو ستكون التالية في القصف اليومَ أو غدًا. كان إحاطة النيران بجميع أنحاء مدينة كيوتو هو حلمي السِّري. لقد حافظت هذه المدينة على شكلها البالغ القِدَم كما هو، ونَسِيَت الكثير من المعابد البوذية ومعابد الشنتو ذاكرةَ الرماد الملتهب الذي يتولَّد من داخلها. وعندما أتخيَّل إلى أي درجة سبَّب تمرُّد أونين الكبير الدمارَ لهذه المدينة، أعتقدُ أن كيوتو من طول نسيانها قلقَ الحروب، فقدَت الكثيرَ من جَمالها.

من المؤكَّد أن كيوتو ستحترق أخيرًا في القريب العاجل. وسيُفقد هذا الشكل الذي يملأ الفراغ ... ووقتها سيُبعث طائر العنقاء الذي على القمة، للحياة من جديد مثل طائر الخلود ويطير. ثم يتخلَّص المعبد الذهبي المقيَّد بالشكل، من قيوده ويظهر في كل مكان، فوق البحيرات، وفوق امتداد البحر المظلم، ليفوحَ طيفه ويتقاطر منه وميضُ الأشعة.

ولكن مهما انتظرت وانتظرت، لم يُصِبْ كيوتو أيُّ قصف! حتى عندما سمِعنا نبأ أنه في التاسع من مارس من العام التالي، أحاطت النيران بكل أحياء طوكيو الشعبية، كانت كارثة الحريق بعيدة، ولم تكن فوق كيوتو إلا سماء صافية لربيع مبكِّر.

كنتُ مع انتظاري شبهَ يائس، أحاول تصديقَ أن الداخل لا يمكن رؤيته بالضبط مثل زجاج لامع، ولكنَّ المعبد الذهبي يخفي في داخله نيرانًا ودمارًا يُفني. لقد سبق أن ذكرتُ من قبلُ أن مشاعري الإنسانية واهنة. فلم يؤثِّر موت أبي ولا فقر أمي على حياتي النفسية الداخلية أيَّ تأثير. أنا فقط كنتُ أحلُم بوجود عصَّارة سماوية عملاقة تُحدِث دمارًا هائلًا وكارثة ضخمة في شكل مأساة تتخطَّى حجمَ البشر، فهي تحطِّم كلَّ شيء في ظل الشروط نفسها؛ البشَر والجماد، الأشياء الجميلة والأشياء القبيحة. ولكن بدا لي التألُّق غير العادي لسماء الربيع المبكِّر، وكأنها نصلٌ بارد لبلطةٍ بحجم عملاق يغطي كلَّ ما على الأرض. أنا فقط كنتُ أنتظر أن تسقط سقوطًا سريعًا بدرجةٍ لا تعطي أيَّ وقت للتفكير.

ثمَّة أمرٌ أعتقد حتى الآن أنه أمرٌ عجيب. أنا في الأصل لم أكن أسيرَ الأفكار الظلامية بأي حال. من المفترض أن اهتمامي والمعضلة التي كنتُ أواجهها هي الجَمال فقط. ولا يجب التفكير في أن الحرب أثَّرت عليَّ وجعلتني أحمل أفكارًا ظلامية. عندما يتأمَّل الإنسان طويلًا في الجَمال وحدَه، يصطدِم دون أن يدريَ بأكثر الأفكار الظلامية في هذا العالم. على الأرجح خُلق الإنسان بهذه الشاكلة.

أتذكَّر إحدى الحكايات الجانبية لفترة نهاية الحرب في كيوتو. كانت تلك الحكاية من الصعب جدًّا تصديقها، ولكن لم أكن أنا الشاهد الوحيد عليها. لقد كان تسوروكاوا حينئذٍ بجواري.

في يوم عطلة انقطاع الكهرباء،[1] ذهبتُ أنا وتسوروكاوا إلى معبد نانزنجي. لم يكن قد سبق لنا زيارة معبد نانزنجي من قبل. قطعنا طريقَ السيارات السريعة الواسعة بالعرض ثم عبرنا الجسرَ الخشبي الذي يتخطَّى خطَّ القطار المائل الذي ينقل المراكب.

كان يومًا صحوًا من أيام شهر مايو. لم يَعُد القطار المائل مستخدَمًا وقتها، وكانت القضبان الحديدية التي تجذب المراكب على المنحدر قد علاها الصدأ، وأغلبها مدفون وسط الحشائش. وكانت في تلك الحشائش زهرةٌ على شكل صليب أبيض دقيق تهتز بفعل الرياح. حتى نقطة بداية المنحدر الذي يسير عليه القطار المائل، كان الماء قذرًا وآسنًا، ويغرق تمامًا في ظل صفوف أشجار الكرز الورقية على هذه الضفة.

أخذنا نتأمَّل صفحةَ الماء بلا أي معنًى من فوق هذا الجسر الصغير. ترك مثلُ هذا الوقت القصير الذي بلا معنًى، انطباعًا حيويًّا من بين ذكريات الحرب العديدة. تبقَّى ذلك الوقت القصير الذي لا نفعل فيه أيَّ شيء مطلقًا، مثل اختلاس النظر إلى السماء الزرقاء الصافية، من بين فراغات السَّحاب. ومن العجيب أن يكون مثل هذا الوقت زاهيًا مبهرجًا كما لو كان ذاكرة متعة مؤلمة.

«منظر جميل للغاية!»

قلتُ ذلك وأنا أبتسم دون أي معنًى كذلك.

«حقًّا!»

[1] أثناء الحرب وبسبب عدم كفاية الطاقة الكهربائية كانت المصانع الحربية تُعطَّل يومًا في الأسبوع بسبب انقطاع الكهرباء لترشيدها. (المترجم)

نظر تسوروكاوا إليَّ وابتسم. شعرنا نحن الاثنان من أعماقنا أن تلك الساعات القليلة هي وقتنا نحن.

كانت أعشاب الماء الجميلة تتمايل بجوار طريق الحصى والرمل الواسعة والمستمرة، وثمَّة خندق يجري فيه الماء الرائق البارد. وأخيرًا سدَّت بوابةُ الجبل التي غطَّت شهرتها الآفاقَ الطريقَ أمامنا.

ما من أثرٍ لإنسان داخل المعبد. وتبرُز أغلب أسطح المباني الفرعية لمعابد الزِّن المغطَّاة بالقرميد وسط النباتات التي اخضرَّت من جديد، وكأنها كتبٌ عملاقة بلون فضي معتم. ماذا تعني الحرب في لحظةٍ مثل هذه؟ أعتقد أن الحرب، في مكانٍ ما وفي وقتٍ ما، مثل الحدث النفسي المريب، وجوده الوحيد داخل وعي الإنسان فقط.

ربما تكون بوابة هذا الجبل هي المقصودة بالعبارة التي تقول: «وضع غوئيمون إيشيكاوا قدمَه على سور تلك الشُّرفة، ومدح الزهور التي تُرى على مدى النظر.» نحن وبمشاعرَ طفولية، رغم أنه لم يكن موسم الساكورا الورقية، فكَّرنا أننا نريد أن نجرِّب تأمُّل المنظر ونحن نأخذ نفس وضع غوئيمون. دفعنا رسوم الدخول الزهيدة، وصعدنا درجات السُّلم ذات الانحدار الكبير التي تحوَّلت تمامًا إلى اللون الأسود مثل الأشجار. اصطدم رأس تسوروكاوا بالسقف المنخفض الارتفاع، عند العتبة التي وصلنا إليها بعد انتهائنا من الصعود. ثم اصطدمتُ بها على الفور أنا الذي ضحِكتُ من ذلك. لففنا نحن الاثنان دورةً أخرى، ووصلنا إلى الطابق الأعلى.

كان التوتر الذي يتعرَّض له الجسد عند الانتقال من الدَّرج الضيق الذي يشبه السرداب، إلى منظرٍ واسع وعريض، يتحوَّل في التوِّ والحال إلى متعة. بعد أن استمتعنا بدرجةٍ كافية ووافية بتلك المناظر، منظر أشجار الكرز الورقية والصنوبر، ومنظر غابة معبد هيئان الشنتوي الذي يبدو بعيدًا في شكلِ أسطحٍ مصطفَّة ومعقَّدة التركيب، وجبل أراشياما الذي يبدو ضبابيًّا في نهاية أطراف مدينة كيوتو، ومناظر سلسلة الجبال التي على الجانب الشمالي جبل كيبونه وجبل مينوؤرا وجبل كونبيرا ... إلخ، قمنا أخيرًا بصفتنا تلاميذ معبد بخلع أحذيتنا ودلفنا إلى داخل قاعة المعبد في تبجيل. كانت القاعة مفروشةً بأربع وعشرين حصيرة من حصير التاتامي، وفي المنتصف تمثالٌ لبوذا المعظَّم، وتلمع في وسط الظلام المُقَل الذهبية لتماثيل الستة عشر قديسًا.

وهذا المكان يسمَّى غوهورو.

رغم أن معبد نانزنجي كان من نفس ديانة رينزاي، لكنه يختلف عن المعبد الذهبي الذي يتبع طائفة أيكوكوجي؛ فقد كان أكبرَ معابد طائفة نانزنجي. أي إننا في معبدٍ من

نفس الديانة ولكنه مختلف الطائفة. ولكن مثل طلاب المرحلة الإعدادية العاديِّين، كان كلٌّ منَّا يمسك في إحدى يديه الدليلَ الإرشادي للمعبد، وأخذنا نشاهد لوحة السقف ذات الألوان الزاهية التي يقال إنها بريشة تانيو كانو وتوكوإتسو توساهوغان.

ثمَّة لوحةٌ في أحد جانبي السقف لملاكٍ يطير يعزف على ناي وآلة عود ياباني. وعلى سقف آخر، طائرُ الكالافينكاس[٢] يرفرف ممسكًا بزهور الفاوانيا البيضاء، وهو طائرٌ له صوت عجيب ويسكن في جبل تنجوكوستسن، ومرسوم طائر عنقاء صديق لطائر المعبد الذهبي، ولكنه لا يشبه أبدًا ذلك الطائر المهيب الذهبي اللون.

جثونا أمام تمثال بوذا المعظَّم، وضممنا كفَّي اليدين إحداهما إلى الأخرى. ثم خرجنا من القاعة. ولكن كان يصعُب علينا الخروج من فوق البرج العالي. وعندها أسندتُ ظهري إلى الدرابزين المواجه لجهة الجنوب الذي على جانب الدرجات التي صعدناها إلى هنا.

أحسستُ بشيء يشبه نوعًا ما دوامةً صغيرة جميلة زاهية الألوان. وأعتقد أن ذلك هو ما تبقى في الذهن من لوحة السقف ذات الألوان الغنية. الإحساس بتركُّز الألوان الوفيرة، وذلك الطائر الذي يشبه الكالافينكاس، الأوراق اليافعة والصنوبر التي تغطي كامل السطح، والتي تختبئ خلف الأفرع الخضراء وتُظهِر بين الفراغات أجنحتَها الجميلة.

ولكن لم يكن الأمر كذلك. تحت أعيننا مباشرةً، كانت الطريق تفصل محل «تنجوان» عنَّا. ويبدو أن في ذلك المكان كثيرًا ممن يقدِّم الشاي، ويُؤجَّر لحفلات الشاي، ويُفرش فوقها سجادٌ أرجوانيٌّ زاهٍ. وتجلس عليه امرأة شابة. كان ذلك فقط هو ما استطاعت عيني رؤيته.

في أثناء الحرب، لم يسبق لي على الأغلب أن رأيتُ امرأةً ترتدي كيمونو ذا أكمام طويلة وزاهية هكذا. إذا خرجت امرأةٌ هكذا من بيتها، فعلى الأرجح ستُعنَّف في منتصف الطريق، وتُضطر إلى العودة إلى بيتها مرةً أخرى. إلى هذه الدرجة كان ذلك الكيمونو جميلًا وفاخرًا. لم أستطِع رؤية التصميم بالتفصيل، ولكنْ ثمة زهور مرسومة أو مطرَّزة على أرضيةٍ بلون مائي، ويلمع خيطٌ ذهبي في الحزام القرمزي، وإذا بالغتُ في القول، كان المكان حولها يتلألأ. كانت المرأة الشابة الجميلة، تجلس في احترام متكامل، وكان وجهها الجانبي يبرُز منحوتًا، حتى لتشك في أنها امرأة حية.

[٢] طائرٌ من طيور الجنة في المعتقَد البوذي له وجه امرأة، وذو صوت جميل. (المترجم)

قلتُ بدرجة كبيرة من التلعثم:

«هل هي حية حقًّا؟»

«أنا كذلك جاءني الآن نفس التساؤل. تبدو مثل تمثال.»

دفع تسوروكاوا بصدره ضاغطًا على الدرابزين، وأجاب دون أن يُبعِد عينيه.

ظهر وقتها من العمق، ضابطٌ شاب في القوات البرية يرتدي الزيَّ العسكري. جلس بأدب شديد في مواجهة المرأة على بُعد قدم أو قدمين أمام المرأة. ظلَّ الاثنان فترةً جالسَين في هدوء.

نهضت المرأة واقفة. ثم اختفت في هدوء تام في ظلام الممر. وبعد بُرهة، عادت المرأة وهي تهزُّ أكمام الكيمونو الطويلة حاملةً أكواب الشاي. ثم قدَّمت الشاي أمام الرجل ودَعَته لشربه. وبعد أن عرضت عليه تناول الشاي الخفيف حسب التقاليد عادت لتجلس في نفس مكانها السابق. قال الرجل شيئًا ما، ولم يشرب الشاي رغم ذلك. كان ذلك الوقت طويلًا بدرجة مريبة للغاية، وشعرت بأنه متوتر للغاية كذلك. تدلَّى رأس المرأة لأسفل بعمق شديد.

حدث بعد ذلك ما لا يمكن تصديقُه. فجأةً أرْخَت المرأة وهي بنفس جِلستها المستقيمة، ياقةَ ردائها. وصل إلى أذني وأنا في مكاني هناك صوتُ الحرير الذي سُحب من خلف الحزام المتين. ثم ظهر صدرٌ أبيض. ابتلعتُ لعابي. ثم أخرجت المرأة بيدها أحدَ ثديَيها الأبيضين الممتلئين لتكشفه علانيةً.

أمسك الضابط الكوبَ ذا اللون الغامق العميق ورفعه عاليًا، وزحف على ركبتيه نحو المرأة. ضغطت المرأة بكلتا يديها على ثدييها.

لا أزعم أنني رأيت ذلك، ولكنني شعرتُ أنني أرى أمام عيني بوضوح كامل استقرارَ بضع قطرات من الحليب الأبيض الدافئ الذي اندفع داخل الكوب المظلم، تاركًا بعضَ القطرات على قمَّته، محدثًا رغاويَ في الشاي ذي اللون البني المخضر، وأرى كذلك أن سطح الشاي الهادئ قد تعكَّر بذلك الحليب الأبيض محدِثًا رغاويَ أكثر.

رفع الرجل الكوبَ وشرِب ذلك الشاي العجيب حتى الثُّمالة. ثم أُخفي صدر المرأة الأبيض.

كنا نحن الاثنان ننظر إلى ذلك وقد تصلَّب ظهرانا من التوتر. عندما نفكِّر فيما بعدُ في ترتيب الأحداث، أعتقد أن ذلك كان عبارة عن طقسِ وداعٍ ضابطٍ يذهب إلى الحرب مع امرأة تحمل في بطنها جنين ذلك الضابط. ولكن، كان التأثُّر الذي أحسستُ به وقتها، يرفض أيَّ نوع من التفسير. ولأنني كنت أحملق أكثرَ من اللازم، استغرق الأمر وقتًا حتى

أنتبِه إلى أن الرجل والمرأة قد اختفيا من الغرفة، ولم يبقَ إلا السجاد الأرجواني الواسع فقط.

نظرتُ إلى ذلك الوجه الجانبي الأبيض المنحوت بعمق، والصدر الأبيض الذي بلا نظير. بعد أن رحلت المرأة، الوقت المتبقي من ذلك اليوم، وحتى اليوم التالي، ثم اليوم الذي يليه، كنت أفكِّر بإصرار في أمرٍ واحد، ألا وهو أن تلك المرأة كانت هي بكل تأكيد يويكو وقد بُعثت إلى الحياة مرةً أخرى.

الفصل الثالث

جاءت الذكرى السنوية الأولى لوفاة أبي. وفكَّرَت أمي في فكرة عجيبة. وهي أنه بسبب صعوبة عودتي إلى منزل العائلة بسبب انشغالي في عملي الإجباري في النشاط الحربي، فكرتْ هي في القدوم إلى كيوتو بنفسها وجلْب اللوح التذكاري لأبي، وبذلك يمكن للراهب دوسن تاياما أن يقرأ عليه السوترا المقدَّسة أمام اللوح ولو بضع دقائق فقط في ذكرى وفاة صديقه القديم. من الأصل هي لم يكن معها المال الكافي لدفع تكاليف المراسم، فكتبت إلى كبير الرهبان معتمِدة فقط على كرم مشاعره. ووافق هو على طلبها ثم أخبرني.

لم أكن سعيدًا بسماع ذلك الخبر. فلقد تعمَّدتُ تجاهُل الكتابة عن أمي حتى الآن لسببٍ خاص. وهو أنني كنتُ أشعر بعدم الرغبة في الكلام عن أمي.

ثمَّة حادث معيَّن، لم يسبق لي أن ألقيت باللائمة على أمي بسببه. ولم أتكلَّم عنه مطلقًا. وأعتقد أن أمي على الأغلب لا تعلم أنني أعرف ما حدث. ولكن منذ أن حدث ذلك الأمر، لم يستطِع قلبي أن يغفر لها ما فعلت قط.

حدث ذلك بعد دخولي مدرسةَ شرق مايزورو الإعدادية وبعد أن أصبحتُ في رعاية عمي، أثناء عطلة الصيف في أول عام دراسي، عندما رجعت إلى منزل العائلة للمرة الأولى. في ذلك الوقت عاد قريبٌ لأمي اسمه كوراي من أوساكا إلى ناريو، بعد أن فشل في تجارته. ولكنَّ زوجته مالكةَ البيت رفضت إدخاله بيتهما، لذا لم يكن أمامه إلا المبيت في معبد أبي حتى تخمُد ثورة زوجته.

لم يكن لدينا في المعبدِ ما يكفي من الناموسيات. فقد كنَّا أنا وأبي وأمي ننام معًا تحت نفس الناموسية، ومن العجيب أنني وأمي لم نُصَب بالعدوى من أبي المريض بالسل. ثم انضم إلينا كوراي. أتذكَّر جيدًا طيران حشرات الزيز وهي تنتقل وتتلوى فوق أشجار حديقة المعبد، وتصرخ صرخاتٍ قصيرة في وقت متأخر من ليل الصيف. وربما كان صراخها

هذا هو الذي أيقظني. وكان صوت البحر عاليًا، والرياح تقلب أطراف الناموسية السُّفلى ذات اللون الفيروزي. لم تكن طريقة اهتزاز الناموسية طبيعية.

كانت الناموسية تدرك بدايةَ الرياح، ثم بدأت تهتز مُكرَهة وكأنها تُجري عملية ترشيح للرياح. ولذلك لم يكن شكل الناموسية المنساق انعكاسًا مخلصًا لشكل ترنُّح الريح، بل إن انهيار الرياح يكوِّن زاوية زوجية. كان الصوت الذي يصدِره طرَف الناموسية السفلي أثناء احتكاكه بحصير التاتامي يشبه صوتَ حفيف أوراق الخيزران. ولكن كانت الناموسية تتحرَّك حركة معينة، لم تكن لها علاقة بالريح. كانت حركةً أكثرَ صغرًا ودقةً من حركة الرياح، كانت حركة تموُّج رقيقة تنتشر بطول الناموسية كلها، جاعلةً مادة القماش الخشنة تُحدِث صريرًا، ويبدو منظر سطح الناموسية من داخلها مثل سطح بحيرة يهتز قلقًا. سواء كانت مقدمة أمواج لسفينة قادمة من بعيد خلال البحيرة، أم كانت بقايا انعكاس أمواج سفينة غادرت بالفعل.

أدرتُ عينيَّ بخوف ورعب تجاه مصدرِ تلك الحركة. ثم حملقت خلال الظلام بعيون مفتوحة على وُسعها وشعرت وكأن مثقابًا حديديًّا ينخر مقلتي من قلبها.

كانت الناموسية صغيرة للغاية ولا تكفي لأربعة أشخاص، وكنتُ أنام بجوار أبي، ويبدو أنني أثناء تقلُّبي في نومي كنتُ أدفعه تجاه الركن. وعليه كانت هناك مساحة من الملاءة البيضاء ذات التجاعيد تفصلني عن المنظر الذي رأيته لتوي، وكان أبي الذي ينام مكوِّرًا ظهره خلفي، ينفث زفيره مباشرةً في قفاي.

الذي جعلني أدركُ أن أبي في الواقع مستيقظ، هو تنفُّسه الذي يعلو ويهبط متراقصًا بغير انتظام تجاه ظهري، وهو يحاول أن يمنع نفسه من السعال. في ذلك الوقت وبمفاجأة كاملة حجبَ شيءٌ كبير وساخن عيني — أنا ذا الثالثة عشرة من العمر — المفتوحة فأصبحتُ لا أرى. وفهمتُ على الفور، أن أبي مدَّ يديه من خلفي وغطَّى عيني.

ما زالت ذاكرةُ تلك الكفِّ حيةً حتى الآن، كفٌّ بالغة الضخامة بدرجة لا مثيل لها، كفٌّ لُفَّت من خلفي وأخفت في التو والحال عن عيني الجحيمَ الذي كنت أراه، كفٌّ من العالم الآخر. أنا لا أعلم هل هو بسبب الحب أو الرحمة أو الخزي، ولكن تلك الكف قطعت في الحال العالَم المخيف الذي كنت أواجهه ودفنَته في الظلام.

أومأت برأسي قليلًا داخل تلك الكف. ثم نزع أبي كفَّيه على الفور بعد أن فهِم من خلال إيماءة وجهي الصغير أنني فهمتُ ووافقت ... ثم كما أمرَت الكف، جعلتُ عيوني

تستمر مغمضةً بعناد بعد ابتعاد تلك الكف أيضًا، حتى استشفَّت الجفون نورَ الشمس البراق القادم من الخارج عند حلول صباح الأرق.

... أرجو تذكُّر أنه بعد سنين من ذلك لم أستطِع أن أذرفَ دمعة واحدة عندما حُمل تابوت أبي لخارج المنزل، حيث كنت مشغولًا بالنظر إلى وجهه الميت. أرجو تذكُّر أن مع موته، كنتُ أتحرَّر من قيد كفِّه، وكنتُ بالنظر الدائم إلى وجه أبي الميت أتأكَّد من حياتي. لم أستطِع أن أنسى الانتقامَ المتعصِّب بهذه الدرجة تجاه صنيع تلك الكف، التي ربما يطلق عليه الناس في هذا العالم «حبًّا»، رغم أنني لم أفكِّر قط في الانتقام من أمي بغضِّ النظر عن أنني لم أسامحها على تلك الذاكرة.

... تم ترتيب الأمر على أن تأتيَ أمي إلى المعبد الذهبي قبل يوم من ذكرى الوفاة والسماح لها بالمبيت ليلةً في المعبد. كتب كبير الرهبان رسالةً إلى المدرسة لكي أستطيعَ التغيُّب في يوم ذكرى الوفاة. أما العمل الإجباري في المصانع الحربية فقد كنا نعود منه كلَّ يوم. كنتُ أستثقل العودة إلى معبد روكوؤنجي قبل ذكرى الوفاة بيوم.

تسوروكاوا وبقلبه الصافي البسيط، كان سعيدًا من أجلي، ذلك أنني سأتمكَّن من رؤية أمي بعد كل هذه المدة الطويلة، وأما زملائي الآخرون في المعبد فقد كان لديهم فضولٌ بشأنها. ولكني كنت أكره تلك الأم الفقيرة القبيحة. وكنتُ أعاني من كيفية شرحِ سبب عدم رغبتي في رؤية أمي، لتسوروكاوا ذي القلب الطيب.

وما جعل الأمر أسوأ أنه بمجرد انتهاء العمل في المصنع، أمسك تسوروكاوا ذراعي وقال:

«حسنًا، هيا نعود جريًا.»

كان من المبالغة القول إنني لا أريد أن أرى أمي مطلقًا. لم يكن الأمر أنني لا أشعر بالشوق تجاه أمي. ولكن ربما لا يزيد الأمر عن مجرد أنني أكره مواجهة التعبير مباشرةً عن الحب الذي أستقبله من أقربائي، ولذا أحاول ببساطة أن أبحثَ عن سبب تلك الكراهية بأشكالٍ متنوعة. وكان ذلك من صفاتي السيئة. ما من مشكلة لو كنتُ أحاول تبرير شعور صادق بإيجاد أسباب متعددة له، ولكن أحيانًا تجبرني الأسباب اللانهائية التي يفكِّر فيها عقلي على الإحساس بمشاعرَ لم أكن أتخيَّلها مطلقًا. ولم تكن تلك المشاعر هي مشاعري الحقيقية.

ولكن كان في كراهيتي فقط شيء من الصحة. وذلك لأنني كنت شخصًا يجب أن يُكره.

«ما من سبب للجري. إنه متعِب فقط. دعنا نعود ونحن نجرُّ أرجلنا ببطء.»

«وبهذا تجعل أمَّك تتعاطف معك وتغرقك حبًّا ودلالًا.»

هكذا كان تسوروكاوا دائمًا المفسِّر الذي يمتلئ بسوء الفهم لي. ولكنه لم يكن يزعجني بأقل القليل، وأصبح وجوده ضروريًّا لي. كان مترجمًا حسنَ النية حقًّا لي، وكان الصديقَ القادر على ترجمة كلماتي إلى لغة العالم الواقعي، الصديق الذي لا يمكن لأحد أن يحل محلَّه.

حقًّا. إن تسوروكاوا كان يبدو لي أحيانًا مثل الخيميائي القادر على استخراج الذهب من الرصاص. كما لو أنني كنتُ أنا السالب (نيجاتيف) وهو الموجَب (بوزيتيف) لنفس الصورة. وكم من مرة تأملتُ في دهشة وتعجُّب كيف تتحوَّل مشاعري المظلمة المكدَّرة كلها إلى مشاعرَ شفافة رائقة دون شوائب تشعُّ نورًا بعد أن تترشح لمرة واحدة في مرشِّح قلب تسوروكاوا! وأثناء ما كنتُ في حَيرة تلعثمي كانت يد تسوروكاوا تقلب مشاعري على حقيقتها وتبلغها إلى العالم الخارجي. ما تعلَّمته من تلك الدهشةِ هو أنه لا اختلافَ بين ألطفِ المشاعر في هذا العالَم وأسوئها، ما دامت هي في مرحلة المشاعر. وأن تأثيرهما هو نفسه، وأنه لا فرقَ بين نية القتل ومشاعر الرحمة في المظهر الخارجي. لم يكن تسوروكاوا ليؤمن بشيء مثل هذا مطلقًا، حتى لو كنتُ قادرًا على شرحه بالكلمات، ولكن كان ذلك بالنسبة لي اكتشافًا مخيفًا. فحتى لو لم أُعد أخاف من النفاق من خلال علاقتي مع تسوروكاوا، فالسبب هو أن النفاق لم يَعُد يزيد بالنسبة لي عن كونه إثمًا نسبيًّا.

لم أخُض تجربة القصف الجوي وأنا في مدينة كيوتو، ولكن لمرة واحدة عندما أُرسلت إلى المصنع الرئيس في أوساكا مع قائمة ببعض الطلبات لقطع غيار الطائرات، تصادف أن وقع هجومٌ بالقصف الجوي ورأيتُ أحد عمال المصنع يَخرج محمولًا على نقالة وأحشاؤه خارج بطنه.

لمَ يا تُرى تُعتبر الأحشاء الخارجة من البطن منظرًا مريعًا؟ لمَ يصاب الناس بالرعب عندما يرون الأحشاءَ البشرية فيغطُّون أعينهم؟ لمَ يعطي منظر الدماء النازفة صدمةً للبشر؟ لمَ تكون الأمعاء الآدمية قميئة؟ أليست الأمعاء وبشَرة الإنسان اللامعة الجميلة الشابة من نفس النوع تمامًا؟ ... يا تُرى كيف ستكون ملامح وجه تسوروكاوا عندما يسمعني أقول إنني تعلَّمت منه تلك الطريقةَ في التفكير التي تجعل قبحي عدميًّا؟ لماذا يبدو تأمُّل البشَر مثلًا وكأنهم مثل الورود ليس لهم ظاهر وباطن أو داخل وخارج، فكرةً لا إنسانية؟ لو استطاع الإنسانُ قلب روحه وجسده مثل بَتَلات الوردة وإرجاعهما في رشاقة كاشفًا ما في داخله لأشعة الشمس ونسائم الربيع ...

وصلت أمي بالفعل وكانت تتحدَّث مع كبير الرهبان في غرفته. وضعنا أنا وتسوروكاوا رُكَبَنا على حافة الممر في غروب بداية الصيف وقلنا: «لقد عُدنا.»

أدخلني كبير الرهبان أنا فقط الغرفةَ، وقال لأمي أمامي أشياءَ من قبيل هذا الفتى يعمل بجِد واجتهاد. كنت أحني رأسي دون أن أنظرَ إلى أمي. ولكني استطعت رؤيةَ رُكبة سروال أمي الفضفاض المصنوع من القطن الأزرق المبقَّع، وفوقها أصابع اليدين القذرتين مضمومة بعضها إلى بعض.

قال كبيرُ الرهبان لي أنا وأمي إنه يمكننا الآن الذهابُ إلى غرفتنا. خرجنا نحن الاثنان من الغرفة بعد أن قمنا بتحيةِ كبير الرهبان بالانحناء أكثرَ من مرة. تقع غرفتي جنوبَ المكتبة الصغرى، وهي عبارة عن مخزن بمساحة خمس حصيرات تاتامي، تواجه الحديقة الداخلية. عندما أصبحنا بمفردنا في تلك الغرفة، بكتْ أمي.

كنتُ قد توقَّعت ذلك، فاستطعتُ البقاء في برود هادئ.

«أنا حاليًّا تحت رعاية معبد روكوؤنجي كما تعلمين، أريدك ألا تأتي قبل أن أصيرَ راهبًا كاملَ الأهلية.»

«أفهم ذلك. أفهمه جيدًا.»

كنتُ سعيدًا وأنا أستقبل أمي بتلك الكلمات القاسية. ولكن أمي، وكما هي عادتها من قبلُ، لا تشعر بأي شيء، ولم تُبدِ أيَّ مقاومة، وهو ما سبَّب لي شعورًا بالألم، يشبه ألمَ الأسنان. ومع ذلك كنتُ في حالة رعب حقيقي عند تخيُّلي أن أمي ستتخطى الحاجز وتقتحم داخل نفسي.

تملِك أمي عينين بهما لؤمٌ تبدوان غائرتين في وجهها الذي اسمرَّ من الشمس. تلمع الشفتان فقط بلون أحمر وكأنهما كائنٌ حي مختلف، وتصطف داخلهما أسنانٌ قوية ومتينة وكبيرة الحجم يتميز بها أهل الأرياف. كانت في سنٍّ لو أنها من أهل المدينة، لم يكن غريبًا أن تملأ وجهها بالمساحيق الثقيلة. وجه أمي التي تحاول على قدْر استطاعتها إبقاءه قبيحًا، يُبقي في مكانٍ ما إحساسًا بالحسية المعكَّرة، وهذا ما أُدرِكه أنا بحساسية زائدة وأكرهه بشدة.

بعد أن غادرنا من أمام كبير الرهبان، وبعد أن بكتْ فترة من الوقت كما يحلو لها، أخرجت أمي المنديل المصنوع من الحرير الصناعي الذي يُوزَّع مع المواد التموينية، وفتحت أعلى صدرها الذي اسمرَّ بفعل أشعة الشمس ومسحت به العَرق. قماش المنديل الذي كان يلمع لمعانًا حيوانيًّا، ابتلَّ برطوبة العَرق ثم لمع.

أخرجت أمي الأرُزَّ من حقيبتها، وقالت إنها ستعطيه لكبير الرهبان. كنتُ صامتًا عن الكلام. ثم علاوةً على ذلك أخرجت أمي لوحَ أبي التذكاري الملفوف عدة مرات بقطن طبيعي فيرانيٍّ اللون بحرص وعناية كأنه شيء ثمين، ووضعته فوق أرفف مكتبتي.

«يجب الامتنان لذلك. فغدًا كبير الرهبان سيقرأ عليك بعضًا من السوترا المقدس، وبالتأكيد ستفرح يا أبي.»

«بعد انتهاء مراسم إحياء الذكرى السنوية هل ستعودين يا أمي مباشرةً إلى ناريو؟»

كانت إجابة أمي غير متوقَّعة. فقد تنازلت عن حق إدارة معبدنا لراهبٍ غريب، وباعت حقل الأرز الصغير، وسدَّدت كل الديون التي اقترضتها أثناء مرض أبي الأخير، واتفقت مع خالي الذي يسكن في ناحية كاساغون الواقعةِ في ضواحي كيوتو للعيش في بيته.

المعبد الذي كان من المفترض أن أعودَ إليه، لم يَعُد موجودًا! ما من مكانٍ أعود إليه في تلك القرية المنعزلة برأس البر المطل على بحر اليابان.

لا أدري كيف فسَّرت أمي شعور الحرية الذي طرأ على ذهني في ذلك الوقت؛ فقد لصقت فمَها في أذني وقالت:

«أتسمع، معبدُك أصبح غير موجود. وليس أمامك في المستقبل إلا أن تصبح راهبًا مقيمًا هنا في المعبد الذهبي. يجب عليك أن تحرص على أن يعتنيَ بك كبيرُ الرهبان لتكون خليفته. فتلك هي متعة أمِّك الوحيدة التي تعيش من أجلها.»

بُهِتُّ ونظرت في وجه أمي غير مصدِّق. ولكني لم أستطِع مواجهةَ عينيها من الرعب.

كانت الغرفة قد أصبحت مظلمة بالفعل. ولأنها قرَّبت فمَها من أذني فاحت حولي رائحةُ عَرق تلك «الأم الحنونة». أتذكَّر أن أمي في ذلك الوقت كانت تضحك. دارت في ذهني ذاكرةُ الرضاعة البعيدة، تذكرتُ الثدي الأسمر الخفيف، تلك الصور القلبية، مسبِّبة درجة كبيرة من الاستياء. في نقطة اندلاع النار في دناءة القلب الطموح، ما يشبه قوة الإجبار والإرغام الجسدية بدرجةٍ ما، وأعتقد أن ذلك هو الذي سبَّب لي الرعب. عندما لمس شعر أمي المجعَّد خدي، رأيت يعسوبًا يريح جناحَه فوق حوض الاغتسال الذي نبَت عليه العفن الأخضر في الحديقة الداخلية. وقعت سماء الليل فوق نقطة الماء الدائرية الصغيرة تلك. ما من مصدرٍ لأي صوت، وبدا معبد روكوؤنجي في ذلك الوقت كأنه معبد مهجور ليس به أثرٌ لإنسان.

أخيرًا نظرتُ أنا إلى أمي في عينيها مباشرة. ضحِكت أمي ضحكةً على طرَف شفتيها الناعمتين، جاعلةً من أسنانها الذهبية تلمع. كان ردي شديدَ اللعثمة.

«لكن على أي حال سأُستدعى للجيش، وربما أموت قتيلًا في الحرب.»

«يا لك من غبيٍّ! إذا تم استدعاء متلعثم مثلك للجيش فستكون نهاية اليابان!» تقلصتْ عضلات ظهري، وزادتْ كراهتي لأمي.

ولكن الكلمات التي تخرج مع التلعثم، لم تكن إلا عبارة عن ذرائعَ وحججٍ واهية فقط.

«ربما يُحرق المعبد الذهبي بواسطة القصف الجوي.»

«إن صار الأمر بهذا الحال، فما من احتمال قاطع لقصف جوي لكيوتو. من المؤكَّد أن أمريكا ستُعرِض عن فِعل ذلك.»

... لم أُجِب. تحوَّل لونُ الحديقة الداخلية للمعبد في الغسقِ لِلون أعماق البحر. وغاصت الأحجار بنفس الهيئة التي تقاتل بها في عنف.

وقفتْ أمي بلا أي مبالاة لصمتي، وأخذت تتأمَّل بلا استحياء الألواحَ التي تحيط بالغرفة ذات الحصائر الخمس. ثم قالت:

«ألم يَحِن وقتُ طعام العشاء بعدُ؟»

... عندما فكرتُ في الأمر بعدها، مقابلتي مع أمي في تلك المرة، تركت في قلبي تأثيرًا ليس بالقليل. فإذا كان ذلك الوقت هو الذي انتبهتُ فيه إلى أن أمي تعيش في عالَم مختلف تمامًا عن عالمي، فهو أيضًا الوقت الذي لأول مرة تؤثِّر فيَّ طريقةُ تفكيرها بقوة.

لم يكن لأمي بطبيعتها أيُّ علاقة بالمعبد الذهبي الجميل، ولكن بديلًا عن ذلك، كانت تملك شعورًا واقعيًّا به لا أملِكه أنا. ربما يكون عدم وجود خوف من حدوث قصف جوي لمدينة كيوتو هو أمر حقيقي بغض النظر عن أحلامي وأوهامي. إذن، إذا لم يكن المعبد الذهبي معرَّضًا في المستقبل القريب لخطر القصف الجوي، فسأفقد أنا الهدف من حياتي في الوقت الحالي، وينهار العالم الذي أعيشه.

وعلى الجهة الأخرى، أصبحتُ مع كرهي له أسيرَ طموح أمي الخيالي الذي لم أفكِّر فيه من قبلُ. لم يقُل أبي كلمة واحدة عن ذلك، ولكنه ربما أرسلني إلى هذا المعبد للرهبنة، تحت نفس ذلك الطموح الذي لأمي. كان الراهب دوسن تاياما أعزبَ. وإذا كان الراهب نفسه تسلَّم معبد روكوؤنجي من الراهب السابق عليه الذي توسَّم فيه الخير، فأنا أيضًا إذا بذلتُ جهدي، فربما رشَّحني كبير الرهبان لخلافته. إذا صار الأمر كذلك، فسيصبح المعبد الذهبي مِلكي!

وقعتُ في فوضى من الأفكار. وعندما أصبح طموحي الثاني عبئًا ثقيلًا على قلبي، عدتُ إلى الحُلم الأول — أن يتلقى المعبد الذهبي قصفًا جويًّا — وعندما تحطَّم هذا الحُلم من خلال الحكم الواقعي المكشوف لأمي، عدتُ مجددًا إلى الطموح الثاني، ونتيجةً لتفكيري فيه مرارًا وتكرارًا، ظهر لي خُرَّاج أحمر كبير عند التقاء العنق بالصدر.

أهملتُ ذلك الخُراج ولم أُلقِ له بالًا. فأوثق الخُراج من جذوره وهجم عليَّ من خلف الرقبة بقوة ثقيلة ساخنة. أثناء نومي الذي يميل في أغلبه إلى التقطُّع، رأيتُ حُلمًا فيه تُولَد هالة من الذهب الخالص من ظهري إلى عنقي، وتنبُت من أجل أن تحيط تدريجيًّا في شكلٍ بيضوي خلف رأسي. وعندما استيقظتُ لم يكن ذلك إلا مجرد ألم الورم الضار.

وأخيرًا ظهرت الحمَّى ورقدتُ في الفراش. أرسلني كبير الرهبان إلى عيادة طبيب جِراحة. وسمَّى الطبيب الجرَّاح الذي كان يرتدي الزيَّ الوطني ويربط ساقه بجُرْمُوق، ذلك الخُراج اسمًا بسيطًا هو «دُمَل»، ووضع عليه المشرط الذي طهَّره بالنار بدلًا من استخدام الكحول.

زمتُ بشدة. وأحسست بالعالم الساخن الثقيل والمؤلم خلف رأسي، ينفجر ثم ينكمش وأخيرًا ينزوي.

انتهت الحرب. كنت أفكِّر أثناء سماعي إلى الإعلان الإمبراطوري في المصنع، في المعبد الذهبي فقط ولم أفكِّر في شيء آخر.

كان استعجالي بالوقوف أمام المعبد الذهبي بعد عودتي إلى المعبد سريعًا، لا غرابة فيه ولا عجب. وكان الحصى الذي في طريق الزيارة متلهِبًا من أشعة الشمس في منتصف قيظ الصيف، وكان باطن حذائي الرياضي المصنوع من مطاط متواضع وسيئ، يلتصق بكل الحصى الذي يدوسه حصوةً حصوة.

بعد سماع إعلان الإمبراطور نهايةَ الحرب، من المفهوم أن الناس في طوكيو تذهب إلى أمام القصر الإمبراطوري، ولكن هنا في كيوتو ذهبت أعدادٌ كثيرة من الناس تبكي أمام قصر كيوتو الإمبراطوري الخالي من ساكنه. في كيوتو الكثير من المعابد الدينية التي يمكن الذهابُ إليها للبكاء في وقتٍ مثل هذا. لا شك أنه في ذلك اليوم ازدحمت تلك المعابد بالزوار. ولكن وكما هو المتوقَّع لم يأتِ أحد إلى المعبد الذهبي المهيب.

وبهذا الحال كان ظلي فقط هو الذي يسقط فوق الحصى الملتهِب. هل يجب القول إن المعبد الذهبي كان يقع في جهة وأنا في الجهة الأخرى؟ منذ النظرة الأولى التي نظرتُ بها إلى المعبد الذهبي في ذلك اليوم، أحسستُ أن العلاقة «بيننا» قد تغيَّرت بالفعل.

لقد استعلى المعبد الذهبي على صدمة الهزيمة في الحرب، وعلى ما يشبه الحزن الشعبي. أو ربما يكون قد تصنَّع الاستعلاء. لم يكن المعبد الذهبي بهذه الحالة حتى أمس. إنه حتى النهاية لم يُصَب بقصف جوي، وإنه منذ اليوم لن يخشى هذا المصير، لا شكَّ أن هذين الأمرين جعلا المعبد الذهبي، يستعيد مرةً أخرى العواطفَ التي محتواها تقول: «منذ ماضٍ بعيد أنا موجود هنا، وأظل موجودًا هنا إلى الأبد بالتأكيد.»

كانت القشرة الذهبية الداخلية العتيقة، كما هي محمية بواسطة الورنيش الذي تشعُّه شمس الصيف لترشه على الجدران الخارجية، وكان المعبد الذهبي هادئًا تمامًا وساكنًا كأثاث نبيل بلا فائدة، كأنه أرفف زينة عملاقة فارغة موضوعة أمام حافة غابة مشتعلة من الأشجار. ومن المفترض أن الزينة التي تناسب حجمَ تلك الأرفف، أما أن تكون مَحْرَقة بخور عملاقة بدرجةٍ لا تُصدَّق أو تكون عدمًا هائلَ الحجم. لقد فقد المعبد الذهبي هذه الأشياء تمامًا، وعلى الفور أزال عنه جوهره الأصلي، وبنى هناك شكلًا عدميًّا بطريقة عجيبة. والأكثر غرابة، أن المعبد الذهبي في داخل الجَمال الذي يظهره من حين لآخر، لم يكن في يوم من الأيام أكثرَ جَمالًا من جَماله في ذلك اليوم.

لقد استعلى المعبد الذهبي متحررًا من صورته في أحلامي، لا، بل متحررًا من عالم الواقع كذلك، متحررًا من أي علاقة بأي نوع من أنواع التلاشي، لم يَظهر جَمالٌ مستقرٌّ وثابت مثل هذا حتى الآن! فقد تمنَّع هذا الجَمال عن أي معنًى، ولم يتألَّق بهذه الدرجة من قبل.

ودون أي مبالغة، أقول إنني أنا الذي أشاهد ذلك ارتعشت قدماي، وسال العَرق البارد على جبهتي. عند مقارنة ذلك بما حدث عندما شاهدتُ المعبد الذهبي ثم رجعتُ إلى قريتي وظلَّ صدى المعبد بتفاصيله وبكله جميعًا يتردَّد داخلي مثل الألحان الموسيقية، فإن الذي أسمعه الآن هو الهدوء والسكون التام، والصمت الكامل. الذي ينساب هناك، الذي يتغيَّر هناك، هو اللاشيء. كان المعبد الذهبي موجودًا هنا، يقف شامخًا مثل التوقُّف المرعب للموسيقى، مثل تردُّد صدى الصمت.

فكَّرت قائلًا لنفسي: «لقد انقطعت العلاقة بيني وبين المعبد الذهبي. انهار بهذا وهمي بالحياة مع المعبد الذهبي في نفس العالم. وستبدأ الحالة الأصلية أو ربما حالةٌ بلا أملٍ أكثر

يأسًا من ذي قبل، حالة أن الجَمال في جانب وأنا في الجانب الآخر. حالة لن تتغيَّر ما دام هذا العالم مستمرًّا ...»

وهكذا لم تكن هزيمة الحرب بالنسبة لي إلا مجرد تجربة لليأس. يمكنني رؤيةُ لهب أشعة صيف يوم ١٥ أغسطس أمامي الآن. لقد قال الناس إن كل القيم انهارت، ولكن في داخلي، كان الأمر على العكس تمامًا، لقد استيقظ الخلود، وبُعث من جديد مطالبًا بحقوقه. الخلود الذي يحكي عن وجودٍ أبدي مجهول للمعبد الذهبي هنا.

الخلود الذي ينزل من السماء، ويلتصق بخدودنا وبأيدينا وببطننا، ثم يبتلعنا. ذلك الشيء الملعون ... نعم إنه كذلك. لقد سمِعتُ ذلك الخلود الذي يشبه اللعنةَ في يوم نهاية الحرب، في أصوات حشرات الزيز المنتشرة حولنا في الجبال. لقد صبغتني بالكامل بلون ذهبي لحائط طيني.

في تلك الليلة وقبل قراءة كتب السوترا المقدَّسة التي تقام قبل النوم، صلَّينا ودعونا بصفة خاصة لجلالة الإمبراطور، ثم قرأنا كتب السوترا طويلًا من أجل مواساة أرواح ضحايا الحرب.

أصبحت كل الأديان في هذه الحرب تستخدم أوشحةً بسيطة متواضعة، ولكن في تلك الليلة ارتدى كبير الرهبان بصفة خاصة وشاحَ المراسم القرمزي الذي كان قد وضعه في خزانة الملابس طويلًا.

كان وجه كبير الرهبان الممتلئ والنظيف لدرجة الظن أنه اغتسل جيدًا حتى ما داخل التجاعيد، اليوم في غاية الصحة وردي اللون، ونوعًا ما به اكتفاء ورضًا. برزت برودة صوت احتكاك الرداء بسبب حرارة الجو في تلك الليلة.

بعد انتهاء قراءة السوترا المقدسة، استُدعي كلُّ مَن في المعبد إلى غرفة كبير الرهبان وهناك ألقى علينا كبير الرهبان محاضرة.

كانت فكرة المحاضرة التي اختارها كبير الرهبان هي قصة «ذبح الراهب نانسن هرة» من الفصل الرابع عشر لكتاب مومونكان.

قصة «ذبح الراهب نانسن هرة» مذكورةٌ كذلك في الفصل الثالث والستين من كتاب «سجلات هِكيغان» باسم «ذبح الراهب نانسن هريرة» وكذلك في الفصل الرابع والستين باسم «وضع الراهب جوشو الخُفَّ على رأسه»، وهي تعتبر من قديم الزمان من أشهر القصص الصعبة الفهم.

في عصر «تانغ» (٦١٨–٩٠٧) كان راهب لطائفة الزن يسمَّى فوغان يعيش في جبل نانسن بمدينة تشيزهو. وتيمنًا باسم الجبل تسمَّى باسم نانسن.

خرج في أحد الأوقات جميعُ رهبان المعبد لقطع حشائش الجبل، فظهرت لهم هُريرة فجأةً في ذلك الجبل الموحش المهجور من الكائنات. لاحق الجميع الهُريرة وأمسكوا بها؛ لأن ذلك كان شيئًا نادرًا، وتسبَّب ذلك الأمر في صراع الجناحين الشرقي والغربي للمعبد. وكان الصراع بسبب أنَّ كلًّا من الجناح الشرقي والجناح الغربي يرغب في أن تكون تلك الهُريرة مِلكه ويقوم برعايتها وتربيتها.

عندما رأى الراهب نانسن ذلك، أمسك على الفور الهُريرة من رقبتها، وأمسك منجل قطع الحشائش وقال:

«إذا نطق منكم أحد فسينقذ الهريرة، وإذا لم ينطق أحدٌ فستُذبح الهريرة.»

لم يُجِبه أحد. فذبح الراهب نانسن الهريرةَ وألقى بها بعيدًا.

وعندما حلَّ الليل، عاد الراهب جوشو إلى المعبد وكان أنجبَ تلاميذه. فحكى له الراهب نانسن ما حدَث وطلب رأيه.

خلع جوشو على الفور نعليه ووضعهما على رأسه وغادر الحجرة.

وعندها ندب الراهب نانسن حظَّه بألمٍ قائلًا:

«آه، لو كنتَ موجودًا هنا اليوم لكنتَ أنقذتَ حياة الهريرة.»

... هذا تقريبًا محتوى القصة، والجزء الخاص بوضع جوشو النعلين فوق رأسه معروفٌ حتى الآن خصوصًا أنه هو أصعب جزء في القصة.

ولكن طبقًا لكبير الرهبان، لم يكن ذلك الجزء صعبًا لهذه الدرجة.

لقد ذبح الراهب نانسن الهرة لطردِ أوهام النفس، واستئصال كل الأوهام والأفكار التي في ذهنه. فمن خلال تطبيق القسوة وذبح الهرة، فهو قد قطع كلَّ التناقض والتصارع والتناحر بين هوى الذات وهوى الآخرين. وذلك ما يُعرف بالسيف القاتل، في حين أن تصرُّف جوشو يُطلَق عليه سيف إعطاء الحياة. فهو يعطي محاكاةً عملية لطريقة تصرُّف البوديساتفا من خلال التسامح اللانهائي بوضع الخُف الذي يغرق في الوحل ويُحتقر من الناس على رأسه.

أنهى المحاضرة كبير الرهبان بعد شرح الأمر بهذه الطريقة، دون أن يتطرق مطلقًا إلى هزيمة اليابان في الحرب. أُصبنا جميعًا بالدهشة وكأن ثعلبًا خدعنا. ولم نفهم مطلقًا لماذا اختار كبير الرهبان هذه القصةَ خصوصًا ليلقيها علينا في يوم هزيمة اليابان في الحرب؟

أبديتُ تساؤلي هذا لتسوروكاوا في الممر أثناء عودتنا إلى غرفنا الشخصية. هزَّ تسوروكاوا رأسه وقال:

«لا أفهم. من المؤكد أننا لن نفهم إلا بعد أن نعيش حياةَ الرهبان. ورغم ذلك فأنا أعتقد أن مغزى محاضرة اليوم هي: في اليوم الذي انتهت فيه الحرب بالهزيمة لا تُشِر مطلقًا إلى ذلك الأمر، وألقِ أي قصة ليس لها علاقة، مثل قصة ذبح الهرة.»

برغم هزيمتنا في الحرب لم نكن قط تعساء. ولكن كنتُ قلقًا من وجه كبير الرهبان ذلك الذي كان يمتلئ ويفيض بالسعادة والحبور.

في العادة يحافظ شعور الاحترام والتقدير للراهب المقيم على النظام والقواعد داخل المعبد البوذي الواحد، ولكني رغم قضائي العامَ الماضي بأكمله تحت رعايته وحنوه عليَّ، لم ينبع في قلبي أيُّ شعور بالاحترام العميق لكبير الرهبان. وكان ذلك أمرًا حسنًا ولا بأس به. ولكن بعد أن أشعلت أمي شرارة الطموح فيَّ، أصبحت أنا ذو السابعة عشرة من العمر، أنظر إلى كبير الرهبان بعين النقد أحيانًا.

كان كبير الرهبان عادلًا بلا أي انحياز شخصي. ولكنها كانت عدالة تجعلني أتخيَّل أنني لو كنتُ كبير الرهبان سأستطيع بسهولة أن أكون عادلًا بلا أي انحياز شخصي هكذا. وحتى الفكاهة التي تُعتبر من المميزات الخاصة لرهبان طائفة الزن كانت منعدمةً في شخصية كبير الرهبان. رغم أن تلك الهيئة القصيرة المكتنزة تثير الفكاهة في العادة.

لقد سمِعتُ أن كبير الرهبان وصل إلى المنتهى في اللهو مع النساء. وعندما أتخيَّل كبير الرهبان في حالة لهوه النسائي، أراه أمرًا مضحكًا ومقلقًا في ذات الوقت. ما هو يا تُرى شعور امرأة يحتضنها جسدٌ مثل حلوى ملبن بلون وردي؟ لا بد وأنها تشعر كأنها دُفنت في قبرٍ من اللحم بعد اتصال اللحم الطري الوردي اللون بنهاية هذا العالم.

لقد كنت كذلك أعجبُ أشدَّ العجب من وجود هذا اللحم في جسد راهب طائفة زِن. وأعتقد أن غرق كبير الرهبان في الملذات الجسدية مع النساء كان هدفه هو الاستغناء عن الجسد، واحتقار اللحم. ورغم ذلك، يمتص اللحم الذي تم احتقاره، الغذاءَ كما يحلو له، وأصبح لينًا ولامعًا، فأصبح من العجيب أن ذلك اللحم يحتوي على روح كبير الرهبان. لحم دافئ متواضع مثل المواشي التي تم تربيتها جيدًا. ذلك اللحم الذي يشبه أن يكون بالضبط كمحظية لروح الراهب النفسية.

يجب عليَّ هنا أن أذكر كيف كان وقْع الهزيمة في الحرب عليَّ أنا.

لم يكن ذلك تحررًا. قطعًا لم يكن تحررًا بأي حال. لم يكن إلا بعثًا للزمن البوذي المذاب في المعيشة اليومية، في الأبدية، في اللامتغير.

استمرَّت الفرائض اليومية للمعبد من اليوم التالي للهزيمة، مرةً أخرى كما كانت في السابق. افتتاح الفروض (الاستيقاظ)، فرض الصباح، تناول وجبة الصباح حساء الأرز، العمل اليومي في التنظيف أو الحقل، تناول وجبة الغداء في الغابة، تناول وجبة العشاء، الاستحمام، النوم ... وعلاوةً على ذلك، منع كبير الرهبان شراءَ أرز السوق السوداء منعًا صارمًا، فلم نجد مترسبًا في صحن الحساء الفقير إلا قليلًا من الأرز الذي يتبرع به أتباع المعبد لنا، أو ما يشتريه نائب كبير الرهبان، تحت اسم تبرعات بكمياتٍ ضئيلة للغاية من السوق السوداء من أجلنا نحن الذين في أوج أطوار النمو وفي حاجة للتغذية. وكنا نذهب أحيانًا لشراء البطاطا الحلوة. وكذلك لم يكن حساء الأرز في وجبة الصباح فقط، بل استمرَّت الوجبات المكوَّنة من حساء الأرز والبطاطا تظهر في الظُّهر والليل. وكنا في جوع دائم.

كان أهل تسوروكاوا في طوكيو، يرسلون له حلويات من وقت لآخر بناءً على طلبه. كان تسوروكاوا يأتي إلى فراشي لنأكلها سويًّا في ظلام الليل. وكان أحيانًا ما يسرع البرق في سماء الليل المتأخر.

سألته لماذا لا يعود إلى ذلك البيت الغني الذي وُلد فيه ليرعاه أبوه وأمُّه المحبَّان له؟

«ماذا؟ إن ما نحن فيه هو نوع من أنواع التدريب والزهد. ففي نهاية المطاف أنا سأرث معبد أبي.»

كان تسوروكاوا على ما يبدو لا يشعر بأي معاناة من أي نوع. كان مثل عصوي الأكل اللتين أُدخلتا تمامًا في علبتهما. استمررت في ملاحقته بالحديث وقلت لتسوروكاوا، ربما يأتي عصر جديد تمامًا لا يمكن أن نتخيَّله. في ذلك الوقت تذكرتُ أنا، الحكاية التي كان الجميع يتداولها عندما ذهبت إلى المدرسة بعد ثلاثة أيام من انتهاء الحرب، عن رئيس العمال في المصنع، عاد إلى منزله بحمولة عربة نقل مملوءة عن آخرها بالمواد. ولقد سمِعت أن رئيس العمال قال بوجه صفيق، إن تلك المواد ستكون محلي في السوق السوداء.

كنت أرى أن رئيس العمال الذي كان رابط الجأش بعيون حادة في منتهى القسوة، كان يجري بأقصى سرعته في طريق الشر. كانت الطريق التي يجري فيها بحذائه النصفي الطويل تأخذ تمامًا شكل الموت في الحرب، وبها ما يشبه الفوضى التي في شروق الفجر.

على الأرجح سينطلق مغادرًا المكان قالبًا لِفاعَه الحريري الأبيض على صدره، حاملًا المواد التي سرقها على ظهره الذي ناءَ بها، معرِّضًا وجهه لرياح بها بعض من آثار الليل. وربما أنهك نفسه بسرعة هائلة. ولكن في مكان أبعد، يدق ناقوس البرج العالي المتألق بدرجة أكثر خفة دقاتٍ غير منتظمة.

كنتُ منفصلًا عن ذلك وبيني وبين جميع تلك الأشياء فجوة. كنت بلا مال، ولا حرية، ولا تحرُّر. ولكن كان من المؤكد أنني عندما أقول «عصر جديد»، فقد كنت أنا ذو السابعة عشرة ربيعًا، قد أخذتُ قرارًا حاسمًا، مع أنه لم يكن يأخذ شكلًا واضحًا.

«إذا ذاق الناس في هذا العالم، طَعمَ الشرور في معيشتهم ونشاطهم فسأغوص أنا في الشر الذي في عالمي الداخلي بقدرِ ما يمكنني.»

ولكن أول ما أفكر فيه من شرور يتداخل فيه كبير الرهبان بمهارة، ليس إلا حلمًا أبله أقتل فيه كبيرَ الرهبان بالسُّم، وأجلس بعد ذلك في مكانه لأضع المعبد الذهبي في قبضة يدي. لم أحصُل على راحة ضميري من تلك الخطط، لأنني متأكد أن تسوروكاوا ليس له نفس طموحي.

«ألا تحمل أيَّ قلق أو أمل تجاه المستقبل؟»

«لا، لا أملك شيئًا مطلقًا. ماذا سيحدث أصلًا لو عندي ...؟»

لم تكن نبرة صوت تسوروكاوا الذي أجاب بهذا الرد، بها أي قدْر من الكآبة ولا اليأس. وقتها أنار البرق حاجبه الأملس الرفيع وهو الجزء الوحيد الحساس في ملامح وجهه. وكان تسوروكاوا كما قال لي يترك الحرية للحلاق في أن يقص حواجبه من أعلى ومن أسفل. وأصبح بذلك الحاجب الرفيع في النهاية دقيقًا دقةً صناعية، ويقبع في أطراف الحاجبين ظلٌّ أخضر بسيط من أثرِ بواقي الحلاقة.

وعندما نظرت عرَضًا إلى ذلك الأثر الأخضر، أصابني القلق. فقد كان هذا الفتى على العكس مني تمامًا، يحترق على أطراف حياة خالصة النقاء. يختفي مستقبله حتى احتراقه. يغرق فتيل المستقبل داخل الزيت البارد الشفاف. مَن هذا الذي هو في حاجة لتوقُّع براءة ونقاء ذاته، إذا كان لم يتبقَّ إلا البراءة والنقاء في المستقبل فقط؟!

... في تلك الليلة، بعد أن عاد تسوروكاوا إلى غرفته، لم أستطِع النومَ بسبب حرارة الجو والرطوبة. علاوةً على ذلك، سلب شعورُ مقاومة عادة احتقار الذات كلَّ رغبة في النوم.

كنت أحيانًا ما أحتلم. ولكن ذلك لم يكن في الحُلم صورًا لرغبة جسدية مؤكَّدة، على سبيل المثال كلب أسود وحيد يجري في منطقة مظلمة، وأرى لاهثات فمه الذي يشبه اللهب، فتزداد الإثارة من دقَّات جرس معلَّق في رقبته يرن من وقت لآخر، وعندما تصل طريقة رن الجرس إلى حدِّها الأقصى، يحدث القذف.

في كل مرة من احتقار الذات، أملك أوهامًا مثل الجحيم. يظهر ثدي يويكو، ثم تظهر فخذاها. ثم أصبحُ وكأنني حشرة صغيرة وقبيحة بدرجةٍ لا مثيل لها.

... ركلتُ الفراش بقدمي ونهضتُ، وتسللت خارجًا من الباب الخلفي للمكتبة الصغرى.

المنطقة الخلفية لمعبد روكوؤنجي، حيث يقع مبنى سيكَّاتيه، أكثر اتجاهًا نحو الشرق، ثمَّة جبل يسمَّى جبل فودوسان. هو جبل مغطًّى تمامًا بالصنوبر الأحمر، ومختلط بين أشجار الصنوبر أشجار الخيزران، وثمَّة شجيرات من شجر الدوتسية وشجر الأزالية. كنت معتادًا على ذلك الجبل، لدرجةِ أنني لا أتعثَّر في صعوده حتى في ظلام الليل. عند الصعود إلى قمَّته، أستطيع الرؤيةَ لمسافة بعيدة حتى حيَّي كاميكيو وناكاكيو، وكذلك جبل إيزان وجبل دامونجي.

صعدتُ للقمة. صعدتُ وأنا أتحاشى أفرعَ الأشجار كي لا تلمس جانب عيني، وسط أصوات أجنحة الطيور التي بُغتت من قدومي. أحسستُ على الفور أن تسلُّق ذلك الجبل دون التفكير في أي شيء أعطاني راحةً ومواساة. عندما وصلتُ إلى القمة، هبَّت نسمات الليل المنعشة ولفَّت جسمي الغارق في العَرق.

جعلني المنظر الذي ظهر أمامي أشكُّ في عيني. كانت مدينة كيوتو التي أُلغي عنها حظر الإضاءة بعد غياب طويل، مضاءةً في كل الاتجاهات. كان ذلك المنظر معجزةً بالنسبة لي لأنني لم أصعد إلى هنا بعد نهاية الحرب مطلقًا.

كوَّنت الأضواء كتلةً واحدة مجسَّمة. تناثر الضوء هنا وهناك عبر سطح أفقي، دون إعطاء شعور بالقرب أو بالبُعد مكوِّنًا مبنًى معماريًّا شفافًا وعملاقًا مصنوعًا فقط من الضوء، مستغلًّا قرونه المعقَّدة، وفاردًا أجنحة أبراجه، وبدا كما لو أنه يقف مواجهًا ظلام الليل. تلك هي بحقٍّ ما يُطلَق عليها العاصمة. كانت غابة القصر الإمبراطوري هي فقط التي ينقصها الضوء، وتقبع ككهفٍ أسودَ كبير.

وبعيدًا يلمع ضوءُ البرق من وقت لآخر في سماء الليل المظلمة على جوانب جزء من جبل هيزان.

فكرتُ قائلًا: «إن هذا هو العالَم الدنيوي. لقد انتهت الحرب، وانقاد الناس للأفكار الشريرة تحت ظل تلك الأضواء. يتأمَّل الكثير من الرجال والنساء وجوهَ بعضهم البعض تحت تلك الأضواء، ويشمون رائحةَ فِعل يشبه موتًا على وشْك الاقتراب منهم. إن قلبي يجد عزاءً في التفكير أن كل تلك الأضواء الكثيرة، أضواءٌ شريرة. إنني أرجو أن تتكاثر الشرور التي داخل قلبي وتتزايد بلا عدد، وتُطلق لمعانًا يحتفظ بتناظره واحدًا واحدًا مع تلك

الأضواء الكثيفة التي أمام عيني! أرجو أن يتساوى ظلام قلبي الذي يلفُّ ذلك اللمعان، مع ظلام الليل الذي يلفُّ هذه الأضواء الكثيفة!»

لقد زاد عدد زوار المعبد الذهبي زيادةً غير مسبوقة. وقدَّم كبير الرهبان طلبًا إلى بلدية المدينة، لرفع سعر تذكرة دخول المعبد لِتوائم ظاهرة التضخم الاقتصادي، ونجح في ذلك.

لقد كان الوضع حتى ذلك الوقت هو أن عدد مَن يزور المعبد عبارة عن قلةٍ متناثرة ممن يرتدون الزيَّ العسكري وزيَّ العمال والكيمونو الحريمي ذا السروال. ثم في النهاية جاء جيش الاحتلال ووصل الأمر إلى أن تتجمَّع العادات الخليعة للعالم الدنيوي حول المعبد الذهبي. ولكن من جهة أخرى، عادت إلى الحياة مرةً أخرى عادةُ تقديم قرابين الشاي، فارتدَت النساء ملابسهن الفخمة الجميلة التي كن يخفينها في مكانٍ ما، وجئن لزيارة المعبد الذهبي. أحدثت الملابس التي كنا نرتديها نحن الرهبان الذين أصبحنا عُرضة لنظرهن وقتها تباينًا حادًّا وواضحًا معهن، وبدا وكأننا نتقمَّص دورَ الرهبان في نزوة سُكْر. مثل تمسُّك سكان قرية بعاداتهم وتقاليدهم القديمة والغريبة جدًّا، من أجل إسعاد السائحين الذين جاءوا خصوصًا لهذا المكان البعيد لرؤية عاداتهم العجيبة ... وبصفة خاصة كان الجنود الأمريكان، يجذبونني من طرَف ثوبي بلا أي حياء وهم يضحكون، أو يعرضون شيئًا من النقود طالبين إعارتهم زيَّ الرهبان لكي يرتدوه ويأخذوا به صورًا تذكارية. وفي هذه الحالات بديلًا عن الدليل الذي لا يستطيع التحدُّث باللغة الإنجليزية كنتُ أنا، أو تسوروكاوا في بعض الحالات، نقوم بالإرشاد بلغة إنجليزية ركيكة.

أقبل أولُ شتاء بعد انتهاء الحرب. وظلَّت الثلوج تهطل من ليل يوم الجمعة إلى يوم السبت التالي. كنتُ أثناء وجودي في المدرسة وحتى موعد رجوعي بعد الظهر وأنا أتشوَّق لرؤية الثلوج وهي تغطي المعبد الذهبي.

استمر الثلج يهطل إلى ما بعد الظهيرة. وصلتُ إلى ضِفاف بِركة كيوكو من طريق الزوار وأنا كما أنا بالحذاء المطاطي الطويل والحقيبة معلَّقة على كتفي. كانت الثلوج تهطل بسرعة متزايدة. أنا الآن أفتح فمي على آخره في اتجاه السماء كما كنت أفعل كثيرًا وأنا طفل. وبذلك تلمس قِطَع الثلج أسناني مصدرةً صوتًا مثل دقة قلب جرس دقيق، وعندها ينتشر الثلج في كل مكان داخل الفم الساخن، وأشعر أنه يدخل ويخترق ذائبًا على سطح لحمي الأحمر. في ذلك الوقت كنت أتخيَّل فمَ طائر العنقاء الذي على قمة كوكيو. الفم الحار الأملس لذلك الطائر الغامض الذهبي اللون.

تجعلنا الثلوج نشعر بمشاعرَ صبيانية حقًّا. فضلًا عن أنني حتى مع بداية العام الجديد لن أزيد عن الثامنة عشرة من عمري. فهل يصبح كذبًا لو شعرتُ بمشاعرَ صبيانية تُحلِّق في داخلي؟

لم يكن هناك ما يمكن مقارنته بجَمال المعبد الذهبي المغطى بالثلوج. يقف هذا المبنى المعماري المفرغ بجسده العاري المنعش في وسط الثلوج تاركًا نفسه تمامًا لهطول الثلج، جاعلًا الأعمدة الرفيعة تصطفُّ واقفة.

فكَّرتُ في سبب عدم تلعثم الثلوج! إنها أحيانًا ما تتلعثم في هطولها عندما تحتجزها أوراق شجر الأزالية ثم بعد ذلك تسقط فوق الأرض. ولكن عندما تغرقني الثلوج التي تهطل منطلقةً من السماء دون أن يحجبَها شيء، أنسى عُقدة قلبي، وكأنني أغتسل بالموسيقى، وأستعيد إيقاعَ روحي البريئة.

الحقيقة أنه بفضل الثلوج يتحوَّل المعبد الذهبي المتجسِّد في ثلاثة أبعاد إلى ذهبي مسطَّح، أي كمعبد ذهبي في لوحةٍ لا يمكن لشيء أن يتحدَّاه. لا تقدِر الأفرع الذابلة لأشجار القيقب على ضِفتي البِركة، على تحمُّل الثلوج على الأغلب، وتبدو تلك الغابة كأنها أكثرُ عُريًا من الوقت العادي. كانت الثلوج المتراكمة على أشجار الصنوبر هنا وهناك رائعةَ الجَمال. ويتراكم فوق البِركة المتجمدة المزيدُ من الثلوج، وثمَّة أماكنُ لا تتراكم فيها الثلوج بدرجة عجيبة، كانت النقاط البيضاء شبه الدائرية المتناثرة ترسم بجراءةٍ ما يشبه لوحةً زخرفية للسحاب. ترتبط صخرة «التسعة جبال والثمانية بحور» وكذلك جزيرة أواجي مع الثلوج التي فوق البِركة المتجمدة، وبدت أشجار الصنوبر الصغيرة التي تنمو هناك، وكأنها وقفت فجأةً في منتصف السهول بين الجليد والثلوج.

غير الأجزاء البيضاء الثلاثة المحدَّدة بوضوح، وهي سطحا قمة كوكيوتشو وطابق تشوندو وإضافة لهما السطح الصغير للسوسيه، على العكس يُبرِز الإطار الخشبي المظلم لونًا أسودَ حيًّا في وسط الثلوج، ومثلما نشكُّ فجأةً عندما نرى لوحةً على الطراز الجنوبي لبرجٍ عالٍ في أعماق الجبال، أنَّ أحدًا ما يسكنه فنقرِّب وجهنا من سطح اللوحة لنختلس النظَر، كذلك من خلال جاذبية لون تلك الأخشاب القديمة الأسود، يعطيني المعبد الذهبي الذي لا يسكنه أحد، إحساسًا بالرغبة في النظر. ولكن حتى لو قرَّبتُ وجهي فهو على الأرجح سيصطدم فقط بسطح لوحة الثلوج الحريرية الباردة، ولن يستطيع الاقترابَ أكثر من ذلك.

اليوم أيضًا تُركت بوابة قمة كوكيوتشو مفتوحة على مصراعيها تجاه السماء المليئة بالثلوج. وكان قلبي الذي ينظر عاليًا إليها، يفحص بدقة قِطعَ الثلوج الهاطلة تدور في

فراغ اللاشيء حول قمة كوكيوتشو، وأخيرًا تقف على القشرة الذهبية الصدئة القديمة على سطح الجدران، وتلفظ أنفاسها الأخيرة، حتى تصل إلى ربط الندى الصغير باللون الوردي.

... في صباح يوم الأحد التالي جاء الدليل العجوز ليستدعيني.

فقد جاء جنديٌّ أجنبي للزيارة قبل موعد فتح المعبد. الدليل العجوز أشار له بيده لكي ينتظرَ وجاء ليستدعيني أنا الذي «أستطيع التحدُّث باللغة الإنجليزية». العجيب أنني كنت أتقن الإنجليزية أكثرَ من تسوروكاوا، وأنني لم أكن أتلعثم عند الحديث بها.

كانت تقف عربةُ «جيب» أمام بوابة المعبد. ويضع جندي أمريكي سكران يدَه على عمود البوابة، ونظر إليَّ من علٍ ثم ضحك باحتقار.

كانت الحديقة الأمامية تبرُق في طقس جليدي مشمس. كان الشاب الذي أعطى ظهره لتلك الحديقة البرَّاقة، ذا جسد مشدود قد تخلَّص من الدهون، وكان ينفث في وجهي رائحةَ ويسكي مع أنفاسه البيضاء. كما يحدث عادةً أُصبت بالقلق من تخيُّل المشاعر التي تعتمل داخل إنسان به كلُّ هذا الاختلاف في الحجم معي.

ولأنني كنت أحرص على عدم الاعتراض على أي شيء، قلت إنه حتى لو قبِل الموعد فسأقوم بالإرشاد له، وطلبت منه دفْع قيمة تذاكر الدخول وقيمة الإرشاد. دفع السكران الضخم ذلك بهدوء وتعقُّل. ثم بعد ذلك اختلس النظر داخل عربة «الجيب» وقال ما معناه: «هيا اخرجي!»

كان انعكاس الثلوج براقًا للعين فكنتُ حتى ذلك الحين لا أستطيع رؤيةَ ما في داخل عربة «الجيب». تحرَّك شيءٌ ما أبيضُ داخل النور الذي يدخل من الغطاء المنزلق لسقف الجيب. أحسستُ بتحركِ شيءٍ ما يشبه أرنبًا.

ظهرت فوق حافة عربة «الجيب» العليا قدمٌ تنتعل كعبًا عاليًا رفيعًا. اندهشتُ لأنها في وسط هذا الجو البارد كانت لا تلبس جوربًا. كانت فتاة ترتدي معطفًا بلون قرمزي فاقع الحمرة، وتعرف من أول نظرة أنها عاهرة ممن يرافقن الأجانب، وكانت تصبغ أظافر قدميها وكذلك أظافر يديها بنفس اللون القرمزي. عندما انفتحت أطراف المعطف، بانت منامتها المصنوعة من قماش المناشف المتسخة. كانت الفتاة في غاية السُّكر وعيناها متحجرتين. وعلى ما يبدو أنه رغم أن الرجل كان يرتدي الزيَّ العسكري بصرامة، إلا أن الفتاة التي فاقت لتوها من النوم، ارتدت المعطف فوق منامتها وخرجت.

بدا وجه الفتاة الذي انعكس عليه الجليد، شاحبًا أزرقَ بدرجة مزرية. وبرز على بشَرتها التي انعدم فيها جريان الدم تقريبًا، لونُ أحمر الشفاه بروزًا غير عضوي. عطست

الفتاة بعد أن نزلت من العربة مباشرةً، وقد قربت تجاعيد صغيرة جارية رفيعة من أرنبة أنفها الدقيقة، وعيناها المرهقتان من السُّكر نظرتا بعيدًا للحظة، ثم غرقتا مرةً ثانية في أعماقٍ سحيقة. نادت على اسم الرجل «جاك»، ناطقة إياه جاااك! ثم قالت:

«جاااك! تو كولد! تو كولد!»

انساب صوت الفتاة بكآبة فوق الجليد. لم يُجِبها الرجل.

لأول مرة في حياتي أشعر بجَمال عاهرة من تلك النوعية. ولم يكن ذلك بسبب أنها تشبه يويكو. كانت وكأنها لوحة «بورتريه» رُسمت بتذوُّق وتمعُّن مع الحرص على ألا تشبه يويكو في أي شيء. ومن هذه الناحية كانت تلك اللوحة التي نتجت مقاومة لذاكرة يويكو، تمتلئ على العكس بجَمال جديد وطازج. أعني أن اللوحة كانت تتملق مقاومةَ الشهوة الجسدية التي نشأت بعد ذلك تجاه الجَمال الذي أحسستُ به لأول مرة في حياتي.

ولكن كانت نقطة واحدة تشترك فيها مع يويكو. ألا وهي أن تلك الفتاة لم تلقِ ولو نظرةً عابرة إليَّ أنا الذي أرتدي زي الرهبان، مع معطف متسخ وحذاء طويل.

في الصباح الباكر من ذلك اليوم استطعنا بصعوبة بالغة إزالةَ الثلوج من طرقات الزيارة بعد أن اشترك في ذلك كلُّ مَن في المعبد. تم فتحُ ممرات يمكن السيرُ فيها لصف فردي من الزوار في حالة الزيارات الفردية العادية، وإذا جاءت مجموعات سياحية فربما تحدُث مشكلة. مشيتُ في مقدمة الجندي الأمريكي والفتاة.

عندما جئنا إلى البِركة وانفتح أمام عيني الجندي الأمريكي المنظرُ الواسع، من الفرح فتح ذراعيه ورفع عقيرته صائحًا بكلامٍ لا أفهمه. ثم أخذ يهز جسد الفتاة بعنف ووحشية. عقدت الفتاة حاجبيها، ولكنها لم تَزِد عن ترديد كلمة: «أوه، جاااك. تو كولد!»

سألني الجندي الأمريكي عن ثمار شجرة الأوكوبة الحمراء اللامعة التي بانت في ظل الأوراق التي مالت من ثقل الثلوج المتراكمة، ولكني لم أستطِع إلا الإجابة بقول «أوكوبة». ربما يكون ذلك الجندي الأمريكي شاعرًا غنائيًّا — وهو ما لا يتناسب مع جسده العملاق — إلا أن عينيه الزرقاوين الصافيتين كانتا تعطيان إحساسًا بالقسوة. ثمَّة أغنية من أغاني «الإوزة الأم» التعليمية الغربية، تقول إن العيون السوداء شريرة وقاسية، تُرى هل الوضع الطبيعي أن الإنسان عندما يتخيَّل القسوة فهو يَقصُرها على شيء أجنبي وغريب عنه؟

قمتُ بشرح المعبد الذهبي لهما شرحًا عاديًّا. خلع الجندي الذي كان في حالة سُكر بيِّن، حذاءه وهو يترنح ثم ألقى كلَّ فردة في جهة. قمتُ بيدٍ تخدَّرت من البرد بإخراج ورقةِ شرحٍ مكتوبة باللغة الإنجليزية يجب قراءتها في مثل هذه الحالات. ولكن الجندي الأمريكي

مدَّ يده من جانبي وخطف مني تلك الورقة، وبدأ يقرؤها بطريقة هزلية، ولذا لم تكن هناك حاجة مني إلى إعلامه بما فيها.

استندتُ بظهري إلى درابزين مبنى هوسوين ونظرتُ متأملًا سطح البِركة التي تتألق من انعكاسات الضوء المبهر. لم يسبق أن انعكس الضوء داخل المعبد الذهبي بهذه الدرجة المسبِّبة للقلق.

دون أن أنتبه كان شجارٌ قد نشأ بين الرجل والفتاة اللذين ذهبا ناحيةَ مبنى هوسوين. واحتدَّ العراك بينهما تدريجيًّا، ولكني لم أستطِع سماع كلمة واحدة منهما. كانت الفتاة تردُّ بعنف ولكني لم أستطِع تحديدَ هل هي تتحدث باللغة الإنجليزية أم اليابانية. وكان الاثنان قد نسيا أثناء عراكهما وجودي ثم عادا إلى ناحية هوسوين.

لطمت الفتاة بكل قوَّتها وجهَ الجندي الأمريكي، الذي كان مندفعًا نحوها ويسبُّها بعنف. ثم لفَّت جسمها للخلف وهربت من أمامه وأسرعت تجري بكعبها العالي في ممر الزيارة متجهةً إلى البوابة.

لم أفهم أنا أيَّ شيء، فأسرعت بالعودة من المعبد الذهبي إلى ضفاف البِركة. ولكن عندما لحقتُ بالفتاة كان الجندي صاحب الأقدام الطويلة قد لحِق بها، فأمسك بتلابيب معطفها القرمزي.

نظر الجندي الشاب وهو ممسكٌ بها نظرةً سريعة ناحيتي. ثم أرخى قليلًا من قبضته على صدر الفتاة ذي اللون الخافت. يبدو أن القوة التي كانت كامنة في تلك اليد القابضة عليها، لم تكن عادية. فوقعت الفتاة فوق الجليد على ظهرها مثل تمثال. وانفرج طرفا معطفها القرمزي وامتدَّت فوق الجليد الأبيض بشَرة فخذها البيضاء.

لم تحاول الفتاة النهوضَ من رقدتِها. بل ظلت تنظر بشررٍ تجاه عين الرجل العالية التي تكاد تبلغ السحاب. اضطررتُ إلى الجثو على الأرض محاولًا مساعدةَ الفتاة على أن تنهض.

صرخ الجندي الأمريكي قائلًا: «أنت!» نظرت للخلف. فكانت هيئته وهو يتمركز واقفًا مبعِدًا ما بين قدميه أمام عيني مباشرة. كان يعطيني إشارةً بأصبعه. قال بنبرة متغيرة مليئة بالدفء والرطوبة ما يلي باللغة الإنجليزية:

«دُس عليها هيَّا! حاوِل أن تدوسَها!»

لم أفهم ماذا يقصد. ولكن كانت عيونه الزرقاء تأمر من مكانٍ عالٍ. وخلف منكبيه العريضين، كان المعبد الذهبي متألقًا بقمَّته الثلجية، وكانت سماء الشتاء الزرقاء صافية

وكأنها غُسلت. ولم تكن عيناه الزرقاوان بهما أيُّ قسوة. لماذا أحسستُ لحظتَها يا تُرى أنها شاعرية؟

هبطت يداه عليَّ وأمسكت بياقة ملابسي فأوقفتني. ولكن كانت نبرة صوته الآمرة كما هي دافئة وحنونة.

«دُس! أقول لك دوسها!»

كان من الصعب عليَّ مقاومته، فرفعتُ حذائي الطويل عاليًا. خبط الجندي الأمريكي على كتفي، فنزلت قدمي، داست قدمي على شيءٍ ليِّن يشبه طمي الربيع، كان ذلك بطن الفتاة. أغمضَت الفتاة عينيها وتأوَّهت.

«دُس! دُس أكثر!»

دوستُ أكثر. تحوَّل الشعور الغريب الذي أحسستُ به في المرة الأولى، إلى فرحة مندفعة في المرة الثانية. أثناء دوسي عليها كنتُ أفكر هذا بطن الفتاة ... هذا صدر الفتاة. كان خارج نطاق خيالي أن جسدَ إنسان آخر يستجيب بتلك المرونة الصادقة مثل الكرة.

«يكفي هذا!»

قال الجندي الأمريكي ذلك بوضوح. ثم بأدبٍ عالٍ حضن جسد الفتاة لكي تنهض، ودفع عنها الطين والثلج، ثم بعد ذلك دون أن ينظر نحوي، سار أمامي وهو يسند جسد الفتاة. كانت الفتاة حتى النهاية تتلافى النظرَ إلى وجهي.

بعد أن وصلنا إلى مكان وجود «الجيب»، وأركب الجندي الأمريكي الفتاة أولًا، قال لي بوجهٍ صارم بعد أن فاق من السُّكر: «شكرًا لك!» وحاول أن يعطيني مالًا ولكني رفضت. فقام بأخذ لفَّتي سجائر أمريكية من فوق مقعد السيارة ودفعهما بين ذراعي.

وقفتُ أنا وسط انعكاس الجليد أمام المدخل وقد احمرَّ خديَّ. أثارت عربة الجيب عاصفةً من الجليد وراءها وابتعدت وهي تهتز في حذر. ثم أخيرًا اختفت العربة الجيب عن مرمى البصر، ولكن لم تبرح الإثارة جسدي.

... وعندما هدأتْ إثارتي أخيرًا، لاحت على ذهني خطة نفاق مفرح يا تُرى إلى أي درجة سيُسر كبير الرهبان المحب للسجائر بأخذ هذه الهدية؟ جاهلًا بكل شيء!

لم تكن هناك ضرورة للاعتراف بكل التفاصيل. فلقد فعلتُ ذلك مجبرًا وبالأمر المباشر. ولا أعلم ما الذي كان يمكن أن يلحقَ بي من أذًى إذا رفضتُ أو قاومتُ.

ذهبتُ إلى غرفة كبير الرهبان في مبنى المكتبة الكبرى. كان نائبه البارع في تلك الأشياء يحلِق له رأسه. انتظرتُ عند مقدمة الحافة التي امتلأت بأشعة شمس الصباح.

كان الصنوبر الذي يأخذ شكل تنين وسفينة، يجعل الجليدَ المتراكم يتألق لامعًا براقًا؛ لذا بدا وكأنه قلوع مثنية جديدة تمامًا.

كان كبير الرهبان أثناء حلاقة رأسه، مغمضًا عينيه يرفع بكلتا يديه الورقةَ التي تستقبل الشَّعر الساقط. مع الاستمرار في الحلاقة كان رأسه يظهر بوضوح ظلاله الحيوانية الوحشية البوهيمية. بعد أن انتهت الحلاقة غطَّى النائبُ رأسَ كبير الرهبان الحليق بمنشفة دافئة. بعد فترة أزالها. ومن تحتها ظهر رأس ساخن كأنه مسلوق وكأنه رأس وليد وُلد للتو.

أخيرًا تكلمتُ ببضع كلمات، ثم قدَّمت لفَّتي سجائر تشسترفيلد، ثم انحنيت حتى لمس رأسي الأرضَ.

«أوه. أقدِّر لك تعبك.»

قال كبير الرهبان ذلك وهو يُبرز ابتسامة سريعة كأنه يضحك خارج نطاق وجهه. كان ذلك كلَّ ما هنالك. في حركة وظيفية تمامًا، وضع كبير الرهبان بيده لفَّتي السجائر بعشوائية فوق أكوام من الخطابات والأوراق المتعلقة بالعمل التي فوق مكتبه.

ولأن النائب بدأ في تدليك كتفيه أغمض كبيرُ الرهبان عينيه ثانية.

كان يجب عليَّ الانصراف. جعل عدم الرضا جسدي يمتلئ بالحرارة. الفعل الشرير غير المفهوم الذي قمتُ به، السجائر التي تسلمتُها مكافأةً لي على ذلك، كبير الرهبان الذي أخذها دون أن يعرف ما حدث ... في علاقة تلك الأحداث المتسلسلة ببعضها، يجب أن يكون هناك شيء أكثر دراماتيكيةً، وأكثر عنفًا. إن عدم معرفة شخص في مكانة كبير الرهبان بذلك، أصبح ذلك سببًا ضخمًا مرةً أخرى لجعلي أحتقر كبيرَ الرهبان أكثرَ وأكثر.

ولكن عندما كنتُ على وشْك التقهقر مغادرًا أوقفني كبير الرهبان. فقد كان وقتها على وشْك أن يمنحني بركتَه.

قال كبير الرهبان:

«أنوي إرسالك إلى جامعة أوتاني بعد تخرُّجك مباشرة. لا بد أن والدك المتوفَّ قلِقٌ في قبره عليك؛ لذا يجب عليك الاستذكار جيدًا ودخول الجامعة بمستوًى متميز من النتائج.»

... انتشر هذا الخبر بين ربوع المعبد من خلال فم نائب كبير الرهبان. قائلًا إنَّ عرْض استكمال الدراسة الجامعية من فم كبير الرهبان شخصيًّا هو البرهان الأكيد على رغبته في انضمامي لرهبان المعبد. تكثُر الحكايات التي تشير إلى أنَّ مَن كان يريد الذهاب إلى الجامعة من تلاميذ الرهبنة في الماضي، وجب عليه التردُّد على غرفة كبير الرهبان مدة مائة

ليلة ليدلِّك كتفه، وفي النهاية يتحقَّق له مُناه. خبط تسوروكاوا، الذي تقرَّر أن يذهب هو أيضًا إلى جامعة أوتاني بأموال عائلته، على كتفي سعيدًا. ولكن انقطع الشخص الثالث الذي لم تأتِه أيُّ أخبار من كبير الرهبان، بعد ذلك عن الكلام معي نهائيًّا.

الفصل الرابع

على الأرجح كان الأمر يبدو للآخرين أنني دخلت القسم التأهيلي لجامعة أوتاني في ربيع عام ١٩٤٧، ممتلئًا بالحيوية والزهو ومحاطًا بغَيرة أقراني وحب ورعاية كبير الرهبان. ولكن كانت ظروف دخول الجامعة تلك مؤلمةً حتى عند مجرد تذكُّرها.

بعد مرور أسبوع من سماح كبير الرهبان لي باستكمال دراستي الجامعية في ذلك الصباح ذي الجليد الكثيف، عند عودتي من المدرسة، أخذ زميلي الذي لم يُسمح له بدخول الجامعة، ينظر إليَّ بسرور كبير. وقد كان ذلك الشاب حتى ذلك الوقت لا يكلمني.

لم يختلف سلوك رهبان المعبد وسلوك نائب كبير الرهبان عن الوضع العادي. ولكن بدا عليهم أنهم يتصنَّعون في الظاهر فقط أن الوضع طبيعي.

في تلك الليلة ذهبتُ إلى غرفة تسوروكاوا، وشكوت له أن سلوك رهبان المعبد غير طبيعي. تسوروكاوا في البداية عوجَ عنقَه وتعجَّب مثلي من الأمر، ولكن تسوروكاوا الذي لا يستطيع تصنُّع المشاعر أخيرًا نظر إليَّ بوجهٍ به إحساس بالذنب وقال:

«لقد سمِعتُ مِن ذلك الشخص.»

ثم ذكر اسم الزميل الآخر وأكمل:

«سمعتُ منه نقلًا عن آخرين، فهو أيضًا كان في المدرسة، ولم يكن يعرف ... على أي حال، فأثناء غيابك حدث أمرٌ غريب.»

اضطرب قلبي بعنف. وسألته عن الأمر. فجعلني تسوروكاوا أقسم يمينًا بألا أبوح بالسِّر، وحكى لي وهو يراقب ملامح وجهي.

في ظهيرة ذلك اليوم، زارت المعبدَ عاهرةٌ تعمل للأجانب ترتدي معطفًا بلون قرمزي، وطلبَت لقاء كبير الرهبان. خرج نائبه لمقابلتها عند مدخل المعبد. شتمَت الفتاة النائبَ بأقذع الألفاظ، وقالت له إنها تريد مقابلة كبير الرهبان بأي طريقة كانت. ولسوء الحظ

كان كبير الرهبان يعبُر الممر صدفة، ولاحظ الفتاة فخرج إليها عند المدخل. وعلى حد قول الفتاة إنها كانت في زيارة المعبد الذهبي مع جندي أجنبي في صباح جليدي مشمس منذ حوالي أسبوع، وقتها ظل أحدُ صغار الرهبان، مداهنةً للجندي الأجنبي، يدوسُ على بطن الفتاة التي أطاح بها الجندي الأجنبي أرضًا. وفي تلك الليلة أسقطت الفتاة جنينها. وهي تريد بعضَ المال تعويضًا لها عن ذلك. وقالت إنها إذا لم تُعطَ المال، فستنشر على الملأ أفعالَ المعبد الذهبي الخبيثة تلك.

سكتَ كبير الرهبان وأعطى الفتاةَ المال الذي طلبته وجعلها ترحل. كان معروفًا أن المرشد في ذلك اليوم هو أنا ولا أحدَ سواي، ولكن لا شهود على فعلي المشين؛ لذا أصدر كبير الرهبان أوامره بعدم إخباري بما حدث. وأنهى كبير الرهبان الموضوع دون تحقيق.

لكن سأل أهل المعبد بشكل أو بآخر نائبَ كبير الرهبان عن الأمر، فلم يشكُّوا أنني صاحب تلك الفَعلة الشنيعة. أمسك تسوروكاوا يدي وهو تقريبًا يبكي. تأمَّلتني مقلتاه الصافيتان لحد الشفافية وقال لي بصوتٍ صافٍ ورائقٍ يناسب فتًى صغيرًا مثلَه:

«هل حقًّا فعلتَ ذلك؟»

... واجهتُ مباشرةً مشاعري المظلمة والكئيبة. من خلال ملاحقة تسوروكاوا لي بهذا السؤال، جعلني أواجهها.

لماذا يسألني تسوروكاوا عن هذا الأمر. هل هو بسبب الصداقة؟ هل هو يعرف أنه خلال سؤاله لي هكذا، سيُضطر هو شخصيًّا أن يتخلى عن دوره الحقيقي؟ هل هو يدري أنه من خلال سؤاله هذا خانني في أعمق أعماقي؟

من المفترض أنني قلتُ مرارًا، إن تسوروكاوا هو «البوزيتيف» لصورتي ... لو كان تسوروكاوا مخلصًا في دوره هذا، كان يجب عليه أن يترجمَ مشاعري المظلمة تلك كما هي بنفس صورتها إلى مشاعرَ مشرقة دون أن يلاحقني ودون أن يسألني عن أي شيء. في ذلك الوقت من المفترض أن الكذب يصبح صدقًا، والصدق يصير كذبًا. إذا نظرنا إلى طريقة تسوروكاوا تلك التي يتميَّز هو بها، في ترجمة كل الظلال إلى مكان مشمس، وكل الليل إلى نهار، وكل أضواء القمر إلى أضواء شمسية، وكل رطوبة فطر الليل إلى حفيف أوراق نهار شابة لامعة، عند النظر إلى طريقته تلك، لربما قمتُ أمامه بطقس «الاعتراف» وحكيت له وأنا أتلعثم كلَّ شيء. ولكن في ذلك الوقت بالذات، لم يفعل تسوروكاوا ذلك. وعندها نالت مشاعري ذاتُ الظلام الأسود قوةً وعزيمة.

ضحِكت ضحكةً مبهمة. كانت ليلة من ليالي المعبد الحالكة التي ليس فيها أي أثر لنور. ركبةٌ باردة. يرتفع بثبات عددٌ من الأعمدة العتيقة الغليظة وتحيط بنا نحن الذين نتكلم في سرية.

على الأرجح رعشةُ جسمي بسبب البرد. ولكن المتعة التي حصلت عليها بسبب كذبي لأول مرة كذبًا علنيًّا على هذا الصديق كانت تكفي لكي تجعل ركبةَ بيجامتي ترتجف.

«لم أفعل شيئًا.»

«حقًّا؟ حسنًا، فهذه الفتاة جاءت لتكذب علينا. اللعنة عليها. كيف لنائب كبير الرهبان نفسِه أن يصدِّق كلامها؟»

ارتفع تدريجيًّا حسُّ العدالة لديه، ووصل الأمر لأن يقول في سَورة غضب إنه في الصباح الباكر سوف يشرح الأمر نيابةً عني لكبير الرهبان ويفهمه أصلَ الحكاية. في ذلك الوقت ظهر بلا وعي في مخيِّلتي رأسُ كبير الرهبان المحلوق تمامًا الذي يشبه الخضار المسلوق. ثم بعد ذلك ظهرت خدوده المستسلمة الوردية اللون. في تلك الصورة التي تخيَّلتها، شعرتُ فجأةً ولا أدري سببًا لذلك بكراهيةٍ وحقد عظيمين. كانت ثمَّة ضرورة لكي أدفن شعورَ العدالة لدى تسوروكاوا ذلك في باطن الأرض بيديَّ قبل أن ينبُت كالندى.

«ولكن هل تعتقد أن كبير الرهبان قد صدَّق فعلًا أنني فعلتُ ذلك؟»

على الفور ارتبكتْ أفكار تسوروكاوا فقال:

«لا أدري.»

«مهما سمِعتُ أن الآخرين يغتابونني من وراء ظهري، فإذا كان كبير الرهبان فقط صامتًا ولا يقول شيئًا فهذا يدعو إلى الاطمئنان. أنا شخصيًّا أرى ذلك.»

ثم بعد ذلك أقنعتُ تسوروكاوا أن شرحه الأمر لكبيرِ الرهبان على العكس لن يكون ذا جدوى، بل ربما يعمِّق ارتياب الجميع تجاهي. وقلتُ له إن كبير الرهبان فقط متأكد من براءتي ولهذا السبب بالذات أنهى الموضوع دون تحقيق. وأثناء قولي ذلك برزت في قلبي بوادرُ الفرحة، وتدريجيًّا مدَّت الفرحة جذورها الراسخة إلى الأعماق. فرحة أنه «ليس هناك مَن عاين، وليس هناك شهود.»

حسنًا، لم أكن بالطبع أُومن أن كبير الرهبان فقط يؤمن ببراءتي. بل على العكس من ذلك. فإنهاء الراهب لكل شيء دون أن يسأل، يدلُّ على تأكده من أنني المذنِب.

وربما كان كبير الرهبان قد عرف الأمر بالفعل، عندما أخذ من يدي لفَّتي السجائر ماركة تشسترفيلد. وربما يعني إنهاء الأمر دون أسئلة، أنه ينتظر بعيدًا في صمت، اللحظةَ

التي أقوم فيها بالاعتراف اعترافًا طوعيًّا من تلقاء نفسي. ليس هذا فقط. فهو قد أعطاني طُعم الدراسة في الجامعة، في مقابل أن أعترف، وإذا لم أعترف، يقوم بإيقاف الدراسة في الجامعة بسبب تلك الفَعلة الشنيعة مني، وإذا قمتُ بالاعتراف، يقوم بتدقيق لحظة التوبة، ويسمح لي باستكمال الدراسة في الجامعة جاعلًا الأمر يظهر في هيئة الجميل والنعمة التي منحني إياها. وكان الفخُّ الأكبر بعد ذلك، هو أنه أمر نائبه بعدم إبلاغي بما حدث. فإذا كنتُ بريئًا حقًّا، لا أحسُّ بأي شيء هكذا، وأقضي أيامي هنا يومًا بعد يوم دون أن أعرف أيَّ شيء. وعلى الجانب الآخر إذا كنتُ قد فعلت تلك الفَعلة، ثم إذا كان لديَّ بعضٌ من حكمة، فالأيام التي أقضيها أنا بريء القلب في صمت طاهر، أي تلك الأيام التي لا ضرورة للقيام بالاعتراف فيها، أستطيع أن أعمل محاكاةً كاملة لها. حسنًا، من الأفضل أن أقوم بالمحاكاة. تلك هي أفضل طريقة، وتلك هي السبيل الوحيدة التي أستطيع بها إبراءَ ذمتي. وهي الطريق التي يقودني كبير الرهبان خفيةً لها. وأنا حاليًّا وقعتُ في ذلك الفخ ... وعندما وصلتُ بتفكيري إلى ذلك، أحسستُ بالغضب.

بالنسبة لي، ليس الأمر أنني أَعْدم وسيلةَ الدفاع عن نفسي. فلو لم أدُس على الفتاة، لكان الجندي الأجنبي قد أخرج مسدسه، وربما هدَّد حياتي. ولا أستطيع أنا أن أعارض جيش الاحتلال. فلقد فعلتُ كلَّ ما فعلتُ مرغمًا وتحت الإجبار.

ولكن بطن الفتاة الذي شعرتُ به في باطن حذائي المطاط الطويل، تلك القوة المرنة المتزلفة، وتلك الصرخات، ذلك الإحساس بانفتاح وردَّة اللحم المدهوس، تترنح أحاسيس معينة، الشيء الذي يشبه البرق المبهم الذي جاء من داخل جسد الفتاة وقتها واخترق جسدي ... حتى وقتها لا أستطيع القول إنني قد أُجبرت على التذوق. وأنا الآن أيضًا، لم أنسَ تلك اللحظة الحلوة الممتعة.

كان كبير الرهبان يعرف لبَّ ما شعرتُ به، لبَّ تلك الحلاوة الممتعة!

على مدى عام كامل بعد ذلك، أصبحتُ مثل العصفور المقبوض عليه في قفص ... القفص كان يبدو أمام عيني بلا انقطاع. ومع تصميمي على عدم الاعتراف، أصبحت أيامي بلا راحة أو أمان.

وحدث أمرٌ عجيب. بدأ يتألق تدريجيًّا داخل ذاكرتي، ذلك الفعل الذي لم أحسَّ وأنا أفعله بأنه إثم أو جريمة بأي حال، الفعل الذي دهستُ فيه الفتاة بقدمي. ولم يكن ذلك بسبب أنني عرفتُ فيما بعدُ أن الفتاة قد أسقطت جنينها. كان ذلك الفعل مثل رمال ذهبية ترسَّبت في أعماق ذاكرتي، وتصدر لمعةٌ متألقة تصيب العين على الدوام. إنه كذلك فعلًا. في

غفلة من الزمن نبع داخلي إحساس أنني أعي بوضوح أنني ارتكبتُ إثمًا، مهما كان ذلك الإثم صغيرًا وضئيلًا. علَّقتُ ذلك الإحساس على صدري من الداخل مثل النيشان.

... حسنًا، كمشكلة واقعية، لم يكن أمامي وأنا أحاول تخمينَ نية كبير الرهبان، إلا الوقوع في حيرة تامة، أثناء انتظار موعد امتحان القبول بجامعة أوتاني. لم يقُل كبير الرهبان ولو مرةً واحدة إنه سيخلف وعدَه الشفوي لي باستكمال دراستي الجامعية. ولكنه كذلك أيضًا، لم يطلب مني الإسراع في الاستعداد لامتحان القبول. وعلى كلا الحالتين، كنتُ أنتظر في لهفةٍ أيَّ كلمة من كبير الرهبان. ولكن كبير الرهبان نكايةً فيَّ حافظَ على صمته، وبالغ في تعذيبي وقتًا طويلًا. وكنتُ أنا كذلك، لا أستطيع الاستفسارَ منه ولو مرةً واحدة بشأن استكمال دراستي الجامعية، ربما بسبب الخوف وربما بسبب العِصيان. وكان منظر كبير الرهبان الذي كنت أتأمَّله بعين النقد بعد أن تخليتُ عن التبجيل والاحترام العاديَّين اللذين كنت أبديهما له، أصبح تدريجيًّا يحمل حجمًا وحشيًّا عملاقًا، وأصبحتُ لا أستطيع رؤيته كوجود يحمل قلبًا إنسانيًّا. كم كان عدد تلك المرات، التي أحاول فيها تنحيةَ ذلك الوجود ولكنه، كان موجودًا هناك، ومتربصًا كأنه في قلعة وحوش.

كان ذلك في أواخر الخريف. دُعي كبير الرهبان إلى جنازة أحد قدامى أتباع المعبد. وكان ذلك في أرضٍ تبعُد ساعتين بالقطار، فأبلغ كبير الرهبان الجميعَ قبلها بليلة أنه سيرحل في الساعة الخامسة والنصف صباحًا. وكان نائبه أيضًا سيذهب معه. وكان يجب علينا نحن أيضًا الاستيقاظُ في الساعة الرابعة صباحًا للقيام بتنظيف المعبد وإعداد الطعام لكي نستطيع اللحاقَ بوداع كبير الرهبان وهو يخرج من باب المعبد.

أثناء قيام نائب كبير الرهبان برعايته، كنا نحن نتلو صلواتِ الصباح من السوترا ونحن شبه نائمين.

تردَّد صدى أصوات قرقعة المغارف بلا توقُّف من المطبخ المظلم والبارد. كان رجال المعبد يتعجَّلون في غسل وجوههم. ويُسمع صياح الدِّيكة الصافي الأبيض في الحديقة الخلفية للمعبد مخترقًا ظلامَ الفجر في أواخر الخريف. وحَّدْنا زيَّ الرهبان الذي نرتديه، وأسرعنا إلى قاعة بوذا في مبنى الزوار.

ثمَّة غرفة واسعة لا ينام فيها أحد، وكان حصير التاتامي الواسع له ملمسٌ يجعلنا ننتفض في وسط الهواء البارد قبل شروق الشمس. وكان لهب المصباح يترنَّح. قمنا بالصلاة ثلاثة. نقف ثم نسجد، ثم نجلس مع صوت الجرس ثم نسجد ثانية. كرَّرنا ذلك ثلاث مرات.

كانت عادتي أثناء فرض قراءة كتب السوترا في الصباح، الشعور دائمًا بالحيوية في صوت الرهبان الرجالي. تكون قراءة السوترا الصباحية هي الأقوى من كل قراءات

اليوم، وكأن الأحبال الصوتية أثناء تلك القراءة القوية تنفث رذاذًا أسودَ، يبعثر أفكارَ الليل الشريرة. لا أعلم شيئًا عن صوتي أنا. ولكن اعتقادي أنه حتى صوتي أنا الذي لا أعلم قوَّته، ينثر بعيدًا الأفكار الرجولية القذرة مثل الآخرين، كان يعطيني شجاعةً بدرجة عجيبة.

كان وقت رحيل كبير الرهبان قد أزِف قبل أن نشرب حساء الأرز الصباحي. كانت طريقة الوداع هي أن كل رجال المعبد يقفون أمام مدخل المعبد في صف منتظم.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعدُ. وكانت السماء ممتلئة بالنجوم. ويعكس البلاط الحجري الممتد حتى مدخل الجبل، أضواء النجوم في الصباح الباكر، ولكن ظلال شجر السنديان العملاقة وأشجار البرقوق والصنوبر تنتشر في كل مكان، تذوب الظلال في الظلال وتحتل الأرض. أحسستُ بنسيم الفجر البارد يدخل مرفقي من فتحات السترة الصوفية التي أرتديها.

تم كل شيء دون كلمات. أحنينا رءوسنا في صمت، ولم يردَّ كبير الرهبان بأي حركة. ثم أخذتْ أصوات قبقابَي كبير الرهبان ونائبه تبتعد عنا مطلقة صوتًا عند ارتطامها ببلاط الطريق الحجري. ومن الأدب في طائفة الزِّن أن يتم وداعهما حتى يختفيا تمامًا عن النظر.

من بعيد لا يُرى ظهراهما رؤيةً كاملة تمامًا. بل الذي يُرى فقط هو طرَف رداء الرهبان الأبيض والجوارب البيضاء. وأحيانًا ما يُعتقد أنهما لا يمكن رؤيتهما مطلقًا، ولكن يكون ذلك لأنهما مختفيان فقط خلف ظلال الأشجار. ومن الناحية الأخرى من الظل يظهر مجددًا الطرَف الأبيض والجوارب البيضاء، وعلى العكس كان يبدو أن صدى أصوات القبقابين يرتفع أكثر.

كنا نودِّعهما ونحن متجمدون. كان الوقت الذي ودَّعناهما فيه منذ خروجهما من بوابة المعبد الرئيسة وحتى اختفائهما تمامًا عن الأنظار، طويلًا جدًّا.

ووقتها تولدتْ داخلي رغبة شاذة وغريبة. مثلما يحدُث أن أتكلم بشيء هام ويعوقني تلعثم النطق، تلك الرغبة كانت تلتهب في قاع حنجرتي. كنت أريد التحرُّر والانطلاق. لم تكن لديَّ تلك الرغبة الغبية التي اقترحتها عليَّ أمي سابقًا، أن أستهدف تولي منصب كبير الرهبان بعدَه، ولا حتى رغبة استكمال دراستي الجامعية. كنت أريد الهروبَ من الشيء الذي يقيدني بصمت ويسيطر علي. لا أستطيع القول إنه وقتها كانت تنقصني الشجاعة، ما من شيء يسمَّى شجاعة المعترف! لقد عشتُ زمنًا يبلغ عشرين عامًا ملتزمًا الصمت، ولم أجد قيمةً للاعتراف. هل يمكن القول إنني أبالغ؟ أنا الذي وصلتُ إلى هذه النقطة دون اعتراف، في تحدٍّ لصمت كبير الرهبان، أعتقد أنني كنتُ أختبر شيئًا، إلا واحدًا وهو مقولة

«هل الشر مستطاع؟» إذا لم أقُم بطقس الاعتراف حتى النهاية، فسيكون الشر قد أصبح بالفعل ممكنًا، حتى ولو كان شرًّا ضئيلًا للغاية.

هكذا أصبحتِ القوة الملتهبة التي في عمق حلقي، قوةً من الصعب السيطرة عليها، مع رؤيتي لطرَف ثوب كبير الرهبان وخفِّه الأبيضين، يظهران ثم يختفيان في ظلال الأشجار المنتصبة، ويبتعدان داخلَ ظلام الفجر. فكرتُ في البوح بكل شيء. فكرتُ أنني أريد أن ألحق بكبير الرهبان، وأتعلَّق بطرَف ثوبه، وأخبره بصوتٍ عالٍ كلَّ ما حدث في يوم الجليد. لم يكن بالطبع الذي أخرج هذه المشاعر هو التبجيل والاحترام الموجَّهان لكبير الرهبان. كانت قوة كبير الرهبان بالنسبة لي، تشبه قوةً فيزيائية مادية بالغة القوة.

... ولكن أوقفني عن فِعل ذلك، تفكير أنني لو بوحت، فالشر الصغير الأول في حياتي سينهار، وجذب شيءٌ ما ظهري بحزم. دخل كبير الرهبان من البوابة العمومية واختفى تحت سماء الفجر المعتِم.

فجأةً تفرَّق الجميع، ودخلوا من باب المدخل مسرعين. ضرب تسوروكاوا على كتفي وأنا شارد. استيقظت كتفي، واستعادت تلك الكتف النحيفة البائسة كبرياءها.

... ومع وجود كل هذه التفاصيل، إلا أنني واصلت الدراسة في النهاية بجامعة أوتاني كما ذكرتُ آنفًا. لم يكن هناك ضرورة لطقس الاعتراف. بعد ذلك اليوم بعدة أيام، استدعانا كبيرُ الرهبان أنا وتسوروكاوا، وأبلغَنا بضرورة بداية الاستعدادات لامتحان دخول الجامعة، وإعفائنا من الأعمال الروتينية اليومية لتوفير الوقت من أجل مذاكرة امتحانات القبول.

بهذا دخلتُ الجامعة لإكمال دراستي الجامعية، ولكن لم يكن ذلك معناه أنه قد تم تسوية كل شيء. فلم يُنبئ هذا التصرف من كبير الرهبان عن أي شيء الآن، ولم أستطِع أن ألمح أيَّ شيء عن نيته فيمن سيخلفه.

كانت جامعة أوتاني هي المكان الذي التقيتُ فيه لأول مرة بالفكر، بل والتعرُّف من قربٍ بالفكر الذي اخترته بنفسي بحرية، وهو المكان الذي أصبح نقطةَ تحوُّل في حياتي.

كانت بداية هذه الجامعة في الأصل منذ ما يقرُب من حوالي ٣٠٠ عام، عندما تم نقل مسكن طلاب جامعة معبد تسوكوشي كانزيون في عام ١٦٦٣ إلى داخل قصر كيكوكو في مدينة كيوتو. ومنذ ذلك الحين ولفترة طويلة صار هو مسكن دير رهبان هونغانجي طائفة أوتاني المبتدئين، ولكن في وقت الراهب جونيو كبير رهبان معبد هونغانجي الخامس عشر، تبرَّع سوكين تاكاغي من أكابر أتباع المعبد في منطقة نانيوا بمبلغ كبير للطائفة، اختِيرت

هذه الأرض في منطقة كاراسوماغاشيرا في شمال العاصمة كيوتو وبُني بها المبنى الرئيس للجامعة. لم تكن تلك الأرض التي لا تَزيد مساحتها على عشرة أفدنة تكفي أبدًا كمساحة لجامعة. ولم يكن شباب طائفة أوتاني فقط، بل يتعلَّم هنا شباب جميع الطوائف البوذية، ويتحصَّلون على المعارف الأساسية للفلسفة البوذية.

تفصل البوابة القديمة المبنية من الطوب الأحمر، الجامعةَ عن طريق الترام وملعب الجامعة، وتواجه جبل هيزان الذي تتراكم طبقاتُه في سماء الغرب على الجهة الأخرى. بعد الدخول من البوابة، تؤدي طريق من الحصى إلى المدخل الدائري لعربات الخيل أمام المبنى الرئيس للجامعة. ويتكوَّن المبنى الرئيس من طابقين مبنيَّين بطوب أحمر قديم وكئيب. ويرتفع شامخًا برجٌ صغير من البرونز على قمة سطح المدخل لا يُعرف كنهه، فإذا كان برج ناقوس فلا يُرى الناقوس، وإذا كان برج ساعة فما من ساعة. في ذلك البرج الصغير ثمَّة فقط نافذة مربَّعة مفتوحة تُظهِر السماء بلا حيلة تحت عمود حديدي هشٍّ ورفيع للحماية من الصواعق.

وشجرة زيزفون عتيقة على جانب المدخل، تعكس أوراقها المهيبة تلك، أشعةَ الشمس بلون نحاس أحمر عند سقوطها عليها. تتكوَّن الجامعة من مبانٍ زِيدت مرةً بعد مرة على مبنى الجامعة، فهي مترابطة دون أي نظام أو قانون، وأغلبها عبارة عن مبانٍ قديمة من طابق واحد مبنية من الخشب، ولَمَّا كان محرَّمًا ارتداء الأحذية داخل المباني في هذه الجامعة، لذا ثمَّة ممراتٌ بلا نهاية تربط بين كل مبنًى وآخر مصنوعة من حصير الخيزران. ويتم إصلاح الأجزاء المكسورة فقط من تلك الممرات وكأنهم تذكَّروها فجأة. وهنا عندما تعبُر من مبنًى إلى مبنًى آخر، تدوس بقدمك على فسيفساء متباينة بأنواع مختلفة من الألوان من الأحدث إلى الأقدم.

وكما هو حال الطلاب المستجدين في كل الجامعات، كنتُ أتردَّد يوميًّا على الجامعة بمشاعرَ حيوية وطازجة، وفي نفس الوقت بأفكارٍ لا تتوقف. كنتُ لا أعرف إلا تسوروكاوا، ولذا فمهما كان لم أتحدَّث إلا معه فقط. ويبدو أن تسوروكاوا من جهته أحسَّ أنه بذلك لن يكون هناك معنًى لانتقالنا لعالم جديد؛ لذا بعد مرور عدة أيام، ابتعد عني خصوصًا، وحاول كلٌّ منا على حدةٍ البحثَ عن أصدقاء جدد. ولكن لأنني لم أكن أنا المصاب بالتلعثم أملك الشجاعةَ لفعل ذلك، ولذا ازدادت وحدتي أكثرَ وأكثر، مع زيادة أصدقاء تسوروكاوا.

في العام التمهيدي الأول من الدراسة الجامعية، كنا ندرُس عشر مواد هي: الأخلاق واللغة اليابانية والكتابة الصينية واللغة الصينية واللغة الإنجليزية والتاريخ وكتب السوترا

البوذية وعلم المنطق والرياضيات والتربية الرياضية. كنت أعاني منذ البداية من محاضرات المنطق. في أحد الأيام بعد أن انتهت محاضرة المنطق، وفي راحة الغداء، فكَّرت أن أسأل أحد الطلاب، كنتُ منذ فترة أضعه في حساباتي صديقًا محتمَلًا، سؤالين أو ثلاثة عن المحاضرة.

كان ذلك الطالب دائمًا يأكل من وجبة غدائه منفردًا بعيدًا عن باقي الطلاب بجوار أحواض الزهور في الحديقة الخلفية. كانت تلك العادة تبدو بالنسبة له نوعًا من أنواع الطقوس، وطريقة تناوله الطعام التي تبدو طاردةً للشهية كانت منفِّرة للبشر، ولذا لم يكن أحدٌ يتقرب منه. ولم يكن يتكلم مع أيٍّ من زملاء الدراسة، وبدا لي أنه يرفض قبولَ صداقة أحد.

كنتُ أعرف أن اسمه «كاشيواغي». كانت السِّمة الملحوظة للغاية له هي أنه لديه حَنَفٌ شديد في قدميه الاثنتين. كانت طريقة مشيه في غاية التعقيد. كان وكأنه يمشي في وحل، عندما يرفع إحدى قدميه من الوحل أخيرًا، تسقط القدم الأخرى في ذات الوحل. وبالتزامن مع ذلك يهتز جسده كلُّه بعنف، فكان مشيه عبارة عن أحد أنواع الرقص المُبالغ فيه، ولم يكن به شيء يدل على الحياة اليومية.

منذ بداية دخولنا الجامعة، لم يكن وضعُ عيني على كاشيواغي بلا سببٍ منطقي. فإعاقته كانت تريحني. كان حَنَفُ قدميه منذ البداية يعني موافقته لظروفي التي وضعتني الحياة فيها.

فتح كاشيواغي علبة غدائه فوق حشائش نبات النفل بالحديقة الخلفية. كانت تُطِلُّ على تلك الحديقة الخلفية غرفُ نادي الكاراتيه ونادي تنس الطاولة المهجورة التي تحطَّم أغلب زجاج نوافذها. تنبُت في تلك الحديقة خمس أو ست أشجار من الصنوبر النحيف، وثمَّة أحواض صغيرة فارغة. كانت الأحواض المصبوغة بالبوية الزرقاء منزوعةَ القشرة ومتجعِّدة في خشونة كأنها أزهارٌ صناعية ذابلة. وعلى الجنب اثنتان أو ثلاثة أرفف لأشجار البونساي، وكومة من الأنقاض، وأصص زرع بها زهور الخُزامى وزهرة الربيع.

كانت أرض حشائش النفل مناسِبة للجلوس عليها. وكانت الأوراق الرقيقة تمتص أشعة الشمس وتملأ المكان بظلال دقيقة؛ لذا بدا ذلك المكان وكأنه يرتفع عن الأرض قليلًا. كاشيواغي الجالس هناك، وخلافًا عن حالته أثناء مشيه، كان طالبًا لا يختلف في شيء عن باقي الطلاب. ليس هذا فقط، بل كان في وجهه الأزرق الشاحب نوعٌ من جَمال صارم وحاد. إن الشخص الذي يحمل إعاقةً جسدية تجِده مثل المرأة، يملك جَمالًا لا نظير له. إن المعوَّق، والمرأة الجميلة كذلك، يرهقهما النظرُ إليهما، ويبلغ بهما الملَل مداه من أنهما

وجودٌ منظورٌ، ومحاصر، ويرُدَّان النظر من خلال وجودهما ذاته. فالفوز لمن ينظر. كان كاشيواغي وهو يأكل وجبة غدائه ينظر إلى أسفل، ولكني أحسستُ أن عيونه ترى كل العالم المحيط به بكل تفاصيله.

كان مكتفيًا ذاتيًّا وسط أشعة الشمس. أثَّر ذلك الانطباع في قلبي كثيرًا. عرفتُ من النظر إلى هيئته تلك وسط أشعَّة الشمس وزهور الربيع، أنه لا يحمل نفس شعور الخجل والتقهقر اللذين أحسُّ أنا بهما. كان ظلُّه يؤكد عليه، لا بل كان ظلًّا له وجود. لا ريب أن أشعة الشمس كانت لا تخترق جِلد بشرته الصلد ولا تقتحم ذاته.

كانت وجبة غداء كاشيواغي التي يأكل منها بكل عزم وبامتعاض في نفس الوقت، تبدو فقيرةً ولا تقلُّ في بشاعتها عن وجبتي التي أعددتُها بنفسي في مطبخ المعبد هذا الصباح وأحضرتها معي. كان ذلك في عام ١٩٤٧ حيث كان من المستحيل الحصولُ على غذاء صحي، دون اللجوء إلى السوق السوداء.

حملتُ وجبة غدائي ودفتر المحاضرات، ووقفتُ بجواره. وقع ظلِّي على وجبة غدائه؛ لذا رفع كاشيواغي وجهه، ثم نظر إليَّ نظرةً سريعة، وأعاد النظر إلى طعامه، واستمر يمضغ بحركة رتيبة وكأنه مثل دودة القز التي تمضغ ورقةَ توت.

«كنتُ أريد أن تعلمني بعضَ الأشياء التي لم أفهمها في المحاضرة التي انتهت توًّا.»

قلتُ ذلك باللهجة المعيارية وأنا أتلعثم تلعثمًا شديدًا؛ لأنني كنت قد قررت التحدُّث باللهجة المعيارية إذا دخلتُ الجامعة.

قال كاشيواغي فجأةً:

«لا أفهم ماذا تقول بسبب تلعثمك المستمر.»

اصطبغ وجهي بالحمرة من الخجل. ثم أضاف وهو يلعق طرَف عصتَي الأكل:

«أنا أعرف جيدًا لمَ تبادلني الحديث. أنت اسمك ... ميزوغوتشي، أليس كذلك؟ لا مانع من أن نصبح أصدقاءَ بسبب إعاقتنا، ولكن هل أنت تعتبر تلعثمك مقارنةً بي أمرًا في غاية الضخامة؟ أنت تعطي لنفسك اهتمامًا أكثر من اللازم. ولذلك فأنت تعطي لتلعثمك اهتمامًا أزيد من اللازم كالذي تعطيه لنفسك، أليس الأمر كذلك؟»

بعد ذلك عندما علمتُ أنه ابنٌ لعائلة تملك معبدًا من طائفة «رينزاي»، فهمت أنه في الحوار الأول بيننا كان يتقمَّص دور راهب الزِّن بشكل أو بآخر، ولكن رغم ذلك لا أستطيع إنكارَ الانطباع العنيف عنه الذي تكوَّن لديَّ وقتَها.

«تلعثم! تلعثم!»

أمام عدم استطاعتي مواصلةَ نطق الحرف الثاني من كلمة البداية، قال كاشيواغي ذلك باستمتاع.

«أنت أخيرًا اصطدمت بمن تستطيع التلعثم أمامه بطمأنينة. أليس كذلك؟ البشر يبحثون عادةً عن صديقهم الحميم بهذه الطريقة. إذا كان الأمر كذلك، فهل ما زلتَ بِكرًا؟»

أومأتُ برأسي دون حتى أن أبتسمَ. كانت طريقة سؤال كاشيواغي تشبه طريقةَ الطبيب، جعلتني أشعر أن عدم الكذب هو من أجل حالتي الصحية.

«هذا هو المتوقَّع، أنت بِكر. بِكر ليس لك من الجَمال أي نصيب. فلا تنجذب إليك الفتيات، وليس لديك الشجاعة على شراء بنات الهوى. هذا هو كلُّ ما في الأمر. ولكن إذا كانت نيتك أن نكون أصدقاء من باب أنني بِكر مثلك فأنت مخطئ تمامًا. هل أحدِّثك كيف تخلصتُ من عذريتي؟»

بدأ كاشيواغي الحديثَ دون انتظار ردي.

أنا وُلدتُ أحنفَ في معبدٍ لطائفة الزِّن في ضاحيةٍ من ضواحي مدينة سانوميا ... عندما أبدأ الاعتراف هكذا ربما تظن أنت أنني مريضٌ مسكين يبدأ الكلام حول مرضه دون أي اعتبار لمن يحادثه، ولكن في العادة أنا لا أتحدَّث بهذه الأمور لأي أحد. حتى أنا هذا الكلام يخجلني، ولقد اخترتك أنتَ بالذات من البداية مستمعًا لِمَا سأبوح به من أسرار، والسبب أنني أعتقد أنه ربما تكون أنت أكثر مَن يستفيد مما فعلتُه أنا، وأنك إذا فعلتَ تمامًا مثلما فعلتُ أنا حتى الآن، فسيكون ذلك على الأرجح هو أفضل طريق تسير عليها. وأعتقد أنك أنت أيضًا تعرف أن رجال الدِّين هكذا يجمعون المؤمنين، فالممتنع عن الخمر يجمع حوله رفاقًا لا يشربون.

هو كذلك. لقد كنتُ أخجل من ظروف وجودي. وكنتُ أعتقد أن العيش متصالحًا مع تلك الظروف وفي هدنة معها هو إعلان هزيمة. وإذا رغبتُ في الحقد والغضب فهناك الكثير. فقد كان يجب على والديَّ إجراء جراحة تقويم لي في طفولتي. ولكن الآن فات وقتُ ذلك. ولكن رغم ذلك فأنا لا أحمل أيَّ اهتمام بوالديَّ وحتى فكرة كرههما كانت مزعجة.

لقد كنت أحمل تأكدًا مطلقًا أنه لن تحبني أيُّ امرأة حبًّا مطلقًا. والسبب، وربما أنك أيضًا تعلم ذلك، أن هذا التأكد فيه راحة وسلام نفسي أكثر مما يتخيَّل الإنسان. لا يؤدي بالضرورة قراري الحاسم بعدم التصالح مع ظروف وجودي، وهذا التأكد المطلق، إلى تناقض. والسبب هو أنه إذا آمنتُ أنه من المحتمل أن أُحَبَّ من امرأةٍ ما، أكون قد تصالحت

مع ظروف وجودي. عرفت أن شجاعة الحكم بدقةٍ على الواقع، وشجاعة القتال ضد هذا الحكم، تعتادان إحداهما الأخرى. لقد شعرت بأنني أقاتل رغم أني قعيد.

ويجب القول إنه من الطبيعي أنني، وهذا حالي، لم أجتهد في أن أتخلَّص من عذريتي من خلال بنات الهوى، كما يفعل أصدقائي. والسبب أن بنات الهوى لا يحببن الزبائن ولا يخترنهم. فيمكن لأي أحد حتى العجوز والمتسول والأعمى والوسيم وكذلك المجذوم إن جهِلن مرضَه أن يكون زَبونًا. يستريح الشخص العادي لهذه المساواة ويشتري من بينهن أولَ امرأة له. ولكني لم أكن أُعجَب بتلك المساواة. لم أستطِع احتمال أن أُعامَل نفس معاملة الرجل الطبيعي المكتمل الصحة ونحمل نفس المؤهلات، وكنت أرى أن ذلك هو ازدراء مرعب للنفس. إذا مرَّ ظرفُ قدمي الحَنْفَاء مرورَ الكرام وتم تجاهلها، فوجودي ذاته سينعدم، أي إنني كنت مقيدًا بنفس الرعب الذي تحمله أنت الآن. ويُفترض وجود ضرورة لمنظومةٍ أكثرَ رفاهية بمراتٍ عن الشخص العادي من أجل الإقرار الكامل بصحة موقفي. كنتُ أعتقد أن الحياة لا بد بأي حال أن تكون مخلوقة بهذه الكيفية.

كان عدم الاكتفاء المرعب الذي يضعنا في حالة صراع مع العالم، من المفترض أنه يمكن علاجه إذا تغيَّر العالم أو تغيَّرنا نحن، ولكني كرِهت أوهام الحُلم بالتغيير، وأصبحت كارهًا بلا حدود لأي نوع من الأوهام. ولكن كان التأكُّد المطلَق، الذي وصلت إليه منطقيًّا، والذي يقول إنه إذا تغيَّر العالَم فلا وجود لي، وإذا تغيرتُ فلا وجود للعالم، يشبه نوعًا من التصالح أو نوعًا من الوفاق. لأنه أمكن الحصول على التعايش بين العالم وبين فكرةِ أنني لا أُحَب بشكلي هذا كما هو. ثم الفخ الأخير الذي يسقط فيه المعاق ليس زوال حالة التضاد، ولكن بتحقيقِ الشكل الذي يتم فيه الإقرار الكامل بصحة حالة التضاد. وهكذا تكون الإعاقة حالةً ميئوسًا من شفائها.

في هذا الوقت حدَث لي في عمر المراهقة (أنا أستخدم هذه الكلمة بصدقٍ مريع) أمرٌ لا يمكن تصديقه بحال. بنتُ أحدِ أتباع معبدنا، كانت غنيةً وشهيرة بجَمالها وخريجة مدرسة كوبيه للبنات، اعترفت لي بحبها في أحد اندفاعاتها. لفترة من الوقت لم أستطِع تصديقَ أذني.

ولأنني بفضل تعاستي لديَّ خبرة طويلة في سبْر أغوار الحالة النفسية للبشر، عرفتُ بسهولة أن دافع حبِّها لي ناتجٌ من التعاطف، ولكن رغم ذلك لم أعاند على الإطلاق. وذلك لأنني أعلم تمامَ العلم أنه ما من افتراض أن تحبَّني فتاة بدافع من التعاطف فقط. الأمر الذي توقَّعته هو أن مصدرَ حبِّها لي هو كبرياء غير عاديَّة؛ لأنها تعرف تمامًا قيمتها كفتاة

جميلة بدرجة كافية، لم يكن يمكن لها أن تقبل حبَّ شخص لديه ثقة بنفسه. لم تكن تسمح أن يتم وزن كبريائها وعشق مَن يطلب حبَّها على كفتي الميزان نفسه. بمعنى أنه كلما زادت كفاءة الطرَف الآخر، كرهته. وأخيرًا، أخلت يديها تمامًا من حبٍّ قائم على التوازن (كانت مخلصة في هذه النقطة)، ووضعت عينها عليَّ.

كان ردِّي مقررًا. ربما تضحك أنت من قولي، ولكني أجبت تلك الفتاة قائلًا: «أنا لا أحبُّك.» وهل ثَم ردٌّ غير هذا الرد؟ فهذا الرد كان صادقًا، ولم يكن به أيُّ قدرٍ ولو قليلًا من الادعاء. شعرتُ أنه لا يجب إفلاتُ فرصة الاحتفاظ باعتراف الفتاة، عملة نادرة وعدم استخدامه. فمن المؤكد أنَّ ردَّ «أنا أيضًا كنتُ أحبُّك» لو صدر مني أنا، سوف يتخطى السخرية ويكون مأساة. لقد كنتُ أعلم الحيلةَ التي يمكن بها لرجلٍ له مظهرٌ خارجي مثير للسخرية، أن يتفادى بذكاء أن يبدوَ مأسويًّا بطريق الخطأ. لأنني كنتُ أعلم أنه إذا بدا في شكلٍ مأسوي فعلى الفور لن يعامله الناس بارتياح. عدم إظهار النفس في حالٍ يُرثى له، هو أمرٌ في غاية الأهمية من أجل روح الآخرين أكثر من أي أمر آخر. ولذلك قلتُها بلا ندم «أنا لا أحبُّك».

لكن الفتاة لم تتراجع، بل قالت إنَّ ردي هذا كذِب. بدأت الفتاة بعد ذلك تكرر الحرصَ على عدم جرح كبريائي، وكانت طريقتها في محاولة إقناعي تستحق المشاهدة. بالنسبة لها، الرجل الذي لا يحب النساء خارج نطاق تخيُّلها، وإن وُجِد فهو يكذب على نفسه. وبهذه الطريقة، تعاملت الفتاة بمهارة مع تحليلي النفسي الدقيق، وفي النهاية قرَّرت من تلقاء نفسِها أنني في الواقع أحبُّها منذ وقت طويل. لقد كانت في منتهى الذكاء. لو افترضنا أنها كانت تحبني حقًّا، فهذا يعني أنها أحبَّت شخصًا لا يمكن الوصول إليه، فهي إن قالت على وجهي الدميم هذا إنه جميل فسوف تثير غضبي، وإذا قالت عن قدمي الحَنْفَاء هذه إنها جميلة فستثير غضبي أكثر، وإذا قالت إنها تحب محتواي الداخلي الذي يختلف عن مظهري الخارجي، فسأكون في قمة الغضب، فهي قد وضعت كلَّ ذلك في حسابها، وظلَّت تردِّد فقط أنها تحبني. وبهذا، بحثتُ في داخلي ووجدتُ، من خلال التحليل، المشاعرَ التي أقابل بها هذا الموقف.

لم أستطِع الاقتناعَ بهذا الأمر اللامنطقي. في ذلك الحين بدأت رغبتي تحتدُّ بعنف، ولم أعتقد أن تلك الرغبة ستربطني بالفتاة. إذا كانت الفتاة تحبني أنا حقًّا وليس شخصًا آخر، فلا بد أن تكون لي صفة مميزة عن الآخرين. وهذه الصفة ليست إلا أن تكون هذه القدم الحَنْفَاء ولا غيرها. وبذلك تكون الفتاة محِبةً لقدمي الحَنْفَاء دون أن تصرِّح بذلك، وهذا

النوع من الحب مستحيلٌ وقوعُه في فكري. ولكن إذا كانت لي صفة مميزة غير الحَنَف، فربما كان الحبُّ ممكنًا. ولكن إذا كانت الصفة المميزة لي غير الحَنَف فممكن أن تعترف بسبب وجودي، وإذا اعترفت بسبب وجودي يكون الوضع أنني أعترف بتلك الصفة اعترافًا تكميليًّا، وتبِعًا لذلك أكون قد اعترفت بسبب وجود الآخر اعترافًا تكميليًّا متبادلًا، وأكثر من ذلك، بل يمكن القول إنني اعترفت بذاتي المحاطة بهذا العالم. أما الحب فمستحيل. وكون الفتاة تعتقد أنها تحبني فهو شعور مخادع، وكذلك حبي مستحيل. ولذا فقد كرَّرت قولي: «أنا لا أحبُّك.»

والشيء العجيب أنني كلما كررت قول إنني لا أحبُّها كانت الفتاة تغرق في الشعور المخادع أنها تحبُّني. بعد ذلك في إحدى الليالي، وصلت إلى أن ألقت بجسدها أمامي. كان جسدها جميلًا جَمالًا متألقًا. ولكن أصابتني عُنَّة فلم أقدِر.

حلَّ هذا الفشل الكبير كلَّ شيء بمنتهى السهولة. أخيرًا يبدو أن ذلك برهن لها «أنني لا أحبُّها»، فابتعدَت عني.

كان هذا عارًا لي، وإذا قارنت ذلك بعار قدمي الحَنْفَاء، أو أي عارٍ آخرَ فلا يمكن مقارنته بذلك. ولكن الذي أصابني بالفزع كان أمرًا آخرَ. لقد كنتُ أعرف سبب عجزي ذلك. فكنت لمَّا وصلت لهذا الحد وأفكر أن قدمي الحَنْفَاء هذه ستلمس قدمَ الفتاة الجميلة، أُصِبتُ بالعُنَّة. هذا الاكتشاف جعل السلام الذي يحمل تأكيدًا مطلقًا بأنني لن أُحبَّ بتاتًا، ينهار من داخله.

والسبب هو أنه وقتها، تولَّدت لديَّ سعادة لاهية، ومن خلال الرغبة، من خلال تنفيذ تلك الرغبة، كنتُ أحاول البرهنة بالتجربة على استحالة الحب، ولكنَّ الجسد خانني، لقد كنتُ أحاول فِعل ذلك من خلال الروح فقط، ولكنَّ الجسد هو الذي لعِب هذا الدور. لقد تلاقيتُ مع التناقض. إذا تحدَّثت دون الخوف من التعبيرات الشعبية الشائعة، فأنا مع حمل التأكيد المطلق أنني لن أُحبَّ، كنت أحلُم بالحب، وفي المرحلة الأخيرة كنتُ أستريح بوضع الرغبة وكيلًا للحب. وبالتالي تطلب الرغبة في ذاتها نسيانَ شروط وجودي، تطلب التخلي عن التأكيد المطلَق أنني لن أُحبَّ، ذلك الذي يعتبر العقبة الوحيدة أمامي. كنت أدرك ذلك. ولكن لأنني كنت أُومن أن الرغبة تكون أكثرَ وضوحًا، لم أفكر بضرورة الحُلم بها بالذات.

ومن ذلك الوقت، أصبح فجأةً الجسد هو الذي يجذب اهتمامي أكثرَ من الروح. ولكن لم أستطِع تجسيدَ الرغبة النقية الخالصة، ولذا حلَمت بها فقط. وأصبحتُ وجودًا لا يراه

الآخرون مثل الريح، ولكن من جانبي أرى كلَّ شيء، وأقترب بخفةٍ متناهية من الهدف المرسوم، وألمس حبَّ ذلك الهدف في كل ركن منه، ثم في النهاية أقتحم ما في داخله، كل ذلك في الحُلم ... أنت عندما يقال لك الوعي الذاتي للجسد ربما تتخيَّل وعيًا ذاتيًّا يتعلَّق بـ «المادة» المؤكَّدة تأكيدًا مطلقَ الشفافية التي لها كتلة محدَّدة. ولكن أنا لم أكن كذلك. فأنْ أكونَ مكتملًا، جسدًا واحدًا برغبةٍ واحدة، فهذا يعني أن أكونَ شفافًا غيرَ مرئيًّا، أي أن أكون رياحًا.

ولكن على الفور تتدخل قدمي الحَنْفَاء وتأتي لتوقفني. هذه فقط الوحيدة التي لا يمكن أن تصبح شفَّافة. وهي لم تكن قدمًا بقدرِ ما كانت روحًا عنيدة مستقلة بذاتها. كانت في شكل «مادة» لها تأكيدٌ مطلَق أكثر بكثير من كونها جسدًا.

يعتقد الإنسان أنه لا يستطيع رؤيةَ نفسه إلا باستعارةِ مرآة، ولكن يملك المعاق دائمًا مرآة ملتصقة بطرَف أنفه. هذه المرآة تعكس جسمَه بالكامل طَوال اليوم. من المستحيل النسيان. ولذلك ما يُطلِق المجتمع عليه قلقًا هو بالنسبة لي ليس إلا نوعًا من أنواع لعب الأطفال. ما من شيء اسمه القلق. إن وجودي هكذا، هو أمرٌ مؤكَّد مثل وجود الشمس والأرض والطيور الجميلة والتماسيح القبيحة. العالم ثابتٌ لا يتحرك مثل شاهد القبر. من هنا بدأت طريقتي المبتكَرة في الحياة، دون أي نوع من القلق، ودون أي نوع من الثوابت المبدئية. أنا أعيش من أجل ماذا؟ يحسُّ الإنسان بالقلق بسبب ذلك السؤال لدرجةِ الانتحار. ولكن لا شيء لديَّ من ذلك. فالقدم الحَنْفَاء هي شرط حياتي، وهي سببُها، وهي الهدف، وهي المثال ... لأنها نفسي وحياتي ذاتها؛ لأن مجرد وجودي فقط هو أمرٌ كافٍ للغاية بالنسبة لي. في الأصل أليس قلق الوجود، هو عدم رضًا مُرفَّه تولَّد بسبب الإحساس بأن وجودنا غيرُ كافٍ؟

لقد وضعتُ عيني على أرملةٍ عجوزٍ تعيش وحيدةً بمفردها في قريتنا. يقال إنها في الستين من العمر، وأحيانًا يقال إنها أكبرُ من الستين. عندما ذهبت بدلًا من أبي لقراءة السوترا في ذكرى وفاة أبيها، لم يأتِ أحدٌ من أقاربها، فقمنا أنا وتلك العجوز فقط بإحياء الذكرى. بعد انتهائي من قراءة السوترا وعندما قدَّمتْ لي شايًا في حجرة مختلفة، كان الوقت صيفًا؛ فلذا طلبتُ منها أن أغتسل. فصبَّت العجوز الماءَ عليَّ من ظهري بعد أن خلعتُ ملابسي وأصبحتُ عاريًا. وعندما رأيتُ العجوز تنظر إلى قدمي بشفقة، طرأت الخُطة على ذهني.

وعندما عُدنا إلى الغرفة التي كنا فيها، وأنا أجفِّف جسدي بدأتُ أتحدَّث بطريقة وقورة مصطنعة. فحكيتُ لها أنني عندما ولدتُ ظهر بوذا لأمي في أحلامها، وأخبرها أنني عند بلوغي سنَّ الرجال، المرأة التي ستعبد قدمي هذه من قلبها سيكون مآلها جنةَ النعيم. أخذتِ المرأة العميقة الإيمان تتأمَّل عيني وهي تكرُّ حبَّات المِسبحة بيدها. فأخذتُ أتلو آياتٍ مبهمة من كتاب السوترا، ثم لامستُ يدَها الممسكة بالمِسبحة ووضعتها فوق صدري، ونمتُ عاريًا كما أنا مثل الجثة مغمض العينين. أما فمي فكان لا يزال يردِّد آيات السوترا.

لك أن تتخيَّل المجهود الذي كنتُ أبذله لمنع نفسي من الضحك؛ فلقد كان الضحك في داخلي كالطوفان. ثم لم أكن أغترُّ بنفسي وأسقط في الأحلام ولو قليلًا. فقد فهمتُ أن العجوزَ بدأت تعبدُ قدمي وهي تتلو من كتاب السوترا. عندها فكرتُ أنا فقط في قدمي تلك التي تُعبَد، وكادت أنفاسي أن تختنق لِما في ذلك المشهد من سخرية. فكنت أفكِّر فقط في قدمٍ حَنْفَاء، قدمٍ حَنْفَاء، مجرَّد قدمٍ حَنْفَاء، ولم أرَ في ذهني إلا ذلك. ذلك الشكل المريب. تلك الحالة البالغة الشناعة التي وُضعت فيها. تلك السخرية الجامحة. والحقيقة أن شَعر العجوز المشعث كان أحيانًا يلمس قدمي عندما كانت تسجد أمام قدمي، فكانت تدغدغني مما زاد شعوري بالملهاة الساخرة التي تحدُث. أنا في الماضي وعندما لمستُ تلك القدم الجميلة فأُصبتُ بالعُنَّة، من وقتها كنت أحمل فكرةً خاطئة عن الرغبة. والسبب أنني وقتَها، وفي وسط تلك الصلاة البالغة السوء، انتبهتُ إلى أنني مستثار. ودون أن أرى أيَّ نوع من الأحلام! تحت ذلك الوضعِ البالغِ في قسوته!

نهضتُ واقفًا، ودفعتُ فجأةً العجوز لتقع على الأرض. ولم يكن لديَّ وقتٌ فارغ لكي أتعجَّب من عدم إحساس العجوز بأي قدرٍ من الاندهاش. الأرملة العجوز ظلَّت مغمِضةً عينيها وهي ملقاةٌ كما هي ترتِّل كلمات السوترا.

لأمرٍ غريب، ما زلت أتذكَّر بوضوح أن الذي كانت تتلوه العجوز وقتَها هو آية في كتاب سوترا دايهي شيندراني.

«إيكي إيكي شينو شينو. أراسان. فوراشاري. هازاهازا. فوراشاري.»

وكما تعلم أنت، بناءً على «التفسيرات»، فهذا معناه ما يلي:

«نبتهل إليك! نبتهل إليك! من أجل الجسد النقي البريء الذي لا تهلكه السموم الثلاث، الطمع والغضب والغباء.»

أمام عيني، وجهُ امرأةٍ تخطَّت الستين من العمر خالٍ من أي مساحيق، وقد لفحته أشعةُ الشمس، تستقبلني مغمضة العينين. لم تنقطع إثارتي ولو قليلًا. ثم وكان هذا هو قمةَ المهزلة كان قد تم إرشادي دون وعي …

ولكن لا يجب ذكر كلمة دون وعي الأدبية تلك. لقد كنتُ أرى كلَّ شيء. رأيتُ بوضوحٍ اللونَ المميز للجحيم في كل ركن من أركانه. بل وفي وسط الظلام الدامس والكامل!

وجهُ الأرملة العجوز المليء بالتجاعيد، ليس به أيُّ جَمال، وليس به أي قداسة. ولكن ذلك القبح وكبر السن، في داخل حالتي أنا الذي لا أرى فيها أيَّ نوع من أنواع الأحلام، يبدو أنهما كانا يعطياني برهانًا مؤكدًا لا ينقطع؛ فعندما تنظر إلى وجهِ امرأة جميلة أيًّا كانت درجة جَمالها، دون أن ترى فيه حُلمًا فلن يختلف عن وجه تلك العجوز، يجب أن يقول أحدٌ هذه الحقيقة. قدمي الحَنْفَاء وذلك الوجه … حقًّا! الخلاصة أن رؤية الحقيقة كما هي هو الذي ساعد في استثارة جسدي. ولأول مرة أومن برغبتي وأنا أحمل تجاهها شعورًا بالأُلفة. ثم عرفتُ أن المشكلة لم تكن هي تقريب المسافة بيني وبين الهدف، ولكن المشكلة كانت هي كيفية المحافظة على المسافة بيني وبين الهدف في حدِّ ذاته كهدف.

من الأفضل النظر. فلقد اخترعتُ من وقتها نظريةَ الشبق الخاصة بي، من النظرية التي لا يمكن مطلقًا أن أعانيَ إيَّاها، من نظرية الإعاقة التي كنتُ وصلت إليها وقتَها ومتوقفًا عندها. لقد اخترعت تركيبةً مؤقتة للمماثل الذي يدعوه الناس افتتانًا. التوحُّد من خلال الشهوة التي تشبه الرياح و«رداء الإخفاء»، لم تكن بالنسبة لي سوى حُلم، وعندما أنظر، كان من المحتَّم أن يُنظر إليَّ نظرة شاملة. في ذلك الوقت أُلقي بكلٍّ من قدمي الحَنْفَاء وامرأتي خارج عالَمي. حافظَ كلٌّ من قدمي الحَنْفَاء والمرأة على نفس المسافة مني. وهنا الواقع الحقيقي فلا تزيد الشهوة عن كونها مجرَّد خيال. ثم أنا الذي أرى، وأنا أسقط وسط ذلك الخيال بلا نهاية، أقذفُ المنيَّ وأنا أتجه إلى الواقع الحقيقي الذي يُرى. فلم تتلامس قدمي الحَنْفَاء مع المرأة بتاتًا، ولم تلتحما، بل بقيتا كما هما، متباعدتين بانفصال خارج عالَمي … ويستمر اهتياج الشهوة إلى ما لا نهاية. والسبب أن تلك القدم الجميلة لن تتلامس مع قدمي الحَنْفَاء إلى الأبد.

تُرى هل طريقةُ تفكيري صعبة الفَهم؟ تُرى هل تحتاج إلى شرح؟ ولكن أنت أيضًا تفهم أنه منذ ذلك الوقت وأنا أصبحتُ مستريحًا، ومتأكدًا من أن «الحب مستحيل»، أليس كذلك؟ لا قلق ولا حب. فالعالم في حالة توقُّف إلى الأبد، وفي نفس الوقت حالة وصول. أثمَّة ضرورةٌ لوضع هامش يوضِّح خصوصًا أن هذا العالَم هو «عالمنا»؟ هكذا أستطيع تعريفَ

الأوهام الخاطئة التي يضعها المجتمع تحت كلمة واحدة هي «الحب». إنه الوهم الخاطئ يحاول الربطَ بين الواقع الحقيقي والخيال ... وأخيرًا أصبحتُ أدرك أن تأكُّدي المطلَق من أنني لن أُحبَّ أبدًا، هو حالة جذرية للوجود الإنساني. تلك هي ظروفُ تخلُّصي من عذريتي.

انتهى كاشيواغي من الحديث.

أنا الذي كنت أستمع فقط أخيرًا تنفَّست الصُّعداء. وأُصِبت بتأثُّر عنيف فلم أفُق من الألم الذي أحسستُ به لتعرُّفي على طريقة تفكير لم أفكِّر فيها من قبل قط. بعد فترة من انتهاء كاشيواغي من الكلام أيقظَت أشعَّة شمس الربيع ما حولي وبدأت حشائش النفل المشرقة تتألق. وعاد إلى الحياة صدى صيحات التشجيع في ملعب كرة السلة الذي في الخلف. ولكن أعتقد أن كل ذلك ظهر مرةً ثانية متغيرَ المعنى تمامًا رغم أنه كان كما هو ظهيرة يوم من أيام الربيع.

لم أستطِع البقاء صامتًا؛ لذا حاولتُ أن أقول شيئًا متفقًا ما مع حكاه، فقلتُ ملاحظة غبية وأنا أعاني تلعثمًا شديدًا:

«وبهذا أصبحتَ وحيدًا بعد ذلك وإلى الآن، أليس كذلك؟»

مرةً أخرى تصنَّع كاشيواغي بفظاظة عدم قدرته على سماعِ ما قلته، وجعلني أعيده مرةً أخرى. ولكنه ردَّ على ذلك بودية.

«أتقول وحيدًا؟ ولماذا يجب عليَّ أن أكون وحيدًا؟ ستعرف من نفسك إذا صاحبتني كيف هي حالتي بعد ذلك.»

تردَّد صدى رنَّات الجرس التي تعلن بدايةَ محاضرات بعد الظهيرة. تهيأتُ لأن أنهض واقفًا. جذب كاشيواغي طرف ردائي بخشونة وهو جالس كما هو. كان زيي المدرسي هو نفسه من عهد مدرسة الزِّن ولقد قمتُ بتعديله وتغيير الأزرار فقط، القماش كان قديمًا وباليًا. علاوةً على ذلك، كان شديد الضيق على جسدي، وجعل جسدي الهزيل يبدو ضعيفًا وصغيرًا أكثرَ وأكثر.

«المحاضرة التالية الكتابةُ الصينية أليس كذلك؟ ألا ترى أنها مملة؟ لنذهب في نزهة في الجوار.»

قال كاشيواغي ذلك ثم نهض واقفًا بعد تعبٍ كبير، وكأنه فكَّك كلَّ أجزاء جسمه مرةً ثم أعاد تركيبها من جديد. وجعلني أتذكَّر قيام الجَمل من رقدته التي نراها في الأفلام.

لم أتكاسل من قبلُ عن حضور المحاضرات، ولكن رغبتي في معرفة أمورٍ أكثر عن كاشيواغي صعَّبت عليَّ إفلاتَ تلك الفرصة. بدأنا السير في اتجاه البوابة الرئيسة.

عندما خرجنا من البوابة الرئيسة للجامعة، فجأةً أثارت الطريقة المميزة جدًّا التي يسير بها كاشيواغي انتباهي وأيقظت داخلي شعورًا قريبًا من شعور الخجل. كان أمرًا غريبًا أن أشعر بالخجل وأنا أسير مع كاشيواغي، مؤيدًا مشاعرَ المجتمع العادية هكذا.

إن كاشيواغي هو مَن عرَّفني بدرجةٍ واضحة مكانَ وجود الخجل داخلي. وفي نفس الوقت كان يحثني على الحياة ... سُبِكت من خلال كلماته، كلُّ مشاعري المختفية من السطح، كل شرور قلبي، وصارت نوعًا جديدًا طازجًا. وربما بسبب ذلك، عندما وطِئنا الحصى وخرجنا من البوابة الرئيسة المبنية بالطوب الأحمر، ظهر لنا جبل هيئزان الذي يمكن رؤيته من تلك البوابة رطبًا بشمس الربيع، وكأنه جبل نراه اليوم لأول مرة.

وكان ذلك أيضًا مثل الكثير من الأشياء التي كانت نائمة حولي ظهرت مرةً أخرى بمعانٍ جديدة. كانت قمة جبل هيئزان ترتفع شامخة، ولكن كان سفحه ممتدًّا بلا نهاية، وكأنه نغمة واحدة مستمرة في ترديد صداها إلى الأبد. رأيت ظلال طيات جبل هيئزان، خلف الأسطح المنخفضة المتسلسلة في الأفق البعيد، وكان ذلك الجزء فقط من الطيات يبدو قريبًا وفي منتهى الوضوح، ويبرُز بطن الجبل الذي يتزين بدرجات من لون الربيع، وكأنه مدفونًا في لون أزرق غامق ومظلم.

كان عدد المارة وكذلك عدد السيارات أمام بوابة جامعة أوتاني قليلًا. وكذلك لا يتردَّد إلا على فترات متباعدة صدى الترام الذي يسير في خط الترام الذي يصل من أمام محطة كيوتو وحتى أمام موقف كاراسوما. تصطف على الجانب الآخر من الطريق أعمدة البوابة القديمة لملعب الجامعة لتتقابل مع البوابة الرئيسة على هذا الجانب، وعلى الجهة اليسرى تصطفُّ سلسلة أشجار الجِنكو ذات الأوراق الشابة.

قال كاشيواغي:

«هل لنا أن ندور حول الملعب لفترة؟»

ثم سبقني وعبر طريق الترام. كان يحرِّك جسمه كله حركةً عنيفة، ويعبُر الطريق التي لا تسير فيها السيارات تقريبًا وكأنه ساقية شديدة الهياج.

كان الملعب فسيحًا للغاية، وعلى البُعد كان عددٌ من أزواج الطلبة المتكاسلين عن حضور المحاضرات، أو أن ليس لديهم محاضرات من الأصل، يتبادلون إلقاءَ كرة البيسبول، وفي ناحيتنا كان خمسة أو ستة أفراد يتمرنون للماراثون. رغم أنه لم يمرَّ إلا عامان على انتهاء

الحرب، إلا أن الشباب مصرُّون على التخطيط لتدمير قواهم مرةً ثانية. كنت أنا أفكِّر في وجبات المعبد الفقيرة.

جلسنا على الأرجوحة ونحن نتأمل دون أن نرى الأشخاص الذين يتدرَّبون على الماراثون فيقتربون ثم يبتعدون ثانيةً فوق المضمار البيضوي. في الوقت الذي تتكاسل فيه عن الدراسة، تشعر البشَرة التي تدلَّى منها القميص في وسط أشعة الشمس المحيطة بهبوب نسائم ضئيلة من الرياح. يقترب اللاعبون في عصبة واحدة وتضطرب أقدامهم من صعوبة التنفُّس وزيادة الإرهاق، ثم يبتعدون تاركين الغبارَ يتراقص عاليًا عن الأرض.

«أناس أغبياء حقًّا!»

قال كاشيواغي ذلك دون أن يترك أي علامة على إحساسه بحسرة الهزيمة ولو قليلًا. ثم أكمل وكأنه يرى حُلمًا:

«ما هذه الهيئة يا تُرى؟ هل هؤلاء أصحاء؟ ولو كان الأمر كذلك، ما الفائدة التي ستعود عليهم من التباهي أمام الآخرين بصحتهم هذه؟

إن الحديقة مليئة بمن يمارسون الرياضة هنا وهناك. إنها حقًّا علامةُ الانحطاط ونهاية العالم. الأشياء التي يجب إظهارها على الملأ لا تظهر علنًا بأي حال. أنا أعني بالشيء الذي يجب إظهاره علنًا … حكمَ الإعدام. لماذا لا يتم إظهار الإعدام علنًا؟ ألا تعتقد أن نظام الأمن والأمان أثناء الحرب، تم الحفاظ عليه من خلال إذاعة الموت العنيف علانيةً؟ يقال إن علانية حكم الإعدام لم تَعُد تُطبَّق بسبب التفكير أن ذلك يجعل قلبَ الإنسان متعطشًا للقتل. كلام في منتهى الغباء. الناس الذين كانوا يتولَّون أمرَ الجثث بعد القصف الجوي قاموا جميعًا بذلك عن طيب نفس وفي رحمة وعطف.

إن مشاهدة عذاب الإنسان ودماءه وصرخات احتضاره، تجعل الشخص متواضعًا، وتجعل قلب البشر حساسًا مشرقًا هادئًا مسالمًا. في ذلك الوقت لا نصير متوحشين قاتلين مطلقًا. إن اللحظة التي نتحوَّل فيها فجأةً إلى متوحشين، هي على سبيل المثال، في ظهيرة يوم ربيعي مشمس كهذا اليوم، عندما نتأمل في شرود أشعَّة الشمس المتسربة من بين الأشجار، وهي تهفُّ علينا فوق حشائش تم قصُّها بعناية كبيرة، ألا تعتقد هذا؟

هكذا وُلدتِ الكوابيس المتنوِّعة في العالم، والكوابيس المتعددة الموجودة في تاريخ البشرية. ولكن منظر البشر وقد غاب عنهم الوعي من الألم وهم غارقون في دمائهم تحت الشمس الحارقة، يعطي الكوابيس ملامحَ واضحة، فتتجسَّد. ويصبح الكابوس مجرَّد ألم

جسماني للآخرين فقط لا غير، ولا علاقة له بمعاناتنا. بالمناسبة نحن لا يمكننا الشعور بآلام الآخرين. يا لها من نجاة!»

ولكني الآن كنتُ أريد أن أستمع إلى سيرته بعد أن تخلَّص من عذريته، وليس إلى استبداده الدموي هذا (بالطبع كان ذلك الأمر بمفرده له ما له من جاذبية). فكما ذكرتُ سابقًا، كنتُ أتوقَّع منه «الحياة» على الدوام. ولذا قمت بفتح فمي والإشارة إلى ذلك السؤال.

«أتقصد المرأة؟ حسنًا. أنا في الفترة الأخيرة أصبحتُ أعرف تمامًا المرأة التي تحب رجلًا أَحْنَفَ بحَدْسي. هل تعلم! هذا النوع من النساء موجود. ربما كانت ستخفي هذه الذائقة في حب الرجل الأحنف طوال عمرها وتذهب معها إلى القبر، إنها الهواية الشريرة الوحيدة، والحُلم الوحيد لهذا النوع من النساء.

حسنًا، إن الطريقة التي تعرف بها المرأة التي تحب الأحنف من نظرة واحدة هي: أولًا هي في العادة تكون ذات جَمال فوق العادة، أنفها معقوف ببرود، ولكن كان فمها متدليًا نوعًا ما ...»

في ذلك الوقت جاءت امرأة تمشي من الجهة الأخرى.

الفصل الخامس

حسنًا، لم تكن تلك الفتاة تمشي في فناء الجامعة. ولكنها كانت تمشي في الطريق المحاذية للمنطقة السكنية. كانت الطريق منخفضة بحوالي قدمين عن الفِناء. جاءت قادمة من تلك الطريق. وكانت الفتاة قد خرجت من بوابة جانبية لمنزل عظيم مبني على الطراز الإسباني. ذلك البيت له مدخنتان، وله نافذة بأسلاك حديدية مائلة، وله سقف بزجاج غرف الحرارة الواسع، يعطي انطباعًا بأنه سهل الكسر للغاية، ولكن الشبكة المرتفعة التي من الطبيعي أن تكون قد أُنشئت بسبب معارضة مالك هذا البيت، تقف عاليًا على ضلع الفِناء في مواجهة البيت وتفصل بينهما الطريق.

كنتُ أنا وكاشيواغي نجلس على الأرجوحة التي بأقصى طرَف الشبكة. أصابتني الدهشة الشديدة عندما شاهدتُ وجه الفتاة. والسبب أن ذلك الوجه النبيل كانت به ملامح وجه «مُحِبَّة الأحنف» الذي شرحه كاشيواغي لي. ولكن بعد ذلك أصبحتُ أرى أن تلك الدهشة كانت منتهى الغباء، ولكن كاشيواغي كان يعرف ذلك الوجه منذ وقتٍ بعيد، وربما كان يحلُم به.

جلسنا كما نحن ننتظر الفتاة. تحت أشعة شمس الربيع التي تملأ المكان، على الجانب البعيد قمةُ جبل هيئزان باللون الأزرق الغامق، وعلى هذا الجانب امرأة تمشي مقتربة منَّا تدريجيًّا. كنتُ لا أزال غير قادر على الإفاقة من العاطفة القوية التي أعطتها لي كلمات كاشيواغي منذ قليل، تلك الكلمات السحرية التي تقول إنه نفسه يحقِّق شهوتَه في نفس وقت انغماسه اللانهائي في عالم الخيال، حيث تتبعثر قدمه الحَنْفَاء وامرأته في عالم الواقع الحقيقي مثل نجمتين ولا تتلامسان. في تلك اللحظة حجب الغيم سطحَ الشمس، وأحاطتنا أنا وكاشيواغي ظلالٌ خفيفة، فظهر عالمنا وكأنه تحوَّل على الفور إلى خيال. كل شيء غير مؤكَّد في لون رمادي، حتى وجودي ذاته أصبح غير مؤكد. ثم مع قمة جبل هيئزان

الأرجوانية البعيدة، والمرأة النبيلة التي تمشي الهوينى، كان هذان الشيئان فقط يتألقان في عالم الوجود الفعلي، ويُعتقد أنهما فقط الموجودان وجودًا حقيقيًّا.

كانت المرأة تمشي بكل تأكيد. ولكن انتقال الوقت، يشبه المعاناة المتزايدة، المرأة تقترب قادمة ولكن يظهر بوضوح معها وجهٌ ليس له بها أي علاقة.

نهض كاشيواغي واقفًا. وهمس في أذني بصوتٍ ثقيل ولكنه مكتوم:

«دعنا نمشي. ثم افعل ما أقوله لك.»

لم يكن أمامي إلا المشي. بموازاة المرأة وفي نفس الاتجاه، كنا نسير نحن الاثنان بارتفاع حوالي قدمين عن الطريق التي تسير فيها المرأة بمحاذاة السور الحجري.

«اقفز من هنا.»

دفع كاشيواغي ظهري من الخلف بأصابعه الحادة. تخطيتُ بقدميَّ السورَ الحجري المنخفض للغاية وهبطتُ قفزًا إلى الطريق. ارتفاع قدمين لا يعني شيئًا. ولكن كاشيواغي الأحنف الذي تبِعني، سقط واقعًا بجواري مُصدرًا صوتًا مرعبًا. كان أمرًا طبيعيًّا جدًّا أنه يسقط بعد أن فشل في القفز من تلك المسافة.

ضرب ظهر الزي المدرسي الأسود، أمواجًا كبيرة تحت عيني مباشرةً، ولكن المنظر الخلفي المنبطح على ظهره لم يبدُ لي إنسانًا، وللحظة بدت لي تلك الهيئة بقعةً سوداء عملاقة بلا معنًى، مثل تجمُّع الماء المعكَّر بعد سقوط المطر.

انهار كاشيواغي معوجًا عند مقدمة الطريق التي تأتي فيها المرأة. وعندها توقَّفت المرأة متسمِّرة بلا حَراك. وأخيرًا جثوتُ بركبتي على الأرض محاولًا مساعدة كاشيواغي على الوقوف، ولكن بدا لي من أنف المرأة السامق البارد، وفمها الفاتر قليلًا، وعينيها الدامعتين، من كل هذه الأشياء، لحظيًّا بدت لي ظلال يويكو.

ولكن اختفى شبح الظلال على الفور، وتلك المرأة التي لم تتخطَّ العشرين من عمرها، نظرت إليَّ نظرة احتقار، وبدا أنها تحاول أن تتخطاني.

وكاشيواغي كان أسرع مني في ملاحظة ذلك بحساسية. فبدأ في الصراخ. تردَّد صدى ذلك الصراخ المرعب في جنبات المنطقة السكنية التي ليس بها أثر لإنسان.

«يا عديمة الإحساس! هل ستتركينني هكذا وترحلين؟ لقد أصبحتُ بهذه الحالة من أجلكِ أنت!»

كانت المرأة التي نظرت إلى الخلف ترتعش. حاولتْ أن تحكَّ خدَّها الذي شحب وانعدمت منه الدماء بأطراف أصابعها الرفيعة الجافة. وأخيرًا قمتُ أنا بالسؤال: «ما الذي يجب فِعله؟»

كاشيواغي الذي كان قد رفع وجهه بالفعل، حملق في المرأة، وقال وهو يؤكد على كل كلمة من كلامه.

«أليس في بيتكِ دواء على الأقل؟»

صمتت الفتاة فترة، ثم في النهاية أدارت لنا ظهرها، وعادت من نفس الاتجاه الذي أتت منه. ساعدتُ كاشيواغي حتى وقف على قدميه، كان ثقيلًا للغاية، وتلاحقت أنفاسه بما يبدو عليه من الألم، ولكن بعد أن أعرتُه كتفي ليستند عليها وبدأ المشي، تحرَّك جسده بخفة على غير المتوقَّع.

... جريتُ ووصلتُ إلى المحطة التي أمام موقف كاراسوما. وركبت الترام قفزًا. وأخيرًا انتظمت أنفاسي، عندما بدأ الترام في التحرُّك متوجهًا إلى المعبد الذهبي. وكان باطن يدي مليئًا بالعَرق.

حضنتُ كاشيواغي حتى فتحة الباب الجانبية لذلك البيت الإسباني الطراز، وبعد أن دخلت الفتاة مباشرةً، أنا الذي هجم عليَّ الرعب، تخليتُ عن كاشيواغي هناك، وعدتُ هاربًا دون النظر إلى الخلف. ولم يكن لديَّ أيُّ متسع من الوقت لكي أمرَّ على الجامعة. جريتُ في ممر المشاة الغارق في الهدوء والسكينة. جريت أمام البيوت المتراصة التي تتكوَّن من محلات الشاي والحلويات والأجهزة الكهربائية. في ذلك الوقت كان يلمع على طرَف عيني شيءٌ ما بلونين بنفسجي وأحمر. وأعتقد أن ذلك على الأرجح كان المصباح الورقي الذي به العلامة المميزة لتلك العائلة يتدلَّى من فوق السور الأسود لشجر البرقوق، وكان ملفوفًا على البوابة نفس الستائر البنفسجية لقصاري شجر البرقوق، رأيتها عندما جريت مخترقًا المنطقة التي أمام مبنى كوتوكو التابع لديانة تنري.

أنا نفسي لم أكن أعلم إلى أين أنا متَّجه. وعندما مرَّ القطار تدريجيًّا إلى موراساكينو عرفتُ أن قلبي الذي اضطرب فجأةً يستهدف المعبد الذهبي.

كان عدد الزائرين للمعبد الذهبي ذلك اليوم هائلًا، رغم أنه ليس يوم عطلة، ولكن ربما لأننا في الموسم السياحي. نظر الدليل العجوز بريبة إلى هيئتي وأنا أُسرِع إلى المعبد الذهبي متخطيًا صفوفَ الزائرين.

وهكذا أصبحتُ أمام المعبد الذهبي في الربيع محاطًا بجموع الناس البغيضة والغبار المتصاعد. في وسط تردُّد صوت الدليل العالي، كان المعبد الذهبي يُخفي تقريبًا جَماله المعتاد، وبدا وكأنه يتصنَّع التجاهل. كان انعكاس الظل على البِركة فقط ساطعًا وواضحًا. ولكن حسب طريقة الرؤية، مثل تمثال بوذا المرحِّب، المحاط بالعديد من البوديساتفا

في لوحة نزول بوذا والقديسين، تتشابه سُحب الغبار مع اللون الذهبي للسُّحب المحيطة بتماثيل البوديساتفا، كذلك شكلُ المعبد الذهبي المبهم في الغبار، يتماثل مع ألوان الرسم القديمة التي شحبت، ومكوِّنات الصورة التي بَليت. ذلك الزحام والضجيج، يدخل في نقاء داخل هيئة الأعمدة المنحوتة بدقة، لم يكن من العجيب أن يُمتص طائر العنقاء الذي في قمة كوكيوتشو الصغيرة إلى داخل السماء شبه البيضاء التي تقف شامخةً ملاصقة ترتفع تدريجيًّا. كان المبنى المعماري يسيطر ويحكم بمجرد وجوده فقط في ذلك المكان. كلما زاد الضجيج المحيط، فالمعبد الذهبي الذي يخفي في غربه مبنى السوسيه، وكوكيوتشو الذي يعتلي قمةَ الطابق الثاني ويرفع فجأة، هذا المبنى المعماري ذو التماثل الرقيق، يقوم بفاعلية مرشح المياه الذي يحوِّل المياه المعكَّرة إلى ماء نقي. لا يرفض المعبد الذهبي صخبَ الأحاديث الشخصية للناس المحيطة به، فتدخل بين فراغات الأعمدة الحنونة، في النهاية، تترشَّح إلى سكون واحد ونقاء ووضوح واحد. بعد ذلك يحقِّق المعبد الذهبي على هذه الأرض في غفلة من الزمن شيئًا شبيهًا بالظل الساقط على البِركة الذي لا يهتز ولو قليلًا.

هدأ قلبي، وبصعوبةٍ بالغة انخفض مقدار الرعب. كان الجَمال بالنسبة لي، يجب أن يكون هكذا. فهو يحجبني عن الحياة، ويحميني منها.

قمتُ بالدعاء من كل قلبي:

«لو كانت حياتي مثل حياة كاشيواغي، أرجو أن تحميني بأي حال؛ لأنني لا يبدو أنني أستطيع تحمُّل ذلك.»

في الحياة التي يُلمح إليها كاشيواغي، والتي مثَّلها أمامي على الفور، كان معنى الحياة هو نفسه معنى التدمير. ولم تكن تلك الحياة إلا أحد أنواع الرِّعشة المؤلمة التي ينقصها الطبيعية، كما ينقصها جَمال التكوين مثل المعبد الذهبي. والحقيقة أنني كنتُ منجذبًا بشدة إلى ذلك، وحددتُ اتجاهي في ذلك، ولكن في البداية كنتُ مرعوبًا من ضرورة إغراق يدي في الدماء من قطع الحياة المليئة بالأشواك. لقد احتقرتُ غريزة كاشيواغي وعقلانيته بنفس الدرجة. مثل الكرة ذات الشكل المشوَّه، كان وجوده ذاته، يدور متدحرجًا ويحاول أن يحطِّم حائطَ الواقع. لم يكن حتى فعلًا من الأفعال. بمعنى أن الحياة التي ألمح إليها كانت لعبة خطيرة عبارة عن تنكُّر مجهول، تُحطِّم الواقع الذي يسخر منَّا، من أجل تطهير العالم لكيلا يتضمنَ أيَّ قدْر من الجهل مرةً أخرى.

والسبب لذلك أنني بعدها، رأيت على مسكنه البوستر التالي:

كان البوستر عبارة عن رسمة مطبوعة على لوح الإردواز الجميل لجمعية رحلات جبال الألب اليابانية، وفوق قمَّة الجبال البيضاء التي تطفو على سماء زرقاء، مكتوب عليها

بالعرض «ندعوك ... إلى العالَم المجهول!» مسح كاشيواغي تلك الحروف وقمة الجبل بخطٍّ أحمر ممسوح مشكِّلًا علامةَ إكس كبيرة وكتب على عجلٍ بخطه المتراقص الذي يجعلك تتذكَّر حركة قدمه الحَنْفاء:

«لا يمكنني الصبر على حياة المجهول.»

ذهبتُ إلى الجامعة في اليوم التالي، وأنا قلِقٌ على كاشيواغي. عندما أعيد التفكير في هروبي ذلك اليوم عائدًا وتركه بمفرده، أرى أنه سلوك يعتبر دليلًا على الصداقة القوية، ولذا لم أكن أحسُّ بمسئولية كبيرة تجاه ذلك السلوك، ولكن كان لديَّ قلق حيال ماذا لو لم أجِده الآن موجودًا داخل قاعة المحاضرات. ولكن عندما اقترب وقتُ بداية المحاضرة بقليل، رأيت كاشيواغي يدخل القاعة رافعًا كتفيه بطريقةٍ غير طبيعية ولا يختلف بتاتًا عنه في العادة.

في وقت الراحة أمسكت على الفور بذراع كاشيواغي. كانت مثل هذه الحركة النشيطة والحيوية بالنسبة لي أمرًا نادرَ الحدوث للغاية. ضحك كاشيواغي بطرَف فمه وجاء معي إلى الممر.

«هل برأ الجُرح؟»

«أي جُرح تقصد؟»

... نظر كاشيواغى إليَّ وهو يبتسم في شفقة.

«متى أصابني جُرح؟ هل رأيتَ حُلمًا أو ما شابه أنني جُرحت؟»

ظللتُ دون أن أنطق بالجملة التالية. ثم كشف لي الملعوب بعد أن بالغ في التمنُّع.

«لقد كان ذلك تمثيلًا. لقد تدرَّبت أكثرَ من مرة على الوقوع في تلك الطريق، وتعلَّمت كيف أقع جيدًا بمبالغة كبيرة وكأن عظامَ الساق قد انكسرت. ولكن تجاهُل الفتاة ومرورها أمامي دون اعتبار كان خارجَ نطاق حساباتي. ولكن يمكنك أن ترى الآن. فلقد أصبحتِ الفتاة على وشْك الافتتان بي. لا، لقد أخطأتُ هذا القول. بمعنى أنها على وشْك الافتتان بقدمي الحَنْفاء. تقول إنها تريد أن تضع على قدمي صبغةَ اليود بنفسها.»

رفع طرَف البنطلون عاليًا وأراني ساقه المصبوغة بلون أصفر باهت.

وقتها ظننتُ أنني رأيت إحدى حِيَله الخداعية، ولكن وقوعه في عُرض الطريق هكذا، كان الغرض منه بالطبع أن يلفت نظر الفتاة، ولكن ألا يكون تظاهره بالإصابة كان الهدف منه إخفاء حَنَف قدمه؟ ولكن لم يؤدِّ ذلك التساؤل إلى الشعور بأي احتقار، بل على العكس، كان سببًا لزيادة الإحساس بالأُلفة تجاهه. بطريقة إحساس تليق بشاب عاديٍّ، كنت أعتقد أنه كلما كانت فلسفته مليئة بالحِيَل الخداعية، كانت برهانًا على إخلاصه تجاه الحياة.

لم يتفاءل تسوروكاوا لعلاقتي مع كاشيواغي، وعندما جاء يحذِّرني تحذيرًا مليئًا بمشاعر الصداقة، أحسستُ بالانزعاج منه. ليس هذا فقط بل إنني اعترضتُ عليه وقلت له إذا كان الأمر يخصه يمكنه الحصول على أصدقاءَ رائعين، أما أنا فكاشيواغي هو المناسب لي. لا يمكن وصفُ لون الحزن الذي طفا على عين تسوروكاوا وقتَها، وكنتُ أتذكَّر ذلك فيما بعدُ بدرجة عنيفة من الندم.

جاء شهر مايو، فوضع كاشيواغي خطةً لكي نذهب للَّهو في منطقة أراشياما نغيب فيها عن المحاضرات في يوم من أيام الأسبوع العادية لنبتعدَ عن زحام الناس في الإجازة. وقال بما يتناسب مع شخصيته، إذا كان الجو صحوًا وجيدًا فلن نذهب، ولكن إذا كان الجو غائمًا ومظلمًا في كآبة فسنذهب. ووضع خُطة لكي تأتيَ معه فتاة المنزل الذي على الطراز الإسباني، وتأتي فتاةُ مسكنه من أجلي.

اتفقنا على التواعد في محطة كيتانو بخط قطار كيفوكو الكهربائي الذي يُطلق عليه اسم «راندن». ويومها لحسن الحظ كان الجو غائمًا وكئيبًا وهو أمرٌ نادر الحدوث في شهر مايو.

وكان تسوروكاوا قد أخذ عطلة مدة أسبوع وعاد إلى طوكيو بسبب حدوث بعض المشاكل العائلية. لم يكن من النوع الذي يفشي الأسرار مطلقًا، ولكن أعفاني ذلك من إحساس الألم لوجوب التحايل للاختفاء منه، بعد أن نأتيَ معًا إلى الجامعة في الصباح.

أتذكَّر أن هذه النزهة الجبلية كانت تجربةً مريرة بالنسبة لي. على أي حال رغم أننا جميعًا كنا شبابًا، ولذا تلوَّنت تلك النزهة الجبلية كلها في ذلك اليوم بمشاعر الاكتئاب والغضب والقلق والعدمية التي يحملها الشباب. وعلى الأرجح كان كاشيواغي قد تنبأ بكل شيء، ولا شك أنه اختار ذلك اليوم بهذا الجو الكئيب الملبَّدة سماؤه بالغيوم.

كانت الرياح في ذلك اليوم جنوبية غربية، وعندما نعتقد أنها تزيد من قوَّتها، نجدها فجأةً تتوقَّف، وتصبح النسائم القلقة مثيرةً للضجيج. وكانت السماء مظلمة، ولكن لم يكن مكان وجود الشمس محجوبًا تمامًا. فقد كانت تطلِق شعاعًا أبيضَ وكأنها صدرٌ أبيضُ يبدو خافتًا من بين ياقة ملابس كثيرة مزدوجة يرتديها جزء من الغيوم، في العمق الذي يغبِّشه ذلك البياض يمكن معرفة مكان وجود الشمس، ولكن يذوب ذلك مرةً أخرى على الفور في سماء الغيوم المتجانسة ذات اللون الرمادي الغامق.

لم يكن وعد كاشيواغي كذبًا. فقد ظهر بالفعل عند بوابة التذاكر محميًّا بفتاتين.

كانت إحداهما هي بالفعل تلك الفتاة. الفتاة الجميلة ذات الأنف الطويل البارد، وحواف الفم المتدلية، ترتدي ملابسَ غربية الطراز مصنوعة بقماش مستورد وتدلي من كتفها زمزمية الماء. أمام تلك الفتاة لا يمكن أن نقارن مقارنةً عادلة مع فتاة المسكن القصيرة ذات سِمنة خفيفة لا من حيث ملابسها ولا ملامحها. كانت أنوثتها تقتصر فقط على الفك الصغير والشفتين اللتين بدتا كأنهما موثقتين.

انهارت بالفعل مشاعرُ النزهة الجبلية الممتعة، في داخل القطار أثناء الذهاب. لم أستطِع الاستماع جيدًا إلى محتوى ذلك الحديث، كان كاشيواغي والفتاة لا يتوقَّفان عن العراك اللفظي، وكانت الفتاة من حين لآخر تعضُّ على شفتيها لتستطيع التحكم في دموعها. كانت فتاة المسكن لا تبالي بأي شيء، وكانت تدندن بصوت خفيض أغنيةً منتشرة. فجأة بدأت فتاة المسكن تحكي القصة التالية متوجِّهة بالحديث إليَّ أنا:

«بجوارنا معلِّمة فن تنسيق الزهور في غاية الجَمال، منذ أيام، حدَّثتني بقصة رومانسية حزينة. أثناء الحرب كان لدى المعلِّمة حبيب، أصبح ضابطًا في القوات البرية، وصار من المحتَّم عليه الذهاب إلى الحرب في القريب العاجل، فقامت بتوديعه خلال زمن قصير جدًّا في معبد نانزنجي. كان أهلها رافضين هذه العلاقة بينهما، ولكن قبل الوداع بفترة بسيطة كانت قد حملت في طفل منه، ولكن الطفل المسكين وُلد ميتًا. الضابط أيضًا في نهاية انتحابه عليها، قال لها على الأقل أريد أن أرضع لبنك لكي تكوني أمًّا حقيقية، ولأنه لا وقت قالت إنها أرضعته لبن ثديها بعد أن حلبت ثديها وأخرجت اللبن في كوب شاي. ثم بعد مرور شهر، مات ذلك الحبيب في الحرب. وبعد ذلك سلكت هذه المعلِّمة سبيلَ العفة والطهارة، وآثرت أن تعيش بمفردها. رغم أنها ما زالت شابة وجميلة.»

لقد ارتبت في أذني. عاد إلى ذاكرتي ذلك المنظر الذي لا يمكن تصديقه والذي شاهدته أنا وتسوروكاوا من مدخل جبل معبد نانزنجي في فترة نهاية الحرب. وتعمَّدتُ ألا أتحدث بتلك الذكريات إلى الفتاة. والسبب هو أنني اعتقدتُ أنه إذا تحدَّثتُ عن ذلك، فالتأثُّر الذي أحدثَته هذه القصة التي سمِعتها توًّا، سيخون التأثُّر السحري الذي أحسستُ به وقتها، ومن خلال صمتي عن الحكي، لن تحُلَّ القصة الحالية لغزَ السحرية فقط، بل على العكس ستجعل السحرية مزدوجة، وأحسستُ أن ذلك سيجعلها أكثرَ عمقًا بدرجة كبيرة.

كان القطار وقتها يمر بجوار غابة من الخيزران الضخم عند منطقة ناروتاكي. كان الخيزران مصفرًّا لأننا في موسم الذبول من شهر مايو. رغم أن الريح التي تهزُّ الأفرع تجعل الأوراق الذابلة تهطل كالمطر وسط الغابة ذات الكثافة العالية، إلا أن الأجزاء القريبة

من الجذور وكأنها لا علاقة لها بذلك، كانت هادئة تتقاطع عُقلاتها الغليظة حتى نخاع النخاع في فوضى مع بعضها البعض. وتتمايل أعوادُ الخيزران القريبة بدرجةٍ مُبالَغ فيها في اللحظات القصيرة التي يسرع فيها القطار بجوارها. ولفت نظري أن أحد الأعواد كان بارزًا وفتيًّا أخضرَ لامعًا. ظلَّ منظر ذلك العود وهو يميل بتألُّم، بانطباع الحركة المريبة الفاتنة، فترة في عيني، ثم ابتعد ورحل مختفيًا عن العيون.

وصلنا إلى أراشياما، بعد أن أتينا إلى ضفاف جانب جسر توغتسو، ثم ذهبنا لزيارة قبر الأميرة «كوغو» الذي لم يكن أحدٌ منَّا على علم بوجوده هنا حتى الآن.

أخفَت هذه الأميرة نفسَها في ساغانو مخافةَ تعرُّضها لغضبِ القائد العسكري تايرا نو كيوموري. وبناءً على أمرٍ إمبراطوري خرج ميناموتو نو ناكاكوني للبحث عنها، واكتشف مكان اختبائها من خلال سماعه صوتًا خافتًا لآلة القانون في ليلة قمرية من ليالي الخريف. وكان لحن القانون الذي كانت تعزفه هو «مشاعر حب للزوج». يظهر المشهد التالي في مسرحية «كوغو» لمسرح «النو»:

«عندما ظهر في الليل وبه حنين وشوق إلى ضوء القمر، أتى إلى طريق بوذا، وهناك سمِع صوتَ آلة القانون. ولم يكن يعرف هل هذا هو صوت العاصفة في قمَّة الجبل أم صوت الريح التي بين الصنوبر. وعندما استعلم عن صوت القانون هذا، قيل له إنها سيدة تعزف لحن «مشاعر حب للزوج» معبِّرة عن مشاعر حبِّها لزوجها.»

ولكن الأميرة عاشت بعد ذلك النصفَ الأخير من حياتها في كوخ ساغانو، تصلي من أجل أن ينال الإمبراطور تاكاكورا النيرفانا.

المقبرة التي كانت في نهاية طريق قصيرة وضيقة، لم تكن تزيد عن مجرد عمود حجري صغير محشور بين شجرتين عتيقتين هما شجرة قيقب عملاقة وشجرة برقوق متآكلة بأقصى درجة. قمتُ أنا وكاشيواغي كراهبين ورِعين بتلاوة جزء قصير من السوترا. انتقلت لي طريقة تلاوة كاشيواغي الفظيعة والغارقة في الجِدية وهو يدنِّس السوترا، ولكني استطعت الانتهاءَ من التلاوة بنفس الطريقة الروحية للطلاب العاديِّين الذين يتلون السوترا من خلال أنوفهم، ولكن هذا التدنيس البسيط ساعد في أن تتحرَّر أحاسيسي بشدة وجعلتني أشعر بالانتعاش والحيوية.

قال كاشيواغي:

«إن المقبرة الفخمة شيءٌ مأسوي. فالقوة السياسية، والقوة المالية، تُبقِي مقابرَ عظيمة، مقابرَ في منتهى المهابة. ولأن هؤلاء لم يكن لديهم أثناء حياتهم أي قدْر من قوة الخيال،

فالمقابر كذلك من جهتها تُبنى دون أي مساحة من قوة الخيال. ولكن الفخامة من جهة أخرى وُلدت فقط خلال قوة خيال النفس والآخرين، فالمقبرة بهذا الحال تبقى شيئًا لا حيلة له إلا بتشغيل قوة الخيال. وهذه الحالة أراها أنا مثيرة للشفقة. لأنه يجب على الشخص أن يستجديَ قوة الخيال حتى بعد موته.»

قاطعتُ حواره بحيوية ونشاط قائلًا:

«ما من فخامة إلا داخل الخيال فقط. ما الجوهر الحقيقي للفخامة، الجوهر الحقيقي الذي تتحدَّث أنت عنه؟»

«إنه هذا.»

ضرب كاشيواغي بكفِّ يده المنبسطة على رأس العمود الحجري المليء بالفطر العفن.

«إنه الحجر أو العظام، الجزء غير العضوي المتبقي من الإنسان بعد موته.»

«يا للغباء! إنه تفكيرٌ بوذي صرف.»

«لا بوذية ولا غيرها. الفخامة والثقافة، وما يفكِّر فيه الإنسان من شيء جَمالي، كل هذه الأشياء، جوهرها الحقيقي هو شيء أجدبُ وغير عضوي. لن أذكر معبد ريوانجي، ولكن لا يزيد عن حجارة. الفلسفة كذلك حجارة، الفن هو كذلك حجارة. ثم إذا تحدثنا عن اهتمام البشر العضوي، أليس أمرًا مؤسفًا؟ إنه السياسة فقط. إن البشر على الأغلب كائن حي يدنِّس نفسَه بنفسه.»

«الشهوة الجنسية أيهما يا تُرى؟»

«الشهوة الجنسية؟ أعتقدُ أنها بين بين. الإنسان والحجر يعودان أحدهما إلى الآخر من خلال لعبة العفريت.»

فكَّرتُ أن أزيد في الحال من الهجوم على فكرته عن الجَمال، ولكنَّ الفتاتين اللتين ملَّتا نقاشنا، كانتا على وشْك التوجه إلى الطريق الضيقة للعودة؛ لذا لحِقنا بهما. عند تأمُّل نهر هوزو من الطريق الضيقة، ثمَّة جسر توغتسو الشمالي الذي بدا وكأنه جزء من قناطر نهرية. جبل أراشياما الذي في الجهة الأخرى من النهر، رغم أنه مدفون في مساحة خضراء كئيبة، هذا الجزء فقط من النهر، يمتد خطٌّ أبيض واحد من الرذاذ الحيوي المنعش، ويتردَّد صدى خرير الماء في المكان.

ولم يكن عددُ المراكب الطافية على سطح النهر قليلًا. ولكننا تقدَّمنا في الطريق المحاذية للنهر، وعندما دخلنا من بوابة حديقة كاميامًا في نهاية الطريق، لم يكن على الأرض من القمامة المتناثرة إلا الأوراق فقط، وأدركنا أنه يوم يندُر فيه وجود زوار للتنزُّه داخل الحديقة.

عند البوابة نظرنا إلى الخلف، ومرةً أخرى تأمَّلنا منظرَ أوراق الأشجار الشابة على جبل أراشياما ونهر هوزو. وعلى الضِّفة المقابلة يسقط شلال صغير.

«إن المنظر الجميل عبارة عن جحيم.»

مرةً أخرى قال كاشيواغي ذلك.

فكرتُ أن طريقة حديث كاشيواغي تلك عشوائية على الأرجح. ولكن أنا أيضًا كذلك، تعلمتُ منه، وجرَّبت أن أنظر إلى ذلك المنظر على أنه جحيم. ولم تكن تلك الجهود بلا جدوى. حتى في منظر الأوراق اليانعة الساكنة التي لا يؤبه لها الذي أمام عيني، كان الجحيم يتأرجح. يبدو أن الجحيم يظهر كما يحلو لك ليلًا ونهارًا، في كل وقت وفي كل مكان. يبدو أنه يأتي على الفور في المكان الذي نتطوَّع بدعوته إليه.

أصبحت زهور جبل أراشياما، الذي يقال إن أشجار الكرز التي في جبل يوشينو نُقلت إليه في القرن الثالث عشر، جميعُها بالفعل شجرًا ذا أوراق[1] فقط. عند فوات موسم الأزهار، لا تزيد الزهور في هذه الأرض عن اسمٍ يطلق عليها فقط مثل اسم امرأة جميلة ماتت.

ولأن الصنوبر كان الشيء الأكثر وجودًا في حديقة كامياما؛ لذا كانت ألوان الموسم في هذا المكان لا تتحرَّك. كانت كل أشجار الصنوبر تمتد سامقة في الحديقة الضخمة التي بها تعرُّجات كبيرة، ولم تكن بها أوراق إلا في الأجزاء المرتفعة ارتفاعًا عاليًا، وهذه الأعداد المهولة من الجذوع العارية تتقاطع معًا بلا قواعد تنظِّمها، فتجعل شكلَ الحديقة مضطربًا.

إذا اعتقدنا أننا نصعد، نجد منحنًى ملتويًا يلفُّ الحديقة، وهنا وهناك جذع مقطوع من شجرة أو ذابل، وأجزاء صنوبر صغيرة، وتتفتح أعدادٌ لا نهائية من زهور الأزالية حول السطح الأبيض لصخرة عملاقة مدفون أغلبها في الأرض. بدا لونها تحت السماء ذات الغيوم، محملًا بالنوايا السيئة.

تسلَّقنا من جانب أرجوحة مبنية في تجويف أرضي يلهو عليها ولدٌ وبنت معًا، واسترحنا عند ظليلة تعلوها مظلة من الخيزران عند قمة هضبة صغيرة. يمكن رؤية الحديقة بكاملها

[1] أشجار الكرز تزهر أولًا في بداية الربيع، بزهور الكرز (ساكورا) البديعة حوالي أسبوعين، ثم تسقط الزهور بفعل الرياح والأمطار، لتبدأ الأوراق الخضراء في الظهور وتصبح الأشجار بها أوراق خضراء فقط حتى الخريف. في الخريف تتلوَّن الأوراق بألوان متباينة بين الأصفر والأحمر، ثم تسقط الأوراق في الشتاء لتصبح الأشجار سوداء عارية حتى بداية الربيع، فتكتسي في الربيع مرة أخرى بالزهور الوردية اللون وتتكرَّر هذه الدورة كلَّ عام. (المترجم)

تقريبًا على الناحية الشرقية من ذلك المكان، ويمكن النظر من جهة الغرب من علٍ إلى ماء نهر هوزو المختبئ خلف الأشجار. صعِد صرير صوت الأرجوحة الذي يشبه صوتَ اصطكاك الأسنان، دون توقُّف إلى الظليلة.

فتحت الفتاة صرةً كانت تحملها، ولم يكن ما قاله لي كاشيواغي عن عدم الحاجة إلى إحضار وجبة غداء معنا كذبًا. كان في الصرة سندويتشات تكفي أربعة أشخاص، وأنواع من الحلويات المستوردة التي يصعُب الحصول عليها، وفي النهاية ظهر ويسكي من شركة سانتوري لا يمكن الحصول عليه إلا من السوق السوداء لأنه يوجَّه فقط لاحتياجات قوات الاحتلال. ويقال إن كيوتو في ذلك الوقت، كانت موضعَ السوق السوداء المركزية لمنطقة كيوتو وأوساكا وكوبيه.

تقريبًا لم أشرب منه شيئًا، ولكن أخذتُ الكأس التي قُدِّمت إليَّ مع كاشيواغي بعد أن لامستُ كفيَّ إحداهما بالأخرى. أما الفتاتان فقد شربتا الشاي الأحمر من الزمزمية.

كنتُ حتى ذلك الوقت أرتاب في أنَّ بين الفتاة وكاشيواغي علاقةً حميمية إلى هذه الدرجة. لم أفهم لماذا تقيم فتاة تبدو صعبةَ المراس مثل تلك الفتاة علاقةً حميمية مع طالبٍ أحْنَفَ فقيرٍ مثل كاشيواغي. بعد أن شرب كأسين أو ثلاثًا قال كاشيواغي وكأنه يجيب عن هذا التساؤل:

«منذ قليل تعاركنا في القطار، أليس كذلك؟ السبب أن أهلها يلحُّون عليها في الزواج من رجلٍ تكرهه. وهي على وشْك أن تضعُف في الحال وتستسلم لهم. ولذا قلتُ لها إنني سأبذل كلَّ ما في وُسعي لأعيقَ ذلك الزواج، محاولًا أن أواسيَها حينًا وأهدِّدها حينًا آخر.»

هذا الكلام في الأصل لا يجب أن يقوله أمامها شخصيًّا، ولكن كاشيواغي كان يتحدَّث بهدوء كامل وكأنها ليست بجواره. وكذلك الفتاة التي كانت تسمع ذلك لم يبدُ على ملامحها أيُّ تغيير. كانت تضع حول جيدها الرشيق قلادةً زرقاء تتدلَّى منها حلية خزفية، معطية ظهرها لسماء غائمة، ويجعل الخط المحيط بالشعر المتماوج ملامحَ وجهها الواضحة بدرجة زائدة عن الحد، غيرَ واضحة. كانت العين مبتلة بدرجة زائدة عن المعتاد، ولهذا السبب تعطي العين فقط انطباعًا عاريًا وفاضحًا. وكانت حواف الفم المترهل كذلك، كما هو المعتاد منها مفتوحةً فتحةً رقيقة. وتسلَّلت من الفتحة الرقيقة بين تلك الشفتين صفوفُ أسنان حادة دقيقة، تبدو جافة وناصعة البياض. جعلتني أحسُّ كأنها أسنان حيوان صغير رقيق.

«إنها تؤلمني ... تؤلمني!»

صرخ كاشيواغي بصوتٍ يقترب من الحقيقي. ودون وعي نظرتُ أنا إلى وجه الفتاة المجاورة لنا. ظهر على ذلك الوجه ملامحُ مختلفة تمامًا، وفقدت عيناها السكينة، وارتعشتْ شفتاها بحركاتٍ متسرعة، وأظهر عدم اهتزاز أنفها البارد الناتئ لأي شيء تباينًا غريبًا، وانهار توافق وتماثل أجزاء وجهها.

«الصبر! الصبر! سأداويك حالًا! الآن حالًا!»

... لأول مرة أسمع صوتَ الفتاة الحاد والعالي المقزِّز ذلك. عوجَت الفتاة النبيلة رقبتَها وجعلت تستطلع المكانَ حولها، وعلى الفور جثتْ على ركبتيها فوق صخرة ظليلة، وحضنت ساق كاشيواغي. ومسحت خدَّها فيها وفي النهاية أخذت تقبِّل تلك الساق.

أصابني مرةً أخرى نفس الرعب الذي حدث لي في ذلك الوقت. ونظرتُ إلى فتاة المسكن. كانت فتاة المسكن تنظر إلى اتجاه مختلف تمامًا وتغني بأنفها.

... في ذلك الوقت يعتقد أن أشعة الشمس تسرَّبت من بين السحاب، ولكن ربما يكون ذلك خداعًا بصريًّا من عيني أنا. ولكن تولَّد اختلال في تركيبة المنظر العام للحديقة الهادئة، وسطح المنظر الشفاف النقي الذي يحيط بنا، غابة الصنوبر، أشعة النهر، الجبال البعيدة، ملمس الصخور البيضاء، زهور الأزالية المبعثرة ... أركان ذلك المشهد المتلئ بكل هذه الأشياء ركنًا ركنًا، أحسستُ أنه حدث شرخ دقيق ورفيع في سطح ذلك المشهد.

وفي الواقع، يبدو أن المعجزة التي يجب أن تقع قد وقعت. توقَّف كاشيواغي تدريجيًّا عن التأوه. ورفع وجهه، وعندما رفع وجهه، ألقى ناحيتي بنظرة تشبه الضحكة الساخرة.

«خفَّت! أمرٌ عجيب! عندما يبدأ الألم ثم تقومين بفعل ذلك لي، دائمًا يتوقَّف الألم.»

ثم أمسك بكلتا يديه شَعر الفتاة ورفعه لأعلى. الفتاة التي مُسِكت من شعرها نظرت ضاحكة لكاشيواغي بملامح كلبٍ وفيٍّ. بدا لي وجه الفتاة الجميل في تلك اللحظة، مع درجة الأشعة البيضاء المغيِّمة، كأنه وجه العجوز ذات الستين عامًا التي كلمني عنها كاشيواغي.

... ولكن كاشيواغي الذي قام بمعجزةٍ كان مرحًا. كان مرِحًا لدرجةٍ قريبة من الجنون. ضحِك بصوتٍ عالٍ، وعلى الفور رفع ركبة الفتاة عاليًا وقبَّلها. تردَّد صدى ضحكاته بين أطراف أفرع الصنوبر في الأرض المنخفضة.

«لماذا لا تغازلها؟» قال كاشيواغي ذلك لي أنا الصامت. «رغم أني قد أحضرت هذه الفتاة خصوصًا من أجلك. خسارة. أم إنك تخجل أن تتلعثم فتكون مدعاةً لضحكها؟ تلعثم! تلعثم! ربما تكون هذه الفتاة متيَّمة بالمتلعثمين!»

«هل أنت متلعثم؟»

قالت فتاة المسكن ذلك وكأنها تنتبه لهذا الأمر لأول مرة.

«إذن تجمَّع اليوم اثنين من الثلاثة المعاقين!»

طعنتني تلك الكلمات بعنف، وجعلتني أشعر بشعورٍ لا يحتمل البقاء معهم. وكان الأمر الغريب هو أن الحقد الذي أحسسته تجاه الفتاة، بدأ يتحول كما هو فجأة إلى رغبة، لكن مع نوع من الدُّوار.

«لنختبئ في مكانٍ ما، كلٌّ اثنين معًا. لِنعُد هنا مرة أخرى بعد مرور ساعتين إلى هذه الظليلة.»

قال كاشيواغي ذلك وهو ما زال ينظر من علٍ إلى الفتى والفتاة اللذين يركبان الأرجوحة بلا ملل.

هبطتُ مع فتاة المسكن، بعد أن افترقنا مع كاشيواغي وفتاته، من هضبة تويا متَّجهين ناحيةَ الشمال، ثم انعطفنا مرةً ثانية، وصعِدنا منحدرًا بزاوية ارتفاع ضئيلة في اتجاه الشرق.

قالت الفتاة:

«هذا الشخص جعل من فتاته «قديسة» إنها الحيلة المعتادة.»

سألتها بعد أن تلعثمتُ تلعثمًا شديدًا:

«لماذا تعرفين ذلك؟»

«إنه كذلك. أنا أعرف ذلك. فلي علاقة بالسيد كاشيواغي.»

«والآن لا، أليس كذلك؟ ولكن يا للعجب أنك قادرة على تحمُّل هذا الأمر!»

«إنه لا شيء. فما باليد حيلةٌ مع هذا المعاق.»

كانت تلك الكلمة هذه المرة على العكس أعطتني أنا شجاعة، وخرج السؤال التالي سلسًا دون تلعثم.

«ولكن أنتِ أيضًا كنتِ تحبين في وقتٍ ما ساق ذلك المعاق.»

«توقَّف عن هذا. إنها ساقٌ تشبه الضفدعة. أنا ... حسنًا ... أعتقد أن عيني ذلك الرجل هي عيون جميلة.»

وبهذا فقدتُ أنا شجاعتي ثانية، فمهما كان تفكير كاشيواغي، فقد كانت المرأة تحب فيه نوعيةَ جَمال لا ينتبه هو لها. ولكن أنا وبسبب الغرور الذي يجعلني أعتقد أنني لا أملِك شيئًا واحدًا لم أنتبه له بالفعل، كنتُ أرفض وجودَ هذا النوع فقط من الجَمال.

... حسنًا انتهينا أنا والفتاة، من صعود المنحدر، ووصلنا إلى سهلٍ صغير يغرق في هدوء عميق. يمكن للمرء بصعوبة رؤيةٌ ضبابية لجبل دايمونجي وجبل نيويغاتاكيه

وباقي الجبال، في الفراغات بين أشجار الصنوبر وأشجار السرو. وتغطي غابة الخيزران من الهضبة حيث كنا نقف وحتى أسفل المنحدر، الذي يقود إلى المدينة. عند حافة الغابة، تزهر شجرة كرز وحيدة متأخرة عن موعدها، ما زالت لم تسقط أزهارها بعدُ. وهذه في الواقع أزهار متأخرة جدًّا، ويأتيك اعتقادٌ أنها ما زالت محتفظة بأزهارها على هذا النحو بسبب أنها أزهرت في تباطؤ وتلعثم.

انقبض صدري، وثقلت مَعِدتي عبئًا. ولم يكن هذا بسبب الخمر. ولكن وقت الجِد، يزداد ثِقل الغريزة، فتحمل تركيبة تجريدية منفصلة عن جسدي، فيجثم فوق أكتافي. وكان ذلك يعطي شعورًا وكأنه مثل أجهزة التصنيع الحديدية الثقيلة السوداء.

وكما ذكرت مرارًا من قبل، كنت مقدِّرًا للغاية طيبةَ كاشيواغي أو ربما خباثته التي جعلتني أُقبِل على الحياة. فقد كنتُ أرى رؤيةً مؤكدة أنني — أنا الذي جرحتُ غمد خنجر زميلي الأقدم مني عندما كنت في المدرسة الإعدادية — غير مؤهل لدخول معترك الحياة من بابها الأمامي المشرق. فكان كاشيواغي هو أولَ صديق دلَّني على الطريق المظلمة التي تصلني بالحياة من بابها الخلفي المظلم. ومع أنه يبدو للوهلة الأولى مآله الهلاك، إلا أنه من الأفضل أن نعتبره أحدَ أنواع الخيمياء، فهو مفعَم بحيلٍ غير متوقَّعة، تُحوِّل الدناءة كما هي إلى شجاعة، وتُعيد ما يطلق عليه الرذائل إلى طاقة نقية وخالصة مرةً أخرى. ورغم ذلك، فإن الحقيقة أنها مع ذلك حياة. إنها حياة يمكن فيها التقدم للأمام والتنقُّل، والامتلاك والفقدان. حتى لو لم تكن حياة نموذجية، فهي تحتوي على كل قدرات ووظائف الحياة. فلو كانت تلك الحياة تعطينا، في مكانٍ ما لا يُرى في أعيننا نحن، كلَّ أنواع الحياة التي بلا هدف كمبدأ، فهذا يعني أكثرَ وأكثر أنها حياةٌ لها نفس قيمة الحياة العادية الأخرى.

أعتقد أنه لا يمكنني القول إن كاشيواغي ليس سكرانَ. مهما كان اعترافه بالكآبة، كنتُ أعرف منذ زمن بعيد أن ذلك الاعتراف نفسه غارق في السُّكر. ثم الذي يُسكِر البشر على أي الأحوال هو الخمر.

... كان المكان الذي جلسنا فيه هو تحت ظل زهور أزالية تآكلت وبهت لونها. لا أدري ما هو سبب أن فتاة المسكن صارت عندها رغبة مصاحبتي هكذا. ولكن لم أفهم — وأنا أستخدم متعمدًا تعبيرًا قاسيًا لوصف حالي — لماذا تقع فتاة في براثن الرغبة في تلويث نفسها. من المفترض أن في هذا العالم أمورًا لا تقاوم تمتلئ بالطيبة والخجل، ولكن تلك الفتاة وضعت يديَّ فوق يديها الصغيرتين المكتنزتين قليلًا، وكأنها ذباب تجمَّع على جسم شخص ينام في غفوة القيلولة.

ولكن أيقظ شهوتي قُبلة طويلة وملامسة خد الفتاة الطري. ومع أنه أمرٌ ظللت أحلُم به على مدًى طويل، ولكن كان الشعور الواقعي ضحلًا وضعيفًا، ودارت الشهوة في مدارٍ مختلف. كانت أشياء مثل السماء الغائمة بسُحب بيضاء، وضوضاء غابة الخيزران، واجتهاد حشرة الدعسوقة ذات السبع نقاط في تسلُّق أوراق زهرة الأزالية ... كما هي دائمًا، متفرقة ومنفصلة بلا أي نظام كوني.

أنا على العكس حاولت أن أهربَ من جعل الفتاة التي أمام عيني هدفًا لشهوتي. يجب التفكير أن هذه هي الحياة. يجب التفكير أن تلك عقبةٌ كئود لا بد من تخطيها من أجل الامتلاك والتقدم للأمام. إذا أفلتت هذه الفرصة الحالية، فلن تأتيني الحياة مرةً أخرى وللأبد. ولكن عندما فكرتُ بهذه الطريقة، أعاقتني ذكريات عار التلعثم الهائل، عندما تقف الكلمة على طرَف لساني لا تستطيع الخروج لأن التلعثم يحجزها. كان يجب عليَّ أن أفتح فمي، وأقول أيَّ شيء ولو بتلعثم، كي أجعلَ الحياة مِلكًا لي. بُعِثَت مرةً ثانية في أذني كلماتُ تشجيع كاشيواغي القاسي لي: «تلعثم! تلعثم!» شجَّعتني تلك الصرخات غير اللبقة ... وأخيرًا انزلقت يدي إلى طرف ثوب الفتاة.

في تلك اللحظة، ظهر المعبد الذهبي.

ذلك البناء المعماري الدقيق الكئيب المليء بالرهبة والجلال. ذلك البناء المعماري الذي يشبه جثةً لهيئته الفاخرة قديمًا نُزعت طلاؤها الذهبي في أماكنَ مختلفة منه. ظهر ذلك المعبد الذهبي الذي يبرز دائمًا واضحًا نقيًّا، والذي كلما اعتقدتُ أنه قريب، يبعُد ليكون على مسافة عصية على الفهم ذات أُلفة، ولكن مع وجود فجوة بيننا. وقف حائلًا بيني وبين الحياة التي أهدف إليها. بدا في البداية كأنه صورةٌ دقيقة صغيرة، وكلما نظرتُ إليه أصبح أكبر. ومثلما يمكن رؤية نموذج مناظر لمعبد ذهبي عملاق يحتوي العالَم كله تقريبًا داخل ذلك النموذج الدقيق البديع الصنع، أصبح المعبد الذهبي الذي ظهر أمامي يدفن كلَّ ركن من أركان العالَم المحيط بي، يملأ كل هذا العالم كما هو بنفس مقاسه. يملأ العالم وكأنه موسيقى ضخمة، وبتلك الموسيقى فقط، يحاول إعطاءَ العالم معناه الكافي. المعبد الذهبي الذي كان يُعتقد أحيانًا أنه يعتزلني لهذه الدرجة، ويقف شامخًا خارجي، الآن هو يحتويني ويلفني كاملًا وسمح بموضع قدم لي داخل تركيبته المعمارية تلك.

طارت فتاة المسكن بعيدًا وتضاءلت مثل ذرة غبار. إذا كانت الفتاة قد رفضها المعبد الذهبي فلا بد أنه رفض حياتي أيضًا. كيف لي أن أمدَّ يدي إلى الحياة وهذا الجَمال يحتوي كلَّ ركن حولي؟ من موقف الجَمال، هل كان لي حق التخلي واليأس؟ فمن المستحيل أن

تلمس الخلود بأصابع إحدى يديك، وتلمس الحياة بأصابع اليد الأخرى. إذا كان معنى الفعل تجاه الحياة هو القسم بالإخلاص في لحظةٍ ما، وإيقاف تلك اللحظة في مكانها، فعلى الأرجح أن المعبد الذهبي كان يعلم ذلك تمامَ العلم، وفي وقتٍ خاطف ألغي إبعادي، وتجسَّد المعبد الذهبي ذاته في مثل تلك اللحظة، وجاء ليُعلمني عدم جدوى لهفتي للحياة. في الحياة، تُسْكِرنا اللحظة التي تتجسَّد في الخلود، ولكنها لا شيء إذا قارناها بمظهر الخلود الذي يتجسَّد في لحظة، وقد كان المعبد الذهبي يعلم ذلك تمامَ العلم، بدليل فِعله ما فعله وقتها. وهذا هو حقًّا الوقت الذي يمنع الوجود الأبدي للجَمال عيشنا، ويسمِّم حياتنا. لا يصمد الجَمال اللحظي الذي تُظهِره لنا الحياة من حين لآخر، أمام ذلك السُّم، فينهار بسرعة رهيبة ويندثر، والحياة ذاتها تصبح مستباحة تحت أشعة الاندثار الباهتة.

... لم يكن الزمن الذي احتواني فيه شبحُ المعبد الذهبي احتواء كاملًا وتامًّا طويلًا. وعندما عدتُ إلى وعيي، كان المعبد الذهبي قد اختبأ بالفعل. وأصبح مجرَّد بناء معماري يقبع كما هو في أرضِ كينوغاسا على الشمال الشرقي من هنا، ولا احتمال لإمكانية رؤيته. رحل وقت الوهم الذي تقبلني المعبد الذهبي بهذا الحال واحتواني فيه. كنتُ أرقد فوق قمة هضبة حديقة كامييياما، ولم يكن حولي مع أزهار الحشائش وأجنحة الحشرات البليدة، إلا فتاة وحيدة تنام على الأرض كما يحلو لها.

تجاه تأخُّري النفسي المفاجئ رمت الفتاة عليَّ نظرة باردة ونهضت بجسدها. وعوجت خَصرها وجلست ملتفتة إلى الخلف، وأخذت تنظر في مرآةٍ أخرجتها من حقيبتها. لم تقُل شيئًا، ولكن احتقارها، وكأنه أشواك سنابل الخريف، ينغرز في مسام جلدي كله بلا تفرقة.

تدلَّت السماء منخفضة. وبدأت قطراتُ مطر خفيفة تضرب أوراق الحشائش وزهور الأزالية التي حولنا. نهضنا واقفَين في عجلة وأسرعنا الخُطى في طريق الظليلة التي كنا فيها منذ قليل.

لم يكن الانطباع الكئيب البارز الذي تبقى من ذلك اليوم بأكمله، بسبب انتهاء الرحلة الجبلية بهذا الحال البائس فقط. ففي نفس الليلة وقبل الخلود للنوم، وصلت لكبير الرهبان برقيةٌ من طوكيو، فقام بعرضها على الفور على كلِّ مَن في المعبد.

لقد مات تسوروكاوا. كان محتوى البرقية بسيطًا للغاية فكان المكتوب أنه مات في حادث، وما عرفته فيما بعدُ من تفاصيلَ كان كما يلي. في ليلة اليوم السابق للوفاة ذهب تسوروكاوا إلى بيت عمِّه في حي أساكوسا، وقُدِّم له الساكي وهو غير معتاد عليه. وعند

عودته دهسته عربة نقل ظهرت فجأةً من شارع جانبي ضيق بجوار المحطة، فكُسرت جمجمته وتوفي في الحال. ولم تنتبه العائلة التي وقعت في بلبلة عظيمة، إلى ضرورة إرسال برقية لمعبد روكوؤنجي إلا في عصر اليوم التالي.

ذرفتُ الدموع التي لم أذرفها لموت أبي. وأعتقد أن السبب هو أن موت تسوروكاوا كان يرتبط بمشكلة ضرورية ملحَّة بالنسبة لي أكثرَ من موت أبي. بعد أن تعرفتُ على كاشيواغي كنت قد حجَّمت علاقتي مع تسوروكاوا ولكن بعد فقدانه الآن، فهمت أنني فقدتُ بعد موته الخيطَ الوحيد الذي يربطني بعالم النهار المشرق. لقد بكيتُ من أجل النهار المفقود، والضوء المفقود، والصيف المفقود.

ولم يكن معي نقود للذهاب إلى طوكيو على وجه السرعة لتقديم واجب العزاء. فلا يزيد مصروف الجيب الذي يعطيني إياه كبير الرهبان عن خمسمائة ين في الشهر. وأمي في الأصل فقيرة. أقصى ما تستطيعه هو إرسال ما بين مائتين إلى ثلاثمائة ين مرة أو مرتين في العام. وسبب بيعِ ما تركه أبي من إرث والذهاب إلى بلدة كاساغون لتعيش في كنف خالي، أنه لم يكن يمكنها بعد موت أبي المعيشةُ فقط بما يرسله أتباع المعبد من أرز المعونة بمبلغ خمسمائة ين في الشهر ودعم بلدية المحافظة الضئيل.

احترتُ كيف أتأكد في قلبي من موت تسوروكاوا دون رؤية جثته ودون الذهاب إلى جنازته. الآن يحترق جانب قميصه الأبيض الذي كان يتموَّج وهو يتلقى في الماضي أشعةَ الشمس المتسربة من بين الأشجار. مَن الذي يمكنه أن يتخيَّل أن ذلك الجسد وتلك الروح اللذين خُلقا فقط من أجل مثل تلك الأشعة، واللذين كانا يُليقان تمامًا بالأشعة، دُفنا في تربة القبر ويمكنهما الراحة. فلم يكن به ذرة من علامات الموت المبكِّر، وقد حمَته الطبيعة بأنه وُلد متخلصًا من القلق والكآبة، ولم يكن يحمل أيَّ صفة تنتمي أو تتشابه مع الموت بأقل القليل. وربما كان ذلك في الأصل هو سبب موته المفاجئ. ومثلما تكون حياة الحيوان النقي الدم في خطر، ولأن روح تسوروكاوا مخلوقة فقط من عنصر الحياة النقي ربما لم يكن لديه حيلة لتفادي الموت. وإذا كان الأمر كذلك فأنا على العكس تمامًا، يُعتقد أنني موعود بطول عمر ملعون.

كانت تركيبة العالم الشفاف الذي كان يسكن فيه تسوروكاوا، في كل الأحوال لغزًا بالنسبة لي، ولكن من خلال موته صار اللغز أكثرَ رعبًا. كان عالمه شفافًا تمامًا مثل زجاجٍ لا تراه من شدة شفافيته فتصطدم به، وهكذا حطَّمته عربة النقل التي خرجت مسرعة من جانب الطريق. يحقِّق موت تسوروكاوا، الذي لم يكن موتًا بسبب المرض، بدرجة كبيرة

هذا التشبيه، موت بسبب حادث كموتٍ نقي، كان يليق تمامًا لتركيبة حياته النقية التي لا يمكن مقارنتها بشيء. التلامس من خلال تصادم لحظي ضئيل للغاية، جعل حياته تذوب مع موته. تأثير كيميائي فوري ... لا شك أنه لم يكن يمكن لذلك الشاب الغريب الذي لا يملك ظلًّا، لكي يربط موته مع ظله إلا بهذه الطريقة الزائدة في العنف.

حتى لو كان العالم الذي يعيش فيه تسوروكاوا يمتلئ بالمشاعر المشرقة والنيَّات الحسنة، لكن يمكن القول قولًا قاطعًا إنه لم يسكن في ذلك العالم من خلال سوء تفاهم أو قرار طائش. لقد دُعم قلبه المشرق الذي لا ينتمي إلى هذا العالم، بقوة مرونة واحدة صارت كما هي قانون حركته. كانت طريقته في ترجمة مشاعري المظلمة واحدة بعد أخرى إلى مشاعر مشرقة، في غاية الدقة بدرجةٍ ليس لها مثيل. أحيانًا ما كنت أشكُّ في أن تسوروكاوا قد خبر بإخلاص وتفانٍ قلبي، بسبب شدة إضاءة إشراقه لظلامي في كل ركن من أركانه، وشدة إظهاره لتباين التفاصيل. ولكن لم يكن الأمر كذلك! فقد كان إشراق عالمه نقيًّا وفي نفس الوقت غير عادل، وتكوَّن ذلك في نظامٍ جسديٍّ دقيقٍ ومفصَّل، وربما اقتربت تفاصيل تلك الدقة تقريبًا من نفس تفاصيل دقة الشر. وربما كان ذلك العالم المشرق الشفاف لينهار سريعًا، لو لم تسنده قوة ذلك الجسد المتين بممارسة الرياضة بلا انقطاع. لقد ظلَّ تسوروكاوا يجري بكل طاقته. ثم دهست عربةُ نقل ذلك الجسد.

قادتني تلك الملامحُ النابغة التي كانت منبعَ إعطاء الناس توقُّعًا جيدًا عن تسوروكاوا، وذلك الجسد الممتلئ حيويةً اللذان فُقدا الآن، إلى أفكار سحرية عن الجزء المرئي من الإنسان. فكرتُ في غرابة أن شيئًا موجودًا، يُفعِّل قوة مشرقة بهذه الدرجة بمجرد أن تراه أعيننا. وأنه من أجل أن تملك الروح ذلك الإحساس غير المتكلف بالوجود الواقعي لهذه الدرجة لا بد أن تُعلِّم الجسد الكثير. يقال إن الزِّن يجعل العدم جسدًا، ومعرفة أن قلبك عدَمٌ لا شكل له ولا ملامح هو بحق الوعي بالذات، ولكن من المفترض أن تكون قدرة الوعي الذاتي التي تصل إلى درجة رؤية العدم كما هو على طبيعته، هي على الأرجح أقصى درجات حِدة الإحساس تجاه جاذبية الشكل. كيف يستطيع الشخص الذي لا يستطيع رؤيةَ الوجود بإحساس اللاأنا الحاد، معرفةَ العدم أو اللاوجود بهذه الدرجة من الوضوح. وهكذا، عندما يُفقد الشيء الذي يصدِر أشعةً بمجرد وجوده، الشيء الذي يُلمس باليد ويُرى بالعين، أي ما يجب أن نطلق عليه الحياة من أجل الحياة فقط، مثل تسوروكاوا الآن، تكون هيئته الواضحة تلك هي المجاز الأكثر وضوحًا لشكل العدم غير الواضح، وجوهر ذلك الوجود هو النموذج الأكثر واقعيةً للعدم الذي بلا شكل، بل يُعتقد أنه لم يَزِد عن مجرد هذا المجاز.

مثلًا تشابهه هو وزهور شهر مايو وملاءمتها له، جعلها هي الزهور التي أُلقيت داخل تابوته من خلال موته المفاجئ في شهر مايو هذا ولا شيء غيره.

على أي حال، كانت حياتي تنقصها رمزية مؤكدة مثل حياة تسوروكاوا. ومن أجل ذلك، كنت أحتاج وجوده بجانبي. وكذلك الأمر الذي يجعلني في غَيرة شديدة منه، أنه أنهى حياته دون أن يحمل أقلَّ القليل من الفردية أو الوعي بأنه يحمل على عاتقه مهمةً فردية، مثلما كنت أفكِّر أنا. تلك الفردية بالذات، هي التي سلبت رمزيةَ الحياة منه، أي سلبت رمزية إمكانية جعل حياته مجازًا لشيء آخر، وبالتالي سلبت إحساس امتداد وتضامن الحياة، وكانت هي المنبع الأصلي الذي يلد الوحدة التي تطارده في كل مكان. وإنه لمن العجيب أنني لم أملك تضامنًا حتى مع العدم.

بدأت وحدتي مرةً أخرى. فلم أقابل فتاة المسكن بعد ذلك، ولم أصحب كاشيواغي بأُلفة مثلما كنا في السابق. لقد أمسكتْ جاذبية طريقة حياة كاشيواغي بي بدقة، ولكن كنت أشعر أن البعد عنها ومقاومتها ولو بدرجة ضئيلة، حتى لو كان ذلك ضد إرادتي، هو وفاء لذكرى تسوروكاوا. أرسلتُ إلى أمي خطابًا وكتبت إليها فيه بحسمٍ ألا تأتيَ لزيارتي إلا بعد أن أُصبح راهبًا. كان ذلك ما سبق أن قلته شفويًّا لأمي وجهًا لوجه، ولكني أحسستُ أنني لن أرتاح إذا لم أكتبه وأرسله لها مرةً أخرى بنبرةٍ أقوى وعبارات أشد. كان الرد عبارة عن جُمل متبعثرة متلعثمة، عن أنها مشغولة في مساعدة خالي في أعمال الزراعة، وفي النهاية كتبت النصائح التربوية البسيطة والمزعجة وأنهت الخطاب بالجملة التالية: «أريد أن أموت بعد أن أراك قد أصبحت كبيرَ رهبان معبد روكوؤنجي.» كرهتُ تلك الجملة، وظلَّت تقلقني عدة أيام بعد ذلك.

ولم أزُر أمي في مكان إقامتها عند خالي، خلال هذا الصيف أيضًا. وعانى جسدي مع الصيف بسبب الوجبات الفقيرة. ذلك اليوم من شهر سبتمبر الذي مرَّ منه عشرة أيام، كانت ثمَّة توقُّعات مناخية بهجوم إعصار ضخم. تقرَّر أن يبيت أحدُنا ليلًا في المعبد الذهبي، فتطوعتُ أنا لأقوم بذلك وتوليت الأمر.

ويُعتقد أنه من ذلك الوقت تولَّد تغيُّر طفيف في مشاعري تجاه المعبد الذهبي. ليست مشاعر كراهية، ولكنه توقُّع أن الشيء الذي بدأ ينبت تدريجيًّا داخلي سيأتي وقتٌ يستحيل فيه مطلقًا التوافق مع المعبد الذهبي. وقد صار هذا الأمر واضحًا جليًّا، منذ ما حدث في حديقة كامياما، ولكني كنت أخاف أن أضعَ لهذه الحالة اسمًا. ولكن في نوبة الحراسة

الليلية كنت فرحًا مسرورًا من جعل المعبد الذهبي في عهدتي ليلةً كاملة، ولم أُخفِ سعادتي بذلك.

تسلَّمت مفتاح قمة الكوكيوتشو. هذا الطابق الثالث هو الأكثر تبجيلًا وتقديسًا، وفي عارضة الإفريز المعلَّق باحترام لوحة مكتوبة عليها أشعار بخط جلالة الإمبراطور غوكوماتسو،[٢] على ارتفاع ٤٢ قدمًا فوق الأرض.

كان الراديو يعلن كلَّ ساعة عن اقتراب الإعصار، ولكن لم يكن هناك أيُّ بوادر على ذلك مطلقًا. ووقت العصر توقَّفت الأمطار التي كانت تهطل من وقتٍ لآخر وصارت السماء صافية، وفي سماء الليل صعِد القمر في هيئة بدرٍ كامل لا تخطئه العين. خرج رهبان المعبد إلى الحديقة ليشاهدوا حالةَ السماء تلك، وتناقلوا الحديثَ المشهور أن هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

كان المعبد يرزح تحت الهدوء، وأنا وحيد في المعبد الذهبي. وعندما أكون في مكانٍ لا يصل إليه ضوء القمر، تصيبني نشوة التفكير أنني محاط بظلام المعبد الذهبي الفاخر الثقيل. غمرني ذلك الإحساس بذلك الواقع الفعلي تدريجيًّا للأعماق، وصار كما هو كأنه شبحٌ وهمي. وعندما انتبهت، أدركتُ أنني داخل ذلك الوهم الذي باعد بيني وبين الحياة في حديقة كامبياما.

كنتُ بمفردي وحيدًا، وكان المعبد الذهبي يحيطني إحاطةً مطلقة. هل أقول إنني كنت أمتلك المعبد الذهبي، أم أقول إن المعبد الذهبي هو الذي يمتلكني؟ أم إنه حدث بيننا مساواةٌ نادرًا ما تحدث، هل كان الأمر محاولةَ جعل حالة أن أكون أنا المعبد الذهبي ويكون المعبد الذهبي هو أنا، ممكنة؟

ازدادت الرياح وقويت عند الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا. صعدتُ درجات السُّلم وأنا أعتمد على المصباح اليدوي، ووضعت المفتاحَ في فتحة قُفل القاعة العلوية.

وقفتُ أستند بظهري إلى درابزين سلالم الكوكيوتشو. كانت الرياح جنوبية شرقية. ولكن لم تظهر تغيُّرات على السماء بعدُ. كان القمر يتلألأ على سطح بِركة كيوكوتشي بين الطحالب والأعشاب، وتسيطر على المكان أصواتُ الحشرات والضفادع.

---

[٢] الإمبراطور غوكوماتسو Gokomatsu (١٣٧٧–١٤٣٣م): هو الإمبراطور رقم ١٠٠ في سلسلة أباطرة اليابان، وكان الإمبراطور السادس في الإمبراطورية الشمالية عندما انقسمت الإمبراطورية اليابانية إلى شمالية وجنوبية في عصر موروماتشي، تولَّى العرش في الفترة من ١٣٨٢م وحتى ١٤١٢م. (المترجم)

عندما اصطدمت ريحٌ قوية بخدودي في البداية، اجتاحت جلدي تقريبًا حالة من الذهول يمكن أن نطلق عليها الحسي الشبقي. ازدادت الرياح كما هي دون حد أو نهاية مثل الزعابيب العنيفة، وجعلتني أشعر وكأنها ستوقِع المعبد الذهبي. كان قلبي داخل المعبد الذهبي، وفي نفس الوقت كان فوق الرياح. لم يملِك المعبد الذهبي الذي يضع مقاييسَ تركيبية عالمية، وستائر تهتزُّ مع اهتزاز الرياح، وكان يستقبل تدفُّق أشعة القمر، برباطة جأش. ولكن لا ريب أن إرادتي الآثمة والرياح قادرتان في وقتٍ ما على هزِّ المعبد الذهبي وإيقاظه وسلب المعبد الذهبي معنى وجوده المتكبر والمتعجرف، في اللحظة التي يسقط فيها منهارًا.

لقد كنتُ في ذلك الوقت محاطًا بالجَمال، كنتُ بالفعل داخل الجَمال، ولكن ثمَّة شك في هل كان الجَمال يحيطني إحاطةً كاملة إلى هذه الدرجة؟ حيث لم تسندني إرادة الرياح العنيفة الآثمة التي تزيد بلا حد ولا نهاية. مثلما لامني كاشيواغي بشدة عندما صرخ فيَّ: «تلعثم! تلعثم!» كنتُ أُضرب بسياط، وجربتُ أن أصرخ بكلماتِ تشجيعٍ فرس أصيل.

«كن قويًّا! كن قويًّا! أسرِع! بقوة أكبر!»

بدأتِ الغابة في الصياح بصخب. وتتلامس أفرع الأشجار التي على حافة البِركة. فقدَت سماء الليل لونَها الأزرق الهادئ، وتعكَّر لونها بلون رصاصي غامق. ورغم أن زقزقة الحشرات لم تضمحل، ولكن اقتراب صوت الرياح من بعيد كأنه صوت ناي سحري خلاب، جعل تلك الأصوات تتميز أكثرَ وتبرُز أكثر.

رأيت الغيومَ الكثيرة التي أمام القمر تطير. جاءت الغيوم من الجبال البعيدة، كأنها جيشٌ عملاق واحدةً بعد أخرى، تتَّجه من الجنوب إلى الشمال. كانت بينها غيوم كثيفة. وكذلك غيوم خفيفة وغيوم ضخمة. وغيوم كقطع صغيرة متعددة. كل تلك الغيوم جميعًا تظهر من الجنوب، وتمرُّ أمام القمر، وتغطي سطح المعبد الذهبي، وكأنها تسرع للحاق بشيءٍ ما، تذهب مسرعةً إلى الشمال، حتى ظننتُ أنني أسمع صياحَ طائر العنقاء الذهبي الذي فوق رأسي.

هدأت الرياح فجأة، ثم قويت مرةً أخرى. أرهفتِ الغابة أذنَها بحساسية لتسمع، فتهدأ ثم تهجُّ زاعقة. وفي كل مرة، يُظلِم ظل القمر على البركة ثم يضيء، وتتقلص الأشعة المتناثرة، في بعض الأحيان، وتُزيل بسرعةٍ هائلةٍ ما على سطح البِركة.

انتشرت تعقيدات الغيوم الكامنة في الجبال البعيدة، على سطح السماء وكأنها يدٌ كبيرة، كانت مهولة وهي تقترب مكفهرة مزمجرة. ومرةً ثانية غطَّى الغيم سريعًا نصف

السماء الذي كان يبدو واضحًا صافيًا في فترة توقُّف الغيوم. ولكن عندما يمر منها غيمٌ رفيع للغاية، نستشف منه القمر، ويمكننا النظر إليه يرسم هالةً من الضوء المعتم.

وهكذا كانت السماء أيضًا تتحرك طوال الليل. ولكن لم تتجمَّع الرياح بزيادة أكثر من ذلك. نمتُ أنا أسفل الدرابزين. وفي الصباح الباكر الصحو، جاء راهب عجوز من رهبان المعبد، ليوقظني وقال لي إن الإعصار لحسن الحظ انحرف مسارُه بعيدًا عن مدينة كيوتو.

الفصل السادس

لقد أقمتُ الحِداد ما يقرب من العام على تسوروكاوا. كنتُ إذا بدأت الوحدة، أتعوَّد عليها بسهولة، وعرفتُ مرةً أخرى أنني لا أحتاج إلى بذل أي جهد للعيش دون أن أتبادل كلمةً مع أحد. ورحلت عني الحَيرة تجاه الحياة. وكانت أيام الموت ممتعة.

وصارت مكتبة الجامعة هي مكان متعتي الوحيد، ولكني لم أقرأ فيها كتب الزِّن، بل كنت أقرأ ما تصل إليه يدي من الروايات وكتب الفلسفة المترجَمة. وأنا في حرجٍ من ذكر أسماء الروائيِّين والفلاسفة الذين قرأت لهم. فأنا أعترف أن لهم عليَّ تأثيرًا، وأن هذا التأثير كان سببًا لِما فعلته فيما بعدُ حتى ولو بمقدار قليل. ولكنني أريد أن أُومن أن الفعل ذاته من ابتكاري أنا. وأكثر من أي أمر آخر لا أريد لهذا الفعل أن يتم تفسيره وإرجاعه إلى أن يكون من تأثير فلسفةٍ ما موجودة بالفعل.

كما ذكرتُ من قبل، منذ فترة الصبا، وأنا أعتبر عدمَ فهم الناس لي هو الأمر الوحيد الذي أفخر به، ولم يكن لديَّ أيُّ دافع لكي أعبِّر عن نفسي تعبيرًا يجعلني مفهومًا. لقد كنت أحاول بلا أي اعتبار جعْل نفسي أكثرَ وضوحًا، ولكن من المشكوك فيه هل كان ذلك يأتي بدافع الرغبة في فهم النفس أم لا؛ لأن مثل هذا الدافع يتبع غريزةَ الإنسان الطبيعية فيكون هو الجسر الذي يعلِّقه الشخص بينه وبين الآخرين. لقد كان السُّكْر الذي يعطيه لي جَمال المعبد الذهبي يجعل جزءًا مني غير شفاف، وكان ذلك السُّكر يسلبني من كل أنواع السُّكر المتنوعة الأخرى، ولذا من أجل مقاومته، كان يجب عليَّ تأمين جزء آخر واضح خلال من إرادتي الذاتية. هكذا، ولا أدري عن الآخرين بالنسبة لي، كان الوضوح هو ذاتي، والعكس صحيح، بمعنى أنني لم أكن شخصًا يملك ذاتًا واضحة.

... كان ذلك في إجازة الربيع التي أصعد بعدها إلى السنة الثانية من المرحلة التمهيدية للجامعة في عام ١٩٤٨. في المساء كان كبير الرهبان كالعادة خارج المعبد، ولم يكن أمامي

أنا الذي ليس لي صديقٌ سوى قضاء ذلك الوقت الحر الثمين في التنزُّه. دلفتُ من البوابة العمومية خارجًا من المعبد. كان الجانب الخارجي من البوابة العمومية محاطًا بخندق، وعلى جانب الخندق ثمَّة اللوحة الرسمية.

ورغم أنني اعتدتُ رؤيتها منذ زمن بعيد، ولكنني نظرت إلى الخلف وقرأت حروفَ اللوحة الرسمية القديمة التي أضاءها القمر حرفًا حرفًا كما هي.

تحذير

(١) حذارِ من تغيير الحالة الراهنة دون الحصول على تصريح مسبق.
(٢) يُمنع ارتكاب أي فعل يؤدي إلى إحداث تأثير على بيئة هذا المكان.
تم تحذيركم بالتحذير أعلاه.
ومَن يرتكب تلك الأفعال، فسيُعاقَب طبقًا لقوانين الدولة.

١٩٢٨/٣/٣١
وزارة الداخلية

من الواضح أن هذه اللوحة تتحدَّث عن المعبد الذهبي. ولكن دون معرفة ذلك، لا يُعتقد إلا أن المعبد الذهبي الخالد يقع في مكانٍ مختلف بعيدًا عن تلك اللوحة التحذيرية ذات الجُمل التجريدية. تشير هذه اللوحة نوعًا ما إلى فعلٍ غير مفهوم أو مستحيل. لا شك أن المشرِّع احتار في تلخيص نوع ذلك الفعل على الأرجح. من أجل وضعِ عقابٍ لفعلٍ لا يخطِّط له إلا مجنون، كيف يمكن لك أن تهدِّد ذلك المجنونَ قبل قيامه بفعله هذا؟ على الأرجح هناك ضرورة لأن تصبح تلك الكلمات لا يمكن قراءتها إلا لمجنون.

أثناء تفكيري في هذا الأمر التافه، كان شخصٌ يسير على الطريق المعبَّدة الواسعة التي أمام البوابة في اتجاهي. لقد اختفت تمامًا جماعاتُ زوار النهار، فقط تحتل هذه المنطقة في المساء، أشجار الصنوبر التي ينيرها ضوء القمر، وانعكاسات الإنارة الأمامية للسيارات التي تسير متضادة الاتجاه في طريق الترام البعيدة.

فجأة عرفت أنه ظلُّ كاشيواغي. لقد عرفته بالطبع من طريقته في المشي. ثم عندها تغاضيتُ عن فترة العام الطويلة التي كنت قد قرَّرت أنا البُعد عنه خلالها، وتذكَّرت فقط شعور الامتنان والشكر لِما سبَّبه لي من مواساة وتعزية في الماضي. حقًّا أنه واسى شعور

الإعاقة لديَّ منذ أن قابلته لأول مرة وهو بتلك القدم الحَنْفَاء القبيحة، وكلماته التي تجرح الشعور بلا أي اعتبار، وبذلك الاعتراف التام الذي اعترفه لي. ويُفترض أنني وقتَها أدركت لأول مرة فرحةَ التحدُّث بندِّية. من المفترض أنني تذوَّقت فرحةً تشبه ارتكاب الشرور وأنا أغطس جسمي في قاع الوعي المؤكد لكوني راهبًا وفي نفس الوقت متلعثم. وهذا على العكس من علاقتي مع تسوروكاوا حيث كنت معتادًا إزالةَ كلا الوعيَين.

استقبلت كاشيواغي بوجه مبتسم. كان يرتدي الزيَّ الجامعي الرسمي ويحمل في يده لفةً رفيعة وطويلة. سألني:

«هل كنت على وشْك الخروج؟»

«لا ...»

«حسن أنني استطعت لقاءك. في الواقع ...»

جلس كاشيواغي على الدرجة الحجرية، وفتح اللفة التي في يده. فظهر ناي يلمع لمعانًا أسودَ.

«منذ فترة توفِّي عمي الذي يعيش في قريتنا، وأخذتُ هذا مما تركه. ولكن أنا معي نايِيَ الذي أهداه له عمي منذ فترة طويلة عندما تعلَّمت على يديه، ورغم أنه يقال إن هذا الناي تحفةٌ ثمينة، إلا أنني أفضِّل الذي اعتدته، ولن يفيدني وجودُ اثنين معي فجئتُ به لأعطيَك إياه.»

لم يسبق لي أن تسلَّمت هديةً من أحد؛ لذا كانت الهدية مفرحة لي بشدة بغضِّ النظر عن محتواها. أخذته في يدي وجرَّبت مسْكَه. الفتحات أربعٌ في الأمام وواحدة في الخلف.

أكمل كاشيواغي فقال:

«إن طريقتي في العزف تتبع مدرسة كينكو. القمر اليوم جيد، وهو أمرٌ نادر، ولذا جئتُ راغبًا في العزف عند المعبد الذهبي، وهي فرصةٌ لك كذلك لأن تتعلَّم ...»

«أجل إن اليوم الفرصةُ متاحة. فكبير الرهبان في الخارج والعجوز متكاسلٌ لم ينهِ التنظيف بعدُ؛ لأنه يغلق بوابة المعبد الذهبي بعد انتهائه من التنظيف.»

كان ذلك كلُّه خيانةً لصورة كاشيواغي التي أعرفها، من مفاجأة ظهوره غير المتوقَّع، إلى مفاجأة طلبه العزف في المعبد الذهبي لأن الليلة قمرية جميلة. ورغم ذلك كان مجرد مفاجئتي بهذا الشكل سببًا لسعادتي، مقارنةً بحياتي اليومية الرتيبة. أمسكتُ الناي الذي أهداه لي وصحِبته إلى المعبد الذهبي.

لا أتذكَّر عن ماذا تحاورنا أنا وكاشيواغي في ذلك المساء. على الأرجح لم نتحدَّث في أمرٍ ذي بال. وما من بوادرَ على أن كاشيواغي سيتكلم عن فلسفته العجيبة أو نظرياته العكسية المسمومة.

ربما أتى كاشيواغي خصوصًا لكي يريني جانبًا آخرَ من شخصيته لم أكن أتخيَّل وجوده. لقد أظهر لي هذا الناقد اللاذع اللسان المنجذب إلى هواية تلويث وازدراء الجَمال، جانبًا آخرَ له في منتهى الرقة والرهافة. لقد كان يحمل عن الجَمال نظريةً دقيقة ومحكمة أكثرَ مني بكثير جدًّا جدًّا. حكى لي ذلك، ليس من خلال الكلمات، ولكن من حركة جسمه وعيونه، ودوْزَنة الناي بالنفخ فيه، وكذلك من خلال جبهته التي ينيرها ضوء القمر.

استندنا بظهرينا إلى درابزين طابق تشوندو الثاني. وتبرُز الحافة الجانبية لإفريز السقف العميق المنحني برفق، معتمدةً على ثماني أقواس على طراز تنجيكو، ومقتربة من البِركة التي سكن فيها القمر.

عزف كاشيواغي في البداية الأغنية القصيرة «عربة القصر الإمبراطوري» ولقد اندهشتُ من براعته في العزف. قلدتُه بوضع شفتَيَّ في فتحة النفخ بالناي، ولكن لم يصدُر صوتٌ. بدأ يعلِّمني بعناية شديدة من أول طريقة الإمساك بالناي وأن تكون يدي اليسرى في الأعلى، وأن أجعل مَسند الفك عند حدود ذقني، وأيضًا طريقة فتح شفتيَّ اللتين ألمس بهما فتحةَ الناي، وكيفية نفْخ الهواء ببطء في تلك الفتحة. حاولت فِعل ذلك عدةَ مرات ولكن لم يخرج صوت. أحسستُ بتشنُّج في خدَّيَّ وعينيَّ وأن القمر الساكن في البركة يبدو وكأنه ينفطر إلى ألف قطعة رغم عدم وجود أي ريح.

بعد أن بلغ بي الإرهاق مداه، بدأ يتسرب إليَّ الشك في أن كاشيواغي تعمَّد أن يغصبني على هذا التدريب القاسي من أجل أن يسخر من تلعثمي في النطق. ولكن تدريجيًّا بدأتُ أعتقدُ أن الجهد البدني الذي يحاول إخراج ذلك الصوت الذي لا يخرج، يُنقِّي الجهد الذهني المعتاد حين أحاول إخراجَ بداية الكلمات بسلاسة مخافةَ التلعثم. اعتقدتُ أن الصوت الذي لا يخرج موجودٌ بالفعل وبدرجةٍ مؤكَّدة في مكانٍ ما من هذا العالم الهادئ الذي ينيره ضوء القمر. كان فقط المطلوب مني هو الوصول إلى ذلك الصوت في نهاية جهودٍ متنوِّعة، وإيقاظه.

تُرى ما الوسيلة لجعل ذلك الصوت يصل إلى الصوت السحري الذي يعزفه كاشيواغي؟ ليس إلا التدريب المتواصل هو الذي يجعل ذلك ممكنًا؛ فالجَمال هو تدريب متواصل، وكما وصل كاشيواغي رغم قدَمه الحَنْفَاء القبيحة تلك، إلى نوع صوت جميل صافٍ هكذا، أنا

أيضًا أستطيع الوصولَ إلى ذلك من خلال التدريب المتواصل فقط، أعطت هذه الفكرة لي شجاعة. ولكن تولَّد داخلي وعيٌ مختلف. ألا يكون سببُ قدرتي على سماع عزف كاشيواغي للحن «عربة القصر الإمبراطوري» بهذا الجَمال بغضِّ النظر عن الخلفية الرائعة لليلة القمرية، هو من أجل قدَمه الحَنْفَاء القبيحة تلك؟

ثمَّة أمرٌ عرفته من خلال توطُّد علاقتي بكاشيواغي، وهو أنه يكره الجَمال المستديم طويلًا. فالأشياء التي يحبُّها تنحصر في الموسيقى التي تختفي على الفور، أو فن تنسيق الزهور التي تذبل خلال أيام، ولكنه يكره المباني المعمارية والأدب. ولا شك أنه جاء إلى هنا طالبًا فقط المعبد الذهبي خلال فترة إنارته بضوء القمر. على كل حال إن جَمال الموسيقى شيءٌ عجيب! إن هذا الجَمال القصير الذي يبدِعه العازف، يُغيِّر فترةً زمنية محدَّدة إلى استمرارية خالصة، ولكن ذلك لا يكون تكرارًا مؤكدًا، بل يكون تجريدًا كاملًا للحياة ذاتها وخَلْقًا لها، مثل حياة كائن حي قصيرة كذبابة مايو. ما من شيء يشبه الحياة مثل الموسيقى، وما من جَمال يبدو محتقرًا للحياة وبعيدًا عنها مثل جَمال المعبد الذهبي، رغم أنه نفس الجَمال. في اللحظة التي أنهى فيها كاشيواغي عزْفَ «عربة القصر الإمبراطوري»، ماتت الموسيقى، تلك الحياة الخيالية، وتبقَّى مرةً أخرى ذلك الوعي المظلم الكئيب بجسده القبيح، دون أن يُجرَح ولو قليلًا أو يتغيَّر للأحسن.

ما يطلبه كاشيواغي من الجَمال لم يكن المواساةَ ولا التعزية! فهمت أنا ذلك دون أن يقوله أو يتحدَّث عنه. كان يحب بقاء قدَمه الحَنْفَاء ووعيه المظلم، أزيدَ عمَّا قبلُ وأوضحَ وبها جِدَّة، بعد فترة طويلة من الجَمال الذي يصنعه في وسط السماء نَفَسُه المتجدِّدُ الذي ينفخه في فتحة الناي من خلال شفتَيه. كان الذي يحبُّه كاشيواغي هو إيمانه بعدم فائدة الجَمال، ومرور الجَمال عبر جسده دون أن يترك أثرًا، وألا يغير ذلك أي شيء مطلقًا. لو كان الجَمال له نفس المعنى بالنسبة لي أنا، فلا ريب أن حياتي كانت ستكون أكثرَ خفةً واحتمالًا.

... لقد جربتُ فعلَ ما يعلِّمني إياه كاشيواغي أكثرَ من مرة دون ملل أو كلل. ولكن ملأتِ الدماء عروقَ وجهي، وأصبحت أنفاسي متقطعة. عندها خرج من الناي أولُ صوت عميق يتردَّد صداه، وكأنني أصبحتُ فجأةً طائرًا، تتسرب من حنجرتي زقزقة طائر.

«هو ذا.»

صاح كاشيواغي بذلك وهو يضحك. لم يكن صوتًا جميلًا بتاتًا، ولكن تتابع خروج صوت مماثل. وقتها، من ذلك الصوت السحري الذي لا يمكن الاعتقاد أنه صوتي، كنت أرى حُلمًا بأنه صوت طائر العنقاء البرونزي الذي فوق رأسي.

وبعد ذلك تعجَّلت في رفع مستواي في عزف الناي كلَّ يوم، اعتمادًا على كتاب التعليم الذاتي الذي أعطاني إياه كاشيواغي. ومع بدء عزْفي لأغنية «اصبغ عَلم اليابان بأرض بيضاء وشمس حمراء» يصبح جيدًا، عادت علاقتي الحميمية بكاشيواغي إلى سابق عهدها.

فكَّرت في شهر مايو، أنني يجب أن أردَّ جميل الناي بشيءٍ ما. ولكنني لا أملك مالًا. وعندما تشجَّعت وقلت ذلك لكاشيواغي، ردَّ بأنه لا يريد شكرًا بشيء يكلِّف مالًا، ثم عوج طرَف فمه بطريقة غريبة وبدأ يقول ما يلي:

«حقًّا! إذا كنتَ تقول ذلك فعلًا فيجب ألا أرفض، فثمَّة شيء أريد الحصول عليه. فأنا أريد مزاولةَ فن تنسيق الزهور، ولكن الزهور غالية السعر في هذا الوقت. إنه موسم تفتُّح زهرات السوسن والأقحوان في المعبد الذهبي، أليس كذلك؟ هل يمكن أن تحضِر لي أربعًا أو خمسًا من زهْر الأقحوان مثل البراعم والزهور التي بدأت تتفتح، وكذلك أريد ستة أو سبعة أعواد من نبات الكُنْباث. ولا مانع أن يكون ذلك الليلة. هل يمكنك أن تذهب الآن وتأتيَ بهم؟»

بعد أن قبِلت ذلك بسهولة ودون وعي، انتبهتُ إلى أنه في الواقع يحثُّني على السرقة. ثم من أجل المحافظة على ماء وجهي أمامه وجب عليَّ أن أصبح سارقَ زهور بأي حال كان.

كان طعام العشاء في تلك الليلة بلا أرز. بل كان خبزًا شديدَ السواد ثقيلَ الوزن وخضراوات مسلوقة ومنقوعة في صوص. ومن حسن الحظ أنه كان يوم السبت، وما من تدريبٍ تأمُّلٍ للزِّن بعد الظهر، وخرج من المعبد مَن وجب عليه الخروج. وهذه الليلة تُدعى «وضع الوسادة في الداخل» فيمكن للشخص أن ينام مبكرًا ويمكنه كذلك أن يذهب خارج المعبد حتى الساعة الحادية عشرة مساءً، وعلاوةً على ذلك يمكن التأخُّر في الاستيقاظ صباحًا باسم «النسيان في النوم». وقد خرج بالفعل كبير الرهبان.

غربت الشمس أخيرًا بعد الساعة السادسة والنصف. وبدأ هبوب الريح. وانتظرتُ دقَّ ناقوس بداية الليل. في الساعة الثامنة، تردَّد صوت صدى الدقات الثماني عشرة لبداية الليل، ذلك الصوت النقي الصافي العالي الذي تستمر توابعه إلى ما لا نهاية، والذي يصدره الناقوس الأصفر الذي يقع في الناحية اليسرى من البوابة الوسطى.

بجوار طابق سوسيه في المعبد الذهبي، ثمَّة شلالٌ صغير تصبُّ من خلاله مياه مستنقع اللوتس في بِركة كيوكو، ويحيط به سور حديدي نصف دائري. وفي تلك المنطقة تنبت زهور السوسن. الزهور خلال هذه الأيام القلائل جميلة على الأغلب.

عندما ذهبت إلى هناك كانت عناقيدُ زهور السوسن تصخب مع نسائم الليل. وكانت البَتَلات البنفسجية التي ارتفعت عاليًا تهتز وسط خرير الماء الهادئ. كان الظلام عميقًا في تلك المنطقة، وبدا اللون البنفسجي ولون الخضرة الغامق يُرَيان بلون أسود. حاولتُ أن أمسك ببضع زهرات من السوسن. ولكن الزهرات والأوراق أفلتت من يدي محدِثةً صخبًا مع الريح، وجرحت إحدى الأوراق إصبعي.

عندما زرتُ مسكن كاشيواغي وأنا أحمل زهورَ السوسن والكنباث، كان مستلقيًا على الأرض يقرأ كتابًا. كنتُ أخاف من ملاقاة فتاة المسكن ولكن يبدو أنها كانت خارج البيت.

جعلتني تلك السرقة الصغيرة أحسُّ بمتعة حيوية. كانت علاقتي بكاشيواغي، تجعلني دائمًا أشعر بخيانة صغيرة للأخلاق، وازدراء صغير للمقدَّس وشرور صغيرة، وكان يصاحب ذلك متعةٌ حية بدرجة مؤكدة، وكنتُ لا أدري هل إذا زاد حجم تلك الشرور يزداد معها حجمُ المتعة الحية إلى ما لا نهاية أم لا؟

أخذ كاشيواغي هديتي بفرحة كبيرة نوعًا ما. ثم ذهب إلى صاحبة المسكن ليستعيرَ منها قاعدة ماء ودلوًا يستخدمها في جلب الماء. كان البيت عبارة عن طابق واحد وله غرفة منفصلة مساحتها أربعٌ ونصف من حصير التاتامي.

أخذتُ الناياَ الخاص به الذي كان موضوعًا في مكان الزينة بالغرفة ووضعته على شفتي، وحاولتُ أن أعزف لحنًا تدريبيًّا قصيرًا، فكان أن نجحت في ذلك مما أدهش كاشيواغي الذي عاد. ولكن لم يكن كاشيواغي في تلك الليلة هو نفسه الذي جاء إلى المعبد الذهبي.

«مع الناي لا تتلعثم على الإطلاق. لقد كان هدفي من تعليمك العزفَ على الناي، سماعَ ألحان متلعثمة.»

بتلك الجملة، رجعنا إلى نفس الموقع الذي كنا فيه عند لقائنا للمرة الأولى. وعند ذلك استطعتُ أن أسأله بارتياح عن فتاة المنزل الذي على الطراز الإسباني التي سبق ذكرُها.

«آه، تقصد تلك الفتاة؟ لقد تزوجتْ منذ زمن بعيد.»

أجاب ببساطة متناهيةٍ ثم أضاف:

«لقد علَّمتها بالتفصيل الممل الطريقةَ التي لا تنكشف بها أنها ليست عذراء، ويبدو أن عريسها كان متزمتًا، ليس له في اللعب واللهو، ولذا سارت الأمور على ما يرام.»

كان وهو يقول ذلك يُخرج زهور السوسن الغارقة في الماء زهرةً بعد زهرة على حدة، ويتأمَّلها في عناية كبيرة، ويضع المقصَّ في الماء، ثم يقص الساق داخل الماء. ظِلُّ زهرة السوسن الممسوكة بيده كان يتحرك بكثرة فوق التاتامي. ثم مرة ثانية قال فجأة:

«هل تعرف المقولة الشهيرة المذكورة في فصل الوعظ من كتاب «سجلات رينساي»، إذا قابلت بوذا فاقتله، وإذا قابلت أسلافك فاقتلهم ...»

أكملتُ المقولة:

«... إذا قابلت الراكان[1] فاقتله، إذا قابلت الأبوين فاقتلهما، إذا قابلت الأهل فاقتلهم، وبذلك تحصُل لأول مرة على حرية الروح.»

«هو كذلك. هذا النص، تلك الفتاة كانت هي الراكان.»

«وبذلك حصلت أنت على حرية الروح؟»

«لا.»

قال كاشيواغي وهو يتأمَّل زهرات السوسن التي صفَّها بعد أن قطعها:

«لا، كمية القتل ليست كافية لذلك بعدُ.»

اصطبغ الجانب الداخلي لقاعدة الماء التي امتلأت بالماء الشفاف، بلون فضي. كان كاشيواغي يُصلح بعناية قاعدةَ المسامير المعوجة.

استمررت في الكلام بسبب إحساسي بوطء الصمت:

«أنت تعلم القصةَ التعليمية «ذبح الراهب نانسن للهرة» أليس كذلك؟ كبير الرهبان في ليلة انتهاء الحرب، جمَعَنا كلَّنا وقصَّ علينا هذه القصة ...»

«ذبحُ الراهب نانسن للهرة؟»

أجاب كاشيواغي وهو يفحص طول نبات الكنباث، ويقيسه على قاعدة الماء.

«تلك القصة، تَظهر عدة مرات في حياة الإنسان، فهي تغيِّر من شكلها وتأخذ أكثرَ من شكل. إنها قصة تثير الاشمئزاز. كلما قابل الإنسان نقطةَ تحوُّل في حياته، تكون نفس القصة، باختلاف الشكل والمعنى. الهرة التي ذبحها الراهب نانسن هي الشر. تلك الهرة كانت جميلة، كانت في منتهى الجَمال، الجَمال الذي لا يمكنك إيجادُ شيء يماثله. فقد كانت عيونها ذهبية، وشَعرها ناعمَ الملمس، ويُختزن في جسمها الصغير الطري، كلُّ أنواع المُتَع النادرة والجَمال الموجودة في هذا العالم، ملفوفة مثل زنبرك. أغلب المفسِّرين قالوا إن تلك الهرة كانت كتلةً من الجَمال، باستثنائي أنا. ولكن تلك الهرة، تقفز فجأةً من بين حشائش النباتات، وكأنها تقصد ذلك عمدًا، فيتم الإمساك بها وهي بعيون ماكرة وطيبة. وكان ذلك

[1] الراكان في البوذية هو الشخص الذي وصل إلى أعلى درجات التدريبات الروحية فتخلَّص من كل الشهوات وغادر دورةَ الحياة والموت فلا يتناسخ، وصار في مرتبةٍ تؤهله لتقديم العطايا له من البشر. (المترجم)

سببًا أساسيًّا في صراع الطائفتين. لأن الجَمال يمكن لأي أحد أن يستسلم له، ولكنه ليس ملكًا لأحد. إن ما يُطلَق عليه الجَمال، حسنًا ماذا يمكنني القول؟ إنه مثل ضرس تسوَّس. إنه يلمس اللسانَ ويحتك به ليتألم، في سبيل التأكيد على وجوده. وأخيرًا يصبح المرء غير قادر على تحمُّل الألم، فيترك طبيب الأسنان يخلعه. وعندما يضع المرء ضرسَه الصغير البني اللون المتسخ والملطَّخ بالدماء في كفه، ألا يقول: «هل هذا هو؟ أكان بهذا الحجم؟ الشيء الذي سبَّب لي كل هذا الألم، والذي تسبَّب بلا توقف في قلقي إزاء وجودي بأكمله، والذي رسخت جذوره داخلي بعناد، لم يَعُد الآن إلا مجرَّد جماد ميت. ولكن هل يا تُرى هذا وذاك هو نفس الشيء؟ إذا كان ذلك الشيء في الأصل له وجود خارجي أنا، لماذا وبأي سبب أو علاقة ارتبط بداخلي، وصار قادرًا على أن يكون منبعًا لآلامي؟ ما هو مصدر وجود ذلك الشيء؟ وهل ذلك المصدر داخلي أنا، أم إنه داخل ذلك الشيء ذاته؟ حتى لو الأمر كذلك، هذا الشيء الذي خُلع مني وصار الآن فوق كفي، هو شيء مختلف عني اختلافًا مطلقًا. مطلقًا ليس هو ذاك.»

حسنٌ. ما يطلق عليه الجَمال في هذا الشيء، ولذلك فذبح الهرة، كما لو كان مثل خلعِ الضرس المسوَّس المسبِّب للألم، وقد يبدو الأمر على أنه إفشاء للجَمال، ولكن لا أعرف هل ذلك هو الحل الأخير أم لا. لا تنقطع جذور الجَمال؛ لأنه حتى لو ماتت الهرة، فربما لم يمُت جِمال الهرة. وهنا، انتقادًا غير مباشر لسهولة ويُسر هذا الحل، وضع الراهب تشوشو الحذاء فوق رأسه. كان يعرف ما معناه أنه لا حل لتلك المسألة غير تحمُّل آلام التسوس.»

كان التفسير من درجة كاشيواغي الممتازة، ولكن أعتقد أن ذلك كان ربما أنه أراد أنه يختال أمامي، بأنه عرفَ ما في داخلي، فينتقد بطريقةٍ غير مباشرة هذا اللاحل. وأنا لأول مرة أخاف كاشيواغي حقًّا. ولأني خِفت من الصمت سألته أكثرَ:

«وفي أي الجهتين أنت؟ الراهب نانسن أم الراهب تشوشو؟»

«أيهما يا تُرى؟ حتى هذه اللحظة أنا نانسن، وأنت تشوشو، ولكن في يومٍ ما، ربما ستكون أنت نانسن، وأصير أنا تشوشو. فتلك القصة تتغيَّر تمامًا [مثل عيون الهرة].»

حسنًا، ومع التحدُّث بهذا الكلام، كانت يدَي كاشيواغي تتحركان بدقة، يرتِّب داخل قاعدة الماء قاعدة المسامير الصغيرة الصدئة، ويرتب الكنباث الذي يحف بالسقف بغرزه هناك، ثم يوزِّع فيه السوسن الذي أعدَّ به مجموعات أوراق من ثلاث ورقات، وتدريجيًّا كان يصنع شكلًا من التنسيق على طراز كانسوي. وبجوار قاعدة الماء تتكوَّم حبَّات الزلط والرمل النقية الدقيقة ذات اللونين الأبيض والبني التي غُسلت جيدًا في انتظار دورها في التنسيق في النهاية.

وما من وصفٍ لحركاتِ يده إلا أنها رائعة. يتتابع في إصدار القرارات الصغيرة واحدًا بعد آخر، ويركز في فاعلية التضاد والتماثل، انتقل النبات الطبيعي ببراعة في ظل لحن محدَّد إلى داخل نظام صناعي يبهِر الناظرين. تتحول الزهور والأوراق مستسلمة كما هي، في لمح البصر، لِما يجب أن تكون عليه، وذلك الكنباث والسوسن، لم يعودا حُزمًا من نباتات مجهولة من نفس النوع، بل ظهرا في وصف صادق في غاية الاختصار لِما يجب القول عنه إنه الجوهر الأصلي للكنباث، والجوهر الأصلي للسوسن.

ولكن كانت تحرُّكات يده قاسيةً وعنيفة. كان يتصرَّف تجاه النبات وكأنه يملك امتيازًا خاصًّا مظلِمًا ومحزنًا. ولا أدري هل ذلك هو السبب أم لا، ولكن في كل مرة أسمع صوت المقص يقطع ساق النبات، أشعر وكأنني أرى دمي ينزف.

انتهى من تنسيق قاعدة الزهور على طراز الكانسوي. في الطرَف الأيمن من قاعدة الماء امتزاجُ الخط المستقيم للكنباث والخط المنحني لأوراق زهور السوسن النقية، زهرة واحدة فقط متفتحة، والأخريان براعم على وشْك التفتح. وضع كل ذلك في مكان الزينة الصغير ليملأه تمامًا، وهدأ مسقط ظل ماء الإناء، وحبات الحصى والرمل التي أخفت حامل المسامير، ظهرت بدرجة رائعة وكأنها منظرٌ لضفة ماء صافية.

سألته:

«عمل رائع. أين تعلَّمت؟»

«عند مدرِّسة فن تنسيق زهور جارتنا. لقد حان الوقت لتأتيَ إلى هنا. لقد تعلَّمت منها تنسيقَ الزهور وأنا أصاحبها، إذا أصبحتُ هكذا لديَّ القدرة على التنسيق بمفردي، وصلتُ لحالة الملل منها بالفعل. إنها مدرِّسة شابة وجميلة. أثناء الحرب وقعَت في حب ضابط بالجيش، وسقط جنينها، ومات الضابط في الحرب، وبعدها لم تتوقَّف عن هواية الرجال. إنها امرأة تملك بعضَ المال، وتقول إنها تُعلِّم تنسيق الزهور كهواية. لو كان الأمر كذلك، يمكنك أن تصحبها إلى مكانٍ الليلة. فهي تذهب إلى أي مكان.»

... كانت المشاعر التي هجمَت عليَّ وقتَها مضطربة. عندما رأيتها من فوق مدخل الجبل في معبد نانزنجي، كان تسوروكاوا بجانبي، واليوم بعد مرور ثلاثة أعوام، كان من المفترض أن تظهر أمامي من خلال عيون كاشيواغي. في الماضي رأيتُ مأساتها بعيون مشرقة ربانية ساحرة، والآن مرة ثانية، أختلس إليها النظر بعيون مظلمة لا تؤمن بشيء. ثم الشيء المؤكد، أن الثديَ البعيد الذي كان يشبه وقتَها قمرَ النهار الأبيض، كانت يد كاشيواغي قد لمسته بالفعل، والركبة التي كانت محاطة وقتها بكُم الكيمونو الزاهي الألوان، قد لمسَتها بالفعل

قدَم كاشيواغي الحَنْفَاء. الأمر المؤكَّد أنه تلك المرأة، بواسطة كاشيواغي، بمعنى بواسطة الوعي، أصبحت مُدنَّسة.

جعلتني تلك الأفكار أعاني لحد الألم، وأصابتني بمشاعرَ لا أقوى على البقاء بها في ذلك المكان. ولكن الفضول جعلني أبقى. كنتُ أنتظر بفارغ صبر أن تظهر أمامي الآن تلك المرأة التي يمكن حتى القول إنها ميلادٌ جديد ليويكو، كامرأة استغنى عنها طالب فاشل. وبلا وعي، انحزتُ إلى كاشيواغي، وغرقتُ في فرحة الخداع التي تُظهر لي أنني أدنِّس بنفسي وبيدي ذكرياتي.

... حسنًا، جاءت المرأة، فلم تقف أيُّ أمواج في داخل قلبي. وأتذكَّر ذلك الآن بكل وضوح. ذلك الصوت المبحوح قليلًا، ذلك السلوك المؤدَّب للغاية وطريقة الكلام المحترمة للغاية، ورغم ذلك، لون العيون التي تلمع باضطراب، وكلمات اللوم والعتاب التي توجِّهها إلى كاشيواغي وهي تحاول أن تراعي وجودي ... وقتَها لأول مرة، أدركت سببَ دعوة كاشيواغي لي تلك الليلة، فقد كان كاشيواغي يحاول أن يستخدمني كحائط صدٍّ دفاعي له.

لم ترتبط المرأة مع ما كنتُ أراه من أوهام. فلقد توقَّف الأمر عند انطباعٍ لجسم مختلف أراه لأول مرة رؤيةً مطلقة. وبدأت المرأة في الاضطراب كما هي بنفس طريقة الحديث المؤدب تدريجيًّا، ولم تحاول أن تنظر إليَّ مطلقًا.

وأخيرًا المرأة التي لم تَعُد تتحمَّل وضعها البائس، يبدو أنها تراجعت عن بذلِ جهدها لتغيير قلب كاشيواغي. هذه المرة تظاهرت بالهدوء فجأة، ودارت بنظرها في غرفة السكن الضيقة. ويبدو أنها لأول مرة تنتبه رغم وجودها هنا لأكثر من نصف ساعة إلى الزهور المنسَّقة التي ملأت مكان الزينة بحجم ضخم.

«منظرها رائع جدًّا. لقد أحسنت تنسيقها حقًّا.»

كاشيواغي الذي كان ينتظر تلك الكلمات، طعنها الطعنة الأخيرة.

«ألا ترين أنني قد أصبحتُ ماهرًا؟ وبهذا لم يَعُد هناك ما أتعلَّمه منكِ. لا حاجة لي بكِ. حقًّا، لا حاجة.»

عندما رأيتُ المرأة وقد تغيَّر لونُ وجهها من كلمات كاشيواغي الجارحة، أشحتُ بوجهي عنها. يبدو أن المرأة ضحِكت قليلًا، ثم بعد ذلك اقتربت من مكان الزينة زاحفةً على ركبتيها بطريقةٍ مؤدبة للغاية، ثم سمعتُها تتكلَّم:

«ما هذه الزهور؟ ماذا؟ كل هذه!»

ثم تطاير الماء، وسقط الكنباث، وزهور السوسن المتفتِّحة تمزعت وشُدَّت، أصبحت الزهور التي جلبتها بعد أن ارتكبتُ جريمة السرقة في حالةٍ يرثى لها من الهياج الجنوني. نهضتُ واقفًا بلا وعي، وأسندتُ ظهري خائفًا إلى زجاج النافذة. ورأيت كاشيواغي يقبض على رُسغ المرأة الرفيع. وبعد ذلك، رأيته يمسك شَعر المرأة، ويلطمها بكفِّه على خدِّها. وكنتُ أعتقد أن تلك الحركات المضطربة السريعة من كاشيواغي، في الواقع لا تختلف كثيرًا عنه عندما كان يقطع بالمقص ساق وأوراق الزهور أثناء تنسيقها منذ قليل، بل كانت تبدو وكأنها امتدادٌ لذلك الفعل كما هو.

غطَّت المرأة وجهَها بيديها، وخرجت مسرعةً من الغرفة.

أمَّا كاشيواغي، فقد رفع بصره تجاهي أنا الذي كنتُ واقفًا في سكون، ثم أظهر ابتسامةً طفولية بدرجة مريبة وقال:

«حسنًا، عليك اللَّحاق بها. قُم بمواساتها. هيا أسرع!»

هل دُفعتُ بكلمات كاشيواغي تلك، أم كنتُ فعلًا متعاطفًا مع المرأة، كانت تلك المسألة غامضةً داخلي، ولكن على أي حال، تحرَّكت قدماي على الفور وتبِعت المرأة. ولحِقتُ بها على بُعد بيتين أو ثلاثة من مسكن كاشيواغي.

كان المكان، منطقة إيتاكوراتشو خلف جراج كاراسوما. أضاء صدى الترام الذي يدخل الجراجَ سماءَ الليل الغائمة، وظُلِّلت السماء بأشعة الوميض البنفسجي الخافت. دلفت المرأة إلى جهة الشرق من منطقة إيتاكوراتشو، وصعِدت متخذةً الطرق الخلفية. مشيتُ وراء المرأة التي تمشي باكيةً بميلٍ صامتًا، وأخيرًا انتبهتْ لي، فاقتربتْ مني. ثم بصوتٍ مبحوح بسبب البكاء المستمر، ولكنها لم تتخلَّ عن طريقة الحديث المؤدبة للغاية، أخذت تشتكي إليَّ طويلًا من سوء أفعال كاشيواغي.

يا تُرى كم من الوقت مشينا!

سوء أفعال كاشيواغي التي ظلَّت تنصبُّ على أذني دون انقطاع، تلك البنود الشنيعة والشريرة كلُّها كانت فقط تتردَّد في أذني تحت مسمَّى كلمة «الحياة». كانت قسوته وطريقة كلامه المتحايلة، وخيانته، وبروده العنيف، والوسائل العديدة التي يعتصر بها المال من المرأة، لم تزِد عن أنها تفسِّر الجاذبية التي يتمتَّع بها وتَصعُب على الوصف. ثم كان من الأفضل لي أن أومن بإخلاصه هو تجاه قدَمه الحَنْفَاء.

أنا الذي لم ألمس الحياةَ ذاتها من بعدِ موت تسوروكاوا المفاجئ، تراقصتُ بعد فترة غياب، مع حركة حياة فردية مظلِمة أكثر تعاسة، وعوضًا عن ذلك، حياة لا تتوقف عن

تجريح الآخرين بكلِّ ما لها من قدرة على الحياة. عادت كلمته المختصرة الجامعة «كمية القتل ليست كافية» إلى الحياة مرةً أخرى، وضربتْ أذني. ثم استعاد قلبي كلمةَ الدعاء التي دعوتُها وقت انتهاء الحرب، عند قمَّة جبل فودوسان، تجاه الأضواء الكثيفة لمدينة كيوتو، كان ملخَّص الصلاة الخالصة كالتالي «أرجو أن يصبح الظلام الذي في قلبي، مساويًا لظلام الليل الذي يحيط به عددٌ لا نهائي من الأضواء.»

لم تكن المرأة ذاهبةً في اتجاه بيتها. بل كانت تمشي بلا هدف محدَّد، وتختار فقط الطرقَ الخلفية التي يقلُّ فيها المارة من أجل مواصلة حديثها معي. وأخيرًا عندما وصلنا إلى أمام بيتها الذي تسكن فيه بمفردها، لم أكن أعرف أين يقع مكانه في المدينة.

كانت الساعة قد صارت العاشرة والنصف بالفعل، وكنتُ على وشْك توديعها والعودة إلى المعبد، ولكني صعدتُ إلى بيتها مجبرًا بعد أن دعتني إلى الصعود.

دخلت المرأة أولًا وأضاءت النور، ثم قالت ما يلي فجأة:

«هل حدث لك أن فكرتَ مرةً في لعن أحدٍ وتمنِّي موته؟»

أجبتُ دون تردُّد «حدث». وكان الأمر العجيب أنني حتى ذلك الوقت كنتُ قد نسيت؛ فقد كنت قد تمنيت بكل وضوح موتَ فتاة المسكن التي كانت شاهدة على عاري.

«أمرٌ مخيف. أنا أيضًا كذلك.»

جلست الفتاة على حصير التاتامي بالجانب وهي تكاد تقع. كان مصباح الغرفة على الأرجح ١٠٠ واط؛ لذا كانت درجة الإضاءة عاليةً علوًّا نادرًا في وقت وضع قيود على استهلاك الكهرباء، كانت شدة الضوء تبلغ ثلاثة أضعاف درجة الإضاءة في مسكن كاشيواغي. ولأول مرة ينعكس جسد الفتاة متألقًا من الضوء. وبدا قماش هاكاتا الذي في حزام الكيمونو أبيضَ زاهيًا، وبرز واضحًا من اللون البنفسجي لرسمةِ زهرة الوستارية المطبوعة على الكيمونو.

ثمَّة مسافةٌ من مدخل جبل نانزنجي وحتى غرفة الزبائن في مطعم تنجوان، لا يمكن عبورها إلا للطيور، ولكنني شعرتُ أنني اقتربتُ من تلك المسافة، ووصلت أخيرًا إلى هناك، بعد أن استغرقتُ عددًا من السنوات. منذ ذلك الوقت، قطَّعت الزمن قِطَعًا متناهيةَ الصِّغر، واقتربتُ اقترابًا مؤكدًا مما يعنيه منظر تنجوان السحري. فكرتُ أن الأمر يجب أن يكون كذلك. فلم يكن هناك شكٌّ أن طبيعةَ الفتاة تغيَّرت، في الوقت الذي يصل فيه ضوءُ نجم بعيد، مثلما يتغير كلُّ ما على الأرض بالفعل. مع مثل هذا التغيير، يمكن التفكيرُ أنه إذا كنا توقَّعنا مسبقًا لقاءنا اليومَ عندما نظرتُ إليها من فوق مدخل جبل نانزنجي، كنا نستطيع التلاقي مرةً أخرى، أنا وهي وقتها ونُعيد العلاقةَ القديمة مرةً أخرى بتعديل بسيط.

وعندئذٍ تحدثتُ. تحدثتُ بتلعثم وأنفاسي تلهث. عادت كلمات ذلك الوقت إلى الحياة، وعادت الأوراق الشابة إلى الحياة، وعاد إلى الحياة الملاك والعنقاء اللذان في لوحة سقف البرج الخماسي العالي. عادت الدماء الحيوية تنبض في خدود الفتاة، وبديلًا عن الإضاءة العاصفة في عينيها سكنت إضاءة مضطربة وغير مستقرة.

«هل حقًّا ما تقول؟ هل كان الأمر كذلك بالفعل؟ يا لها من صدفة غريبة! الصدفة الغريبة هي ما يُطلَق على هذا الأمر.»

هذه المرة امتلأت عينَي الفتاة بدموع فرح الكبرياء. فقد نسيت الخزي الذي نالها توًّا، وألقت بجسدها مقلوبًا في بحر الذكريات، وغيَّرت الهياج نفسَه كما هو إلى حالةٍ أخرى من الهياج المستمر، وأُصيبت بحالة تشبه الجنون. وتبعثر طرف كيمونو الزاهي.

«لم يَعُد الثدي يُخرِج لبنًا. آه ... يا للطفل المسكين! ما من حليب ولكنه يريد أن يظهر لك هكذا. منذ ذلك الوقت، وأنت تحبُّني، الآن أنا أراك ذلك الرجل. إذا رأيتك ذلك الرجل فلن يكون هناك خجل. حقًّا سأُريكهما هكذا.»

بدا ما فعلته المرأةُ بعد أن قالت ذلك بنبرة مَن يُقرِّر قرارًا حاسمًا، دافعه الفرحة المجنونة، أو شدة اليأس. على الأرجح في نطاقِ وعيها فقط ثمَّة الفرحة المجنونة والقوة الحقيقية التي تحثُّها على ذلك الفعل العنيف، اليأس الذي أعطاها إيَّاه كاشيواغي، أو ربما هو الطَّعم ذو اللزوجة القوية المتبقي لليأس.

هكذا رأيت أمام عينيَّ تفكُّك حزام الكيمونو، وتفكُّك أحزمة كثيرة، ورأيت حرير الحزام يُحل مصدِرًا أصواتًا صاخبة. وسقطت ياقة المرأة. أخرجت يد المرأة الثدي الأيسر أمام عينيَّ، من موضعٍ يظهر فيه صدرها الأبيض قليلًا.

سأكون كاذبًا إذا قلتُ إنني لم أُصَب بأحد أنواع الدُّوار. لقد كنتُ أشاهد، أشاهد كلَّ التفاصيل. ولكني توقفتُ عند كوني شاهدًا. بدا لي من أعلى شجرة الكرز تلك عند مدخل الجبل، شيءٌ كنقطة بيضاء بعيدة وسحرية، لم تكن لحمًا يملك حجمًا وكمًّا محدَّدًا مثل هذا. بسبب تخمُّر ذلك الانطباع لفترة طويلة أكثرَ من اللازم، فقد كان الثدي نفسُه الذي أمام عينيَّ لحمًا، ولم يَزِد عن كونه أحدَ الأشياء المادية. بل وكان يشتكي من أمرٍ ما، لم يكن لحمًا يعرض نفسَه ويُغري. كان دليلًا بلا طَعم على الوجود، ومنفصلًا عن الحياة انفصالًا كاملًا وتامًّا، كان فقط مجرَّد شيء مكشوف وموجود ها هنا.

كنتُ أحاول أن أكذبَ ثانية. حقًّا إنه كذلك، أنا كنتُ على وشْك الإصابة بالإغماء. ولكن لأن عيني من كثرة رؤيتها للتفاصيل، فلقد تخطت حقيقةَ أن الثدي هو ثدي أنثى، ونظرتُ إليه جزءًا بعد آخر حتى تحوَّل تدريجيًّا إلى قِطَع متناثرة بلا معنًى.

... كان ما حدث بعد ذلك عجيبًا. والسبب أنه في نهاية المرور بتلك التفاصيل المؤلمة، أخيرًا بدأ ذلك يبدو جميلًا في عيني. لقد مُنِح ذلك الثدي أثناء وجوده أمام عيني طبيعةَ الجَمال القاسي والعقيم، وانغلق تدريجيًّا داخل ذلك المبدأ نفسه. مثلما تنغلق الوردة داخل مبدأ الورد.

يصل إليَّ الجَمال متأخرًا. متأخرًا عن الناس؛ فالناس تكتشف الجَمال والغريزة الحسية في نفس الوقت، ولكن يأتيني ذلك بعد مرور وقت طويل جدًّا. استعاد الثدي سريعًا علاقةَ الاتصال مع الجسد كلِّه، وتخطَّى اللحم ... ليصير مادةً بلا حسٍّ، ولكنها رغم ذلك خالدة، ومتصلة إلى الأبد.

أريد منكم إدراكَ ما أحاول قوله. فلقد ظهر هنا المعبد الذهبي مرةً أخرى. أو بالأحرى لقد تحوَّل الثدي إلى المعبد الذهبي.

تذكَّرت وقتَ مناوبة ليلة الإعصار في بداية الخريف. حتى لو انعكس القمر لامعًا، كان الظلام المهيب الثقيل الفاخر يعكِّر ما داخل المعبد الذهبي في الليل، الجانب الداخلي من النافذة، والجانب الداخلي من الباب ذي الإطار المتعدِّد، وتحت السقف الذي نُزعت عنه القشرة الذهبية. كان ذلك أمرًا طبيعيًّا. والسبب أن المعبد الذهبي ذاته، لم يكن إلا العدم نفسه بُني بعناية فائقة. وهكذا يطلِق سطح الثدي الخارجي الذي أمام عيني لمعانًا للحم مشرق ولكن كان داخله ممتلئًا بنفس الظلام. ذلك الجوهر الحقيقي كان نفس الظلام المهيب الثقيل الفاخر.

لم يُصبني الوعي بالسُّكْر مطلقًا. بل على العكس تم العبث بالوعي واحتقاره. وبالطبع الحياة والشهوة كذلك! ... ولكن لم يرحل عني شعورٌ بالنشوة العميقة، ولفترة وكأنني تخدَّرت ظللتُ جالسًا أمام ذلك الثدي العاري.

وهكذا مرةً أخرى، قابلتُ نظرة الاحتقار الباردة تمامًا للمرأة وهي تعيد ثديها إلى داخل ملابسها. استأذنت في الرحيل. أغلقَت المرأة التي ودَّعتني حتى المدخل، البابَ خلفي بصوتٍ عالٍ.

... كنتُ لا أزال في نشوة أثناء عودتي إلى المعبد. تأتي وتروح على ذهني صورتَي الثدي والمعبد الذهبي بالتبادل. وملأني شعور بالسعادة الضعيفة.

ولكن برد قلبي تدريجيًّا، عندما بدت في الأفق البعيد البوابة العمومية لمعبد روكوؤنجي، وتصخب خلفه غابة الصنوبر الأسود، وانتصر الضَّعف، وتحوَّل إحساس السَّكرة إلى شعور بالاشمئزاز، وازداد شعور الكراهية الذي لا أعرف تُجاه ماذا هو موجَّه؟

«مرة أخرى انفصلتُ عن الحياة!» قلتُ هذا إلى نفسي، وتابعتُ: «مرة ثانية نفس الأمر. لماذا يحرص المعبد الذهبي على حمايتي؟ رغم عدم طلبي ذلك منه، لماذا يحاول فصلي عن الحياة؟ أنا حقًّا أفهم أن المعبد الذهبي ربما ينقذني من السقوط في الجحيم. ولكن من خلال ذلك جعلني المعبد الذهبي شخصًا أكثرَ شرًّا من البشر الذين سقطوا في الجحيم، جعلني [رجلًا يعرف خبايا الجحيم أكثرَ من أي شخص آخر].»

كانت البوابة الرئيسة تغرق في سواد الهدوء والسكينة. وتقف إضاءة المدخل الخافتة التي تُطفأ عندما يدقُّ ناقوس الصباح. دفعتُ باب المدخل. انفتح ذلك الباب وأحدثت السلسلة القديمة التي علاها الصدأ صوتًا وهي تجرُّ الثِّقل الذي في الداخل.

كان الحارس نائمًا بالفعل. في الجانب الداخلي من البوابة، ورقةٌ بها تعليمات المعبد أنه يجب على آخر مَن يهبط من الجبل بعد الساعة العاشرة مساء، إغلاقُ البوابة، وثمَّة لوحتان هما لمن لم يرجع بعدُ إلى المعبد. الأولى كانت باسم كبير الرهبان، والثانية باسم خادم الحديقة العجوز.

كلما مشيت، أظهرت لي الأخشاب التي تصل أطوالها إلى حوالي خمسة أمتار والمتراكمة في موقع أعمال البناء على الجانب الأيمن، لونَ الخشب المشرق رغم الليل. وعندما اقتربت، كانت نشارة الخشب ساقطةً متناثرة وكأنها زهورٌ صفراء مفروشة ومبعثرة، وتفوح في الظلام رائحةُ الخشب النفَّاذة الجميلة. درتُ حول جانب بَكرة البئر الموجودة على طرَف موقع أعمال البناء، للذهاب إلى المطبخ.

كان يجب عليَّ قبل الخلود إلى الفراش، مقابلةُ المعبد الذهبي مرةً ثانية. تركتُ خلفي المبنى الرئيس لمعبد روكوؤنجي الغارق في هدوء النوم، ومررتُ من أمام البوابة ووصلتُ إلى الطريق المؤدية إلى المعبد الذهبي.

بدأ المعبد الذهبي في الظهور. محاطًا بضجيج الأشجار حوله، كان ذلك المعبد يقف في الليل راسخًا دون حَراك تقريبًا، ولكنه ليس نائمًا على الإطلاق. وكأنه هو ذاته حارس الليل ... حقًّا! أنا لم يسبق لي أن رأيتُ المعبد الذهبي نائمًا في هدوءٍ مثل باقي المعابد. لقد استطاع هذا المبنى المعماري الذي لا يسكنه أحد، نسيانَ النوم. فهرب الظلام الذي يسكنه، من القواعد والقوانين البشرية تمامًا.

توجهتُ نحو المعبد الذهبي في نبرةٍ تشبه اللعنَ تقريبًا، وناديته للمرة الأولى في حياتي بما يلي:

«في يومٍ ما سأسيطر عليك. لكيلا تأتي لتعوقني مرةً ثانية، يومًا ما سأجعلك مِلك يدي بالتأكيد.»

تردَّد صدى الصوت تردُّدًا أجوفَ في بهيمِ ليل بِركة كيوكو.

الفصل السابع

وهكذا، كانت خبرتي تعمل على نوعٍ من أنواع الشفرة، وكما في ممرٍّ من المرايا، حيث تستمر صورةٌ واحدة تتكرر في العمق إلى ما لا نهاية، تشير ظلال الأشياء التي رأيتها في الماضي بوضوح إلى الأشياء الجديدة التي أقابلها لأول مرة، ويرشدني هذا التماثل إلى عمق الممر دون وعي أو دراية، أشعر أنني أقتحم غرفةً داخلية لا قاعَ لها. نحن لا نصطدم اصطدامًا مفاجئًا مع قدَرنا. إن الرجل الذي سيُعدَم في المستقبل، يرى شبح عامود المشنقة يتراءى له بلا انقطاع، في أعمدة إنارة الطريق وفي أعمدة المزلقان حيث يسير في أيامه العادية، ومن المفترض أنه أصبح أليفًا مع ذلك الشبح.

وبالتالي لم تكن تجاربي عبارة عن تراكماتٍ بعضها فوق بعض. لم يكن لها تراكمات تكوِّن طبقاتٍ ولم يكن لها سُمْك لتصنع جبالًا. إذا استثنينا المعبد الذهبي، فأنا ليس لديَّ أيُّ ألفة مع مختلف الأشياء، ولم أحمل أي ألفة خاصة تجاه تجاربي الذاتية. ولكني أدركتُ أن هناك صورةً ما مشئومةً ومؤلمة في طور التشكيل، تتكوَّن من سلسلة أجزاء صغيرة من بين تلك التجارب والخبرات، أجزاء لم يبلعها قاع البحر أثناء الظلام، أجزاء لم تسقط مرارًا وتكرارًا في بحرٍ لا نهائي من انعدام المعنى.

ولكن أحيانًا ما كنت أفكِّر قائلًا: ما هي هذه الأجزاء؟ ولكن كان ذلك عبارة عن قِطَع من التجارب المنفصلة تلمع متألقة، ولكن ينقصها المعنى والنظام أكثرَ من لمعان قِطَع زجاج من قنينة جَعة ملقاة في الطريق. ورغم قول ذلك، فلا يمكنني التفكير أن تلك القِطَع هي التي سقطت منهارةً، وهي كانت تشكِّل في الماضي الجَمال الكامل. لأن كل قطعة منها بدَت وكأنها ترى حُلم المستقبل داخل ذلك اللامعنى، في ظل الانعدام الكامل للنظام، ومع استغناء عن الهيئة القبيحة. تحلُم بمستقبلٍ بلا اعتبار، وبلا خوف، وبهدوء وريبة!

مستقبل بلا علاج ولا استعادة صحة، ومستقبل لا تصل إليه يد، مستقبل لم يتحقَّق من قبلُ حقًّا!

كان مثل هذا التأمُّل الغامض، حتى بالنسبة لي أنا، ومع اعتقادي بأنه لا يليق بي، أحيانًا ما يعطيني أحدَ أنواع الإثارة الشاعرية. في ذلك الوقت، وعندما أسعد بليلة قمرية، أحمل الناي، وأذهب إلى جوار المعبد الذهبي لأعزف. أصبحت الآن أستطيع عزْفَ حتى لحن «عربة القصر الإمبراطوري» الذي كان يعزفه كاشيواغي، دون النظر إلى النوتة الموسيقية.

إن الموسيقى تشبه الحُلم. وفي نفس الوقت تشبه حالةً من يقظة مؤكَّدة بدرجة كبيرة، وهي عكس الحُلم. فكرتُ: يا تُرى أيهما هي الموسيقى حقًّا؟ تملك الموسيقى في كل الأحوال قوةً داخلها تستطيع جعْلَ هذين المتضادين ينقلبان إلى العكس. ثم وعند عزفي لحن أغنية «عربة القصر الإمبراطوري»، أتجسَّد أنا بمنتهى السهولة في كل مرة. وتعرفتْ روحي على متعة التجسُّد للموسيقى. كانت الموسيقى بالنسبة لي — بعكس كاشيواغي — عزاءً حقيقيًّا.

... بعد أن أنتهيَ من عزف الناي، في كل مرة أفكِّر في نفس الشيء، لماذا لا يقوم المعبد الذهبي بتأنيبي وتعطيلي عن التجسُّد بهذه الطريقة ويدعني أفعل ذلك وهو صامت؟ من جهة أخرى، هل حدث ولو مرةً واحدة أن تغاضى المعبد الذهبي عن تجسُّدي في حالة السعادة والمتعة الإنسانية؟ ألم يكن دَيْدان المعبد الذهبي أن يحجُب على الفور تجسُّدي، ويعمل على عودتي إلى ذاتي الحقيقية؟ لماذا فقط فيما ينحصر الأمر على الموسيقى، يسمح المعبد الذهبي بالسُّكر ونسيان النفس؟

... ينخفض سحر الموسيقى عند التفكير بهذه الطريقة، أي إنه فقط بمجرد التفكير أن المعبد الذهبي هو الذي يسمح. والسبب أنه ما دام المعبد الذهبي يعطيني قبولًا ضمنيًّا، فمهما ظهرت الموسيقى شبيهة بالحياة، فهي ليست إلا حياةً خيالية مقلَّدة، ومهما حاولتُ تجسيدها، فلن يكون ذلك التجسُّد إلا مؤقتًا فقط.

لا أريد منكم أن تعتقدوا أنني منذ فشلي مرتين مع النساء ومع الحياة، يئستُ وأصبحتُ أميل إلى الأفكار الانطوائية. فحتى نهاية عام ١٩٤٨ أُتيحت لي عدةَ مراتٍ فرصٌ من هذا النوع، وبسبب مساعدة وإرشاد كاشيواغي استطعتُ مواجهة الأمر دون جبن أو هروب. ولكن كانت النتيجة دائمًا هي نفسها.

يظهر المعبد الذهبي حائلًا بيني وبين المرأة، بيني وبين الحياة. وبعد ذلك تتحوَّل على الفور اليدُ التي كنتُ على وشْك الإمساك بها إلى رماد، ويتحوَّل المشهد أمامي إلى صحراء.

في أحدِ الأوقات، كنتُ أستريح من العمل في الحقل خلف المطبخ، كنتُ أتأمَّل منظرَ نحلة تطنُّ فوق زهرة أقحوان صيفية صفراء صغيرة. اختارت النحلة التي جاءت تطير وهي تطلِق صوتًا من جناحيها الذهبيِّين وسط أشعة الشمس التي في كل مكان، إحدى زهرات الأقحوان الصيفية من بين الكثير الموجود في المكان، ثم وقفتْ تترنح لفترة أمامها.

حاولت أن أنظر وكأنني عينا النحلة. كانت زهرة الأقحوان تفرش بَتَلاتها السليمة الحواف ذات اللون الأصفر الخالية تمامًا من العيوب. كانت بحقٍّ جميلةً وكأنَّها معبد ذهبي صغير، وفي كمال المعبد الذهبي، ولكنها لا تأخذ شكل المعبد الذهبي مطلقًا، وتوقَّفت عند كونها إحدى الحالات الشكلية لحلقة زهرة الأقحوان. تطلِق فتنتَها من خلال احتفاظها بوجودها بهذه الطريقة، التي تفيض بشدةٍ لتصبح شيئًا يناسب تمامًا رغبات النحل. يا له من أمرٍ سحري وإلهي أن تتنفَّس هكذا منكمشة بجسدها في وضع الشيء المستهدَف أمام الرغبات الديناميكية التي تطير وتنساب بلا شكل! تصبح الحالة الشكلية تدريجيًّا أكثرَ ضعفًا، وعلى وشْك التهتُّك وتهتز مرتعشة. وهذا هو المفترض؛ فالحالة الشكلية الأنيقة لزهرة الأقحوان، خُلقت لتتماشى مع رغبات النحل، وذلك الجَمال ذاته؛ لأنه تفتَّحت أزهاره باتجاه التوقُّعات، فالآن حقًّا هي اللحظة التي تلمع فيها وتتألق معنى الحالة الشكلية داخل الحياة. الشكل حقًّا، هو قالب الحياة الديناميكية بلا شكل، وفي نفس الوقت، طيران للحياة التي بلا شكل، هو قالب لجميع أنواع الأشكال في هذا العالم. تتقدم النحلة بهذا الحال نحو أعمق أعماق الزهرة، وتتلطخ بمسحوق الزهرة، ثم تغرق جسدها في السُّكْر. أصبحت زهرة الأقحوان الصيفية ذاتها التي تستقبل النحلة، وكأنها نفسها نحلة ترتدي درعًا أصفرَ فاخرًا، فبدت كأنها تهزُّ جسدها بعنفٍ محاوِلةً الطيران في التو والحال مبتعِدةً عن ساق النبات.

أحسستُ بدُوار تقريبًا بسبب أشعة الشمس وبسبب هذا الذي يحدث تحت أشعة الشمس تلك. وفجأةً مرة ثانية ابتعدَت النحلة عن نظري، ثم عندما عادت ظنَّت عيني التي كانت تتأمَّلها أنها بالضبط في موقع المعبد الذهبي. كان ذلك كما يلي: كأنني عدلتُ عن أن أكون عينَ النحلة ورجعتُ إلى عيني، وفي اللحظة التي تقترب فيها الحياة مني، فإنني أعدل عن النظر بعيني، وأمتلك عين المعبد الذهبي. ووقتها يَحول المعبد الذهبي بيني وبين الحياة.

... عدتُ إلى عيني. إن النحلة وزهرة الأقحوان الصيفي في عالم الأشياء الشاسع، لا تشكل إلا مجرد أشياء «موضوعة بانتظام». طيران النحل واهتزاز الزهور، لم يختلفا

مطلقًا عن نسائم الريح. ففي ذلك العالم المتوقِّف المتجمِّد انتهت بالموت كلُّ الأشياء من نفس الدرجة، والهيئة التي تبث الإزعاج لهذه الدرجة. في حالة الأقحوان ليس من خلال هيئة، ولكن من خلالِ ما نطلق عليه نحن اسم «أقحوان» بطريقة مبهمة، من خلال التعهُّد لم يَزِد عن مجرد جَمال. ولأنني لم أكن نحلة فلم أحسَّ بإغراء الأقحوان، ولأنني لم أكن أقحوانًا فلم تعشقني النحلة. كافة أنواع الأشكال وديناميكية الحياة اختفت الألفة التي على هذا المنوال. ورُمي العالم في حالة نسبية، وكان الزمن وحدَه هو الذي يتحرك.

ظهر معبد الخلود الذهبي المطلَق، وعندما تغيَّرت عيني لتكون عينَ ذلك المعبد الذهبي، لا يجب أن أتكلَّم بإلحاح هكذا عن تغيُّر العالَم، ليحافظ المعبد الذهبي فقط على هيئته في ذلك العالَم المتغيِّر، ويحتكر الجَمال، وعن تحوُّل غير ذلك من الأشياء إلى تراب. من بعدِ ما دهستُ بقدَمي العاهرة في حديقة المعبد الذهبي، وكذلك منذ موت تسوروكاوا المفاجئ، كان السؤال التالي يتكرَّر في ذهني: «رغم كل ذلك، هل الشر ممكن؟»

كان ذلك في اليوم الأول من شهر يناير عام ١٩٤٩.

انتهزتُ فرصة يوم السبت المنزوع العصا (يسمَّى كذلك لأنه تُنزع فيه عصا الزِّن)، وذهبتُ لمشاهدة فيلمٍ في قاعة عرض رخيصة من قاعات الدرجة الثالثة، وأثناء العودة مشيتُ بمفردي في منطقة شينكيوغو بعد غياب. في وسط الزحام، شاهدتُ وجهًا أعرفه تمامًا، وقبل أن أتذكَّر مَن هو، اختفى الوجه في زحام الناس واختلط فيمن خلفي.

كان ذلك الشخص يعتمر قبعةً بنمية ويرتدي معطفًا فاخرًا ويلفُّ عنقه بلِفاع، ويسير مع امرأة من الواضح جدًّا أنها من بنات الغيشا، ترتدي معطفًا بلون أحمر قانٍ. كان وجه الرجل المكتنز الوردي، له نضارة مريبة مثل نضارة بشرة الأطفال لا تُرى أبدًا في الرجال المتوسطي العمر العاديِّين، وأنفه الطويل نوعًا ... كانت القبَّعة البنمية تخفي تلك الصفات المميزة لكبير الرهبان ولا أحد غيره.

وعلى العكس أنا الذي خِفتُ من أن يكون كبير الرهبان قد تعرَّف عليَّ، رغم أنه من جانبي لم يكن ثمَّة ما يخجلني. والسبب هو أنني أصبحتُ شاهدَ عِيان على تنكُّر كبير الرهبان، ودليلَ إدانة له، وشعرت على الفور أنني أريد أن أتحاشى عقْدَ علاقةِ صمتٍ تتعلَّق بالثقة وعدم الثقة مع كبير الرهبان.

وقتها كان يسير كلبٌ أسود، متخفيًا في زحام العام الجديد. وبدا أن ذلك الكلب الأسود كثُّ الشعر معتادٌ السيرَ في الزحام، فكان يتسلل بمهارة فائقة بين معاطف الفتيات

الجميلات ومعاطف الجنود ويقف وقفة خاطفة أمام المحلات هنا وهناك. وقف الكلب أمام محل هدايا شوغوئن الذي يبيع الحلوى اليابانية بهيئةٍ لا تختلف عن الماضي، ليشم الرائحة. بسبب إضاءة المحل استطعت أخيرًا رؤيةَ وجه الكلب، كانت إحدى عينيه مطموسة، وفي مؤخرة العين المطموسة كان المخاط المتجمِّد والدم يشبهان العقيق. وتنظر العين السليمة إلى الأرض تحته مباشرة. اختلجت أماكنُ مختلفة من ظهره ذي الشعر الكثِّ، وبرزت ضفائر الشعر المشدودة تلك واضحة.

لا أدري لِمَ جذب الكلب اهتمامي. ربما انجذبتُ إليه بسبب أن ذلك الكلب يسير تائهًا وهو يحتضن بعنادٍ في داخله عالمًا مختلفًا تمامًا عن هذه المنطقة الحيوية الصاخبة من المدينة. يمشي الكلب في عالَم مظلم ليس فيه إلا حاسة الشم فقط، ويصبح هذا في عالم البشر عالمًا مزدوجًا، وعلى العكس تهدِّده الأضواء وصوت غناء المسجِّل وأصوات الضحكات، برائحة مظلمة لحوحة. والسبب أن القانون المنظِّم للرائحة هو أكثرُ تأكيدًا، وارتبطت ارتباطًا مؤكدًا مع الرائحة الملتصقة بأقدام الكلب الرطبة، الرائحة الكريهة الضئيلة التي تبثُّها أحشاء البشر وأعضاؤهم.

كان الجو باردًا للغاية. ومرَّ اثنان أو ثلاثة شباب يبدو عليهم أنهم من تجار السوق السوداء، وهم يخطفون زينةَ أشجار الصنوبر من على أبواب المنازل التي لم يتم نزعها بعدُ رغم انقضاء موسمها. كانوا يتنافسون وهم يبسطون أكفَّهم التي ترتدي قفازات جلدية جديدة. في كفِّ أحدهم بضعة أعواد من الصنوبر، وبقي في كفٍّ آخرَ فرعٌ صغير كامل للصنوبر. مر تجار السوق السوداء من أمامي وهم يضحكون.

حسنًا، كان الكلب قد أرشدني إلى هنا في غفلةٍ مني. عندما أعتقد أنني فقدتُ أثر الكلب أجده يظهر ثانية. كان قد انعطف عند طريق كاواراماتشي. وهكذا خرجتُ إلى ممر المشاة لطريق الترام التي كانت مظلمة نوعًا ما عن طُرق شينكيوغوكو. اختفى الكلب. أخذتُ أنظر يمينًا ويسارًا. ووصلت حتى طريق السيارات أبحث بعيني عن مصير الكلب.

وعندها وقفَت أمام عيني سيارةُ أجرة فاخرة ذات هيكل لامع. فُتح الباب، فركبتِ امرأة في البداية. نظرتُ بلا وعي إلى تلك الناحية. انتبه فجأةً لي الرجل الذي كان على وشْك أن يركب السيارة بعد المرأة، وتسمَّر واقفًا في مكانه.

كان ذلك الرجل هو كبير الرهبان. لا أدري كيف ولماذا كبير الرهبان الذي مرَّ بجانبي في الاتجاه المعاكس منذ قليل، دار دورةً كاملة هذه المرة، ثم يكون مصيري أن ألقاه أمامي مرةً أخرى؟ على كل حال كان ذلك الرجل هو كبير الرهبان، ولون المعطف الأحمر الفاقع

الذي ترتديه المرأة التي ركبت أولًا، هو نفس اللون الذي رأيته منذ قليل ولا يزال باقيًا في ذاكرتي.

هذه المرة لم يكن هناك طريقة لتفاديه. ولكن مع صدمة المفاجأة لم أستطِع التكلم. من قبل أن يخرج صوتي، كان صوت التلعثم يغلي داخل فمي. وأخيرًا ظهرت على وجهي ملامحُ لم أكن أتخيل أنها تظهر. ما حدث أنني ابتسمتُ لكبير الرهبان دون أن يكون لذلك أي علاقة بالموقف الذي نحن فيه.

ولا أستطيع أن أفسِّر أو أشرح معنى تلك الابتسامة. فقد كانت الابتسامة كأنها جاءت من خارجي، والتصقت فجأةً فوق فمي. ولكن كبير الرهبان الذي رأى ابتسامتي تغيَّر لون وجهه.

«أيها الغبي! هل كنت تتبع أثري؟»

بعد أن عنَّفني ذلك التعنيف، ركب كبير الرهبان على الفور السيارة وهو ينظر إليَّ بطرْف عينيه، وأُغلق الباب محدثًا صوتًا مدويًا، وغادرت السيارة الفاخرة بسرعة عالية. وعندها اتضح لي فجأةً أن كبير الرهبان كان قد انتبه لي بالتأكيد عندما قابلته منذ قليل في طريق شينكيوغوكو.

في اليوم التالي، انتظرتُ أن يستدعيني كبير الرهبان لغرفته ليوبخني. ومن المفترض أن تكون تلك فرصةً لي لتبريرِ ما حدث. ولكن وكما حدث في حادثة دهسي للعاهرة بدأ تعذيب كبير الرهبان لي بالصمت والتجاهل.

وفي ذلك الوقت نفسه جاءت صدفةً رسالةٌ من أمي. وكانت نهاية الرسالة هي نفس ما في الرسالة السابقة، أنها تعيش على أملِ التمتُّع باليوم الذي أصير فيه صاحبَ معبد روكوؤنجي.

كلما أتذكَّر الكلمات العاصفة التي انهال بها عليَّ كبير الرهبان بقوله: «أيها الغبي! هل كنت تتبع أثري؟» أجدها لا تناسبه مطلقًا. لو كان راهبًا يتميز باتساع الأفق وغنيًّا بروح الدعابة، لَمَا أمطر تلميذه بمثل هذا التعنيف الفظ كالرعد. وبدلًا من ذلك كان عليه أن يلفظ بكلمة لها فاعلية أكثر مثل طعن السيف. كان أمرًا لا يمكن إصلاحه أبدًا، ولكن لو فكَّرنا في الأمر بعد حدوثه، لا شك أن كبير الرهبان وقتها أساء فهمي، وفكَّر أنني عندما اكتُشِفت في نهاية تتبُّعي لأثره بسوء نية، أظهرتُ تلك الابتسامة الساخرة، فغضِب تلك الغضبة الوضيعة بعد قليل من الحَيرة والتردُّد.

ولكن على أي حال، صارت أيامي مثقلةً بالقلق مرةً ثانية مع صمت كبير الرهبان. صار وجود كبير الرهبان ذا قوة كبيرة، مثل ظلِّ حشرة العُثَّة التي تظل تطير أمام عين الشخص بإزعاج. كان من المعتاد أن كبير الرهبان عندما يُدعى إلى مناسبةٍ دينية أن يصطحب معه مساعدًا له أو اثنين، ورغم أنه في الأصل كان نائب كبير الرهبان كان هو بالضرورة الذي يقوم بدور مصاحبته، ولكن في الأيام الأخيرة، وكما يطلق عليه الدمقرطة، كان هذا الدور يجري بين خمسة بالتناوب، هم نائب كبير الرهبان والراهب المناوب وأنا واثنان آخران من تلاميذ الرهبنة. وكان مدير الدير الذي حتى الآن يتحدَّث الجميع عن استبداده، قد مات في الحرب بعد أن ذهب إلى الجيش ولم يَعُد، ولذا أُضيف إلى نائب كبير الرهبان ذي الخامسة والأربعين من العمر مهامُّ منصب مدير الدير، ومع موت تسوروكاوا استكمل التلاميذ بتلميذ بديل.

في ذلك الوقت نفسه، مات راهب معبد له تاريخ عريق يتبع نفس طائفة شوكوكوجي، فدُعي كبير الرهبان إلى مراسم ترسيم الراهب الجديد، وكان ذلك دوري أنا في مصاحبته. ولأن كبير الرهبان لم يتراجع تراجعًا خاصًّا عن صحبتي له؛ لذا انتظرتُ أنا الحصولَ على فرصة لتبريرِ ما حدث نوعًا ما أثناء الذهاب أو العودة. ولكن في الليلة التي قبل الذهاب مباشرةً أُضيف إلى الصحبة تلميذٌ آخر من زملائي، وبذلك صارت أمنيتي في ذلك اليوم بالفعل هباءً.

لا شك أن الشخص المحبَّ لأدب الخمسة جبال في عصر كاماكورا، يحفظ كلمات ترسيم الراهب زنكيو سكيشيتسو عند تنصيبه راهبًا مقيمًا لمعبد مانجوجي في كيوتو عام ١٣٦١. ترك الراهب الجديد كلماتِ ترسيم جميلة تصف كلَّ مشاهد الطريق التي أتاها واحدةً بعد أخرى من وصوله إلى معبده الجديد ودخوله من مدخل الجبل إلى قاعة بوذا ثم قاعة تسوتشيدو فقاعة الأسلاف، وفي النهاية تقدُّمه إلى غرفة مبيت الراهب المقيم.

يصِف الراهب المقيم ترسيمَه بفخر وقلبه يرقص فرحًا كما يلي:

«في أعظم مكان في السماء، أفتح قُفل بوابة تيجومانجو وأنا أعزلُ اليد، وأصعد جبل كونرون العظيم عاريَ القدَم.»

بدأ حرق البخور، وأُقيمَ طقس تبخير المصادقة من معلِّم الراهب المقيم ببخور التعميد. في الزمن الماضي عندما كانت طائفة الزِّن لا تتقيد بالعادات، وتعظِّم نِسبَ الاستنارة الفردية أكثرَ من أي أمرٍ آخر، لم يكن المعلِّم هو الذي يختار التلميذ، بل على العكس كان التلميذ هو الذي يختار معلِّمه. والتلميذ لا يحصُل على الاعتراف فقط من أول معلِّم تعلَّم على يديه،

بل يحصُل من عدة معلِّمين حصل على أيديهم على شهادة الاستنارة، ومن بين هؤلاء يعلن على الملأ اسم المعلِّم الذي سيتبع تعاليمه وذلك عند طقس التبخير.

أثناء مشاهدتي لطقس حرق البخور المشرِق هذا، احترت في التفكير، إذا توليتُ أنا خلافة منصب كبير رهبان معبد روكوؤنجي وعند اشتراكي في طقس حرق البخور هذا، هل يا تُرى سيكون عليَّ كما جرت العادة أن أذكر اسمَ معلِّمي؟ ربما سأخرق التقاليد المستمرة من سبعمائة عام وأذكر اسمًا مختلفًا. أخذتُ أتخيَّل أحلامًا أنني إذا حرقتُ بخور طقس تبخير المعلِّم في يومٍ ما ... يكون في ربيع مبكِّر وقت العصر حيث غرفة كبير الرهبان باردة، ورائحة خليط الأنواع الخمسة من البخور تملأ المكان، وسط الأشعة الخلفية اللامعة التي تحيط بظهر القاعة الرئيسة وأدوات الطقوس الثلاث التي تلمع في عمق ستائر الزينة النحاسية، ووسط أوشحة الرهبان المصطفِّين الزاهية الألوان. أخذت أرسم في خيالي هيئتي ككبير رهبان في طقس الترسيم.

... في ذلك الوقت حقًّا، من المؤكد أنني سأطيح عُرض الحائط بتلك التقاليد بخيانة مشرِقة في ذلك العالم وأنا أتراقص في هواء بارد لبداية الربيع. ولن يستطيع الرهبان المصطفُّون على مقاعدهم الكلام من شدة الدهشة، وبالتأكيد سيزرقُّ لون وجوههم من الغضب. فأنا لن أقول اسم كبير الرهبان بلساني. سأقول اسم شخص آخر ... اسم شخص آخر؟ ولكن مَن هو يا تُرى معلِّمي الحقيقي الذي جعلني أصِل إلى الاستنارة. مَن هو شيخي الحقيقي في الديانة؟ يتلعثم فمي. ذلك الاسم الآخر يعيقه صوتُ التلعثم فلا يخرج بسهولة. من المؤكد أنني سأتلعثم. من المؤكَّد أنني وأنا أتلعثم سأحاول أن أنطقَ ذلك الاسم الآخر فأبدأ بقول «الجَمال»، ثم أبدأ في قول «العدم». وعندها تضجُّ القاعة بالضحكات، وفي وسط أصوات الضحك من المؤكد أنني سأقف في حالةٍ قبيحة يُرثى لها.

... استيقظتُ من خيالاتي فجأة. فثمَّة ما يجب على كبير الرهبان فِعله ويحتاج مني مساعدته بصفتي مساعدًا له. في الأصل بالنسبة للمساعد الوقوفُ في هذا الموقف هو فخرٌ بمعنى الكلمة، فقد كان كبير رهبان معبد روكوؤنجي هو أعلى مرتبة بين الضيوف. والأعلى مرتبة من الضيوف هو الذي عند انتهاء طقس تبخير المعلِّم، يدقُّ بمطرقة تسمَّى المطرقة البيضاء، ويبرهن على أن الراهب المقيم الجديد ليس بوذا مزيفًا، بمعنى أنه ليس راهبًا مزيفًا.

كبير الرهبان تلا ما يلي:

«هوئن ريوشوشيو

طوكان داي اتشيغي.»

(بمعنى يجب أن يكون جميعُ مَن حضر هذا الطقس من الرهبان العظام أولَ العالمين بالأمر.)

ودقَّ المطرقة البيضاء بصوتٍ مدوٍّ. تردَّد صدى صوت تلك المطرقة في أنحاء غرفة الراهب المقيم، وجعلني مرةً أخرى أتذكَّر قوة السلطة المعجزة التي يمتلكها كبير الرهبان.

لم أعُد أتحمَّل التجاهل الصامت لكبير الرهبان الذي لا أعرف إلى متى سيستمر. لو كنت أحمل مشاعرَ إنسانية نوعًا ما، فما من قانون يقول بأنه لا يجب انتظار مشاعر من الطرف الآخر تناسب تلك المشاعر. سواء أكانت حبًّا أم كرهًا.

إن مراقبة وجه كبير الرهبان في كل وقت، صارت عادتي التي تدعو إلى الأسى، ولكن لم تبرُز على ذلك الوجه أي مشاعر ولو بقدر ضئيل. لم يكن ذلك الوجه الذي بلا مشاعر حتى باردًا. حتى كان عدم وجود مشاعر يعني الاحتقار، فلم يكن ذلك الاحتقار موجهًا لي شخصيًّا، بل هو نفس نوع الاحتقار الذي يوجَّه لشيء أكثرَ شمولية، على سبيل المثال إلى البشرية عامة، أو إلى أفكارٍ تجريدية متنوعة.

غصبتُ نفسي منذ ذلك الحين على تخيُّل رأس كبير الرهبان الحيواني، وهيئته الجسدية المخزية في ذهني. أتخيَّله وهو يتغوَّط، أكثرَ من ذلك، أتخيَّل منظره وهو نائم مع المرأة ذات المعطف الأحمر القاني. تخيَّلت موضعه وقد تحرَّرت ملامح وجهه التي بلا مشاعر، وصار وجهه ذا مشاعر لا يمكن التفرقة هل هي تضحك بتراخٍ بسبب المتعة، أم هي ملامح التألم؟

ذاب اللحم الطري اللامع مع لحم المرأة الطري اللامع مثله، وكان تقريبًا لا يمكن معرفة الفَرق بينهما. يتدافع بطن كبير الرهبان المتضخم مع بطن المرأة المتضخم ... ولكن الأمر العجيب أنني مهما تشجَّعت في التخيل، يصل وجه كبير الرهبان الذي بلا مشاعر في التو والحال، مع ملامح حيوانية لممارسة الجنس أو التغوُّط، وما من شيء يدفن الفجوة ما بين ذلك. فلا يقلِّص تلك الفجوة ألوانُ مشاعر الحياة اليومية المتعددة بما يشبه قوس قُزح، ولكن كل واحدة تغيَّرت إلى واحدة مختلفة، من النقيض إلى النقيض. إذا تحدَّثنا عمَّا يقلِّص تلك الفجوة الضئيلة، ما يعطي إشارةً بسيطة لذلك، فليس إلا لحظة تأنيب في غاية الخسة يقول لي فيها: «أيها الأحمق! هل كنت تتبع أثري؟» فقط.

بعد طول التفكير وطول الانتظار، صرت أسيرًا لرغبةٍ لا أستطيع نزْعَها، محتواها أنني أريد الإمساكَ بوضوح، بوجه واحد كريه لكبير الرهبان. ونتيجةً لذلك كانت الحيلة التالية التي وصلت إليها تُعتبر مسًّا من الجنون، وأمرًا طفوليًّا، ومبدئيًّا، كانت تسبِّب لي

أنا ضررًا واضحًا، ولكني لم أستطِع التحكُّم في نفسي. ولم أضَع أيَّ اعتبار حتى لكون مثل ذلك العبث يمكن أن يحمل ضررًا مثل أن يجعل كبير الرهبان يبالغ في سوء الفهم ويصل الأمر إلى أن يتأكَّد من جريمتي.

ذهبت إلى الجامعة وسألت كاشيواغي عن اسم المحل ومكانه. وأعلمني كاشيواغي ما أريد دون أن يسألني عن السبب. وعلى الفور ذهبت إلى المحل في ذلك اليوم، ورأيت الأعداد الكبيرة من الصور من حجم البطاقات البريدية الكبيرة لمشاهير الغيشا في منطقة غيون.

ظهرت في البداية وجوه الفتيات بالمساحيق الصناعية متشابهةً ومتساوية، ولكن مع الوقت بدأت تبرُز اختلافات لصفات شخصية دقيقة من وسطهن، ويشف من نفس قناع المساحيق البيضاء والحمراء، ومن الظلام والنور، المعرفة الرشيقة والغباء الجميل، الغضب والمرح الذي لا يتوقَّف، التعاسة والسعادة، بدأت النبرة اللونية المتنوعة تظهر في حيوية. وأخيرًا وصلت إلى الصورة التي جئتُ في طلبها. تلك الصورة، بفضل الإضاءة الباهرة للمحل، كانت الورقة اللميع تعكس لمعانها، وكنتُ على وشْك خطر أن أتخطَّاها ولا أراها، ولكن بعد أن هدأ اللمعان في داخل يدي، ظهر هناك وجهُ المرأة ذات المعطف الأحمر الغامق.

فقلت لصاحب المحل:

«أعطني هذه من فضلك!»

كان العجب من كيفية أنني صرتُ بهذه الدرجة من الجراءة، يتوافق بالضبط مع العجب أنني عندما بدأت هذه الخُطة تغيَّرتُ فجأةً لأصير مرِحًا وفرِحًا بشجاعة القلب التي لا يمكن تفسيرُها. فكرتُ في البداية أن أستغل وقتَ غياب كبير الرهبان عن المعبد، بطريقةٍ لا يُعرف بها مَن الذي فعل ذلك؟ ولكن تدريجيًّا ارتفعت معنوياتي كثيرًا، لدرجةٍ جعلتني أختار طريقةً خطيرة يُعرف منها أنني الفاعل.

ما زلتُ حتى الآن أتولَّى توصيل جرائد الصباح إلى غرفة كبير الرهبان. ذهبت في صباح أحد أيام شهر مارس حيث الجو ما زال به بعض البرودة التي تجعل البشَرة تقشعر، كما هي العادة إلى مدخل المعبد لإحضار الجرائد. ثم أخرجتُ من جيبي صورةَ فتاة غيون، وعندما حشرتها داخل إحدى الجرائد، دقَّ قلبي بعنف.

تصبُّ شمس الصباح أشعَّتها على أشجار النخيل المحاطة بسور الزرع الدائري في منتصف مدخل العربات الدائري للحديقة الأمامية. وتُظلل أشعةُ شمس الصباح تلك، سطحَ الجذوع الخشِن في تألُّق وازدهار. وفي الجهة اليسرى أشجارُ زيزفون. فوق تلك الأفرع تتوقَّف بضعة طيور من طيور الكناريا التي تأخَّرت في عودتها إلى موطنها، وتصدِر أصواتًا

تشبه صوت طقطقة السبحة. شعرتُ بالدهشة بسبب وجود طيور كناريا إلى هذا الوقت، ولكنها كانت بالتأكيد طيورَ الكناريا بالنظر إلى امتداد ريش الصدر الأصفر القليل.

بعد أن قمتُ بالتنظيف والكنس بإهمال، مشيتُ في الممر المبتلِّ هنا وهناك، وأنا أحرص على ألا تبتلَّ قدماي. غرفة كبير الرهبان في مبنى المكتبة الكبرى، كانت الأبواب مغلقة في سكون. وكان الصباح مبكرًا لدرجة أن لون تلك الأبواب البيضاء ما زالت تبدو زاهية.

جثوت على أرضية الممر وقلت الكلمة المعتادة:

«أستأذنكم في الدخول!»

أجاب كبير الرهبان. فتحتُ الباب ودخلت، ووضعت الجرائد المطوية بخفةٍ فوق ركنٍ من أركان المكتب. كان كبير الرهبان خافضًا عينيه يقرأ في كتابٍ ما. ولم ينظر إلى عينيَّ ... تراجعتُ وأغلقت الباب، اطمأن قلبي بشدة، ومشيت ببطء متجهًا إلى غرفتي.

جلستُ في غرفتي، وأخيرًا استسلمت لشعور الخفقان المرتفع أثناء انتظاري موعدَ الذهاب إلى الجامعة، ولم يسبق لي انتظارُ شيءٍ ما بمثل هذا الأمل. ورغم أنني فعلتُ فَعلتي تلك متوقعًا كراهيةَ كبير الرهبان، لكن قلبي وصل به الحال إلى درجة الحُلم بمشهدٍ تفور فيه العواطف الدرامية لإنسانٍ يتفاهم مع إنسان.

ربما يأتي فجأةً كبير الرهبان إلى غرفتي ويعفو عني. وأصل أنا الذي تم العفو عني، ربما للمرة الأولى في حياتي منذ ولادتي، إلى ذلك الشعور المشرق البريء الذي كان يشعر به تسوروكاوا يوميًّا. وعلى الأرجح سيحتضنني ولا شكَّ أنه سيتبقى فقط شعور الندم لتأخُّر تفهُّم كلٍّ منا للآخر.

لا أستطيع شرْحَ سببَ إصابتي بحمى تلك التخيُّلات البلهاء، حتى لو كان ذلك لفترة وجيزة. إذا فكرتُ بهدوء وسكينة أدركتُ أنني أثناء صنعي بنفسي سببًا لفقدان الأمل للأبد في أن أصبح سيدَ المعبد الذهبي، فبفضلِ فعلٍ شاذ ممل، أغضبتُ كبير الرهبان، وجعلته يُزيل اسمي من المرشحين لخلافته في منصبه، أثناء ذلك كنت قد نسيت حتى تعلُّقي الطويل بالمعبد الذهبي.

كنت أصغي السمع محاولًا سماعَ أيِّ شيء قادم من غرفة كبير الرهبان بمبنى المكتبة الكبرى. ولكن لم أستطِع سماع أي صوت.

هذه المرة انتظرت غضبَ كبير الرهبان العاصف في هيئة صراخ صاعق. وفكَّرت أنني لستُ نادمًا حتى لو وصل الأمر إلى سقوطي على الأرض تحت وطء الركل واللطم ونزفي الدماء.

ولكن مبنى المكتبة الكبرى كان غارقًا في السكينة والهدوء، ولم يأتِ من ناحيته أيُّ نوع من الأصوات.

عندما خرجت من بوابة معبد روكوؤنجي في صباح يوم بداية الدراسة أخيرًا، كان قلبي مرهقًا ومدمرًا تمامًا. وحتى لو وصلت إلى الجامعة، فلم يدخل من المحاضرات شيء ذو بال إلى أذني ولا إلى ذهني. وعندما وجَّه لي المحاضر سؤالًا وأجبتُ إجابةً خاطئة ضحِك الجميع، ولكن عندما نظرت إلى كاشيواغي وجدته يتأمل خارج النافذة بلا اهتمام. لا ريب أن كاشيواغي كان مدركًا للدراما التي داخل قلبي.

حتى بعد العودة إلى المعبد لم أجد أيَّ تغيير. كانت أبدية حياة المعبد اليومية ذات الرائحة العفنة، مصمَّمة بحيث لا يتولَّد بها أي اختلافات أو فجوات بين يوم ويوم. كان اليوم يوافق يومَ محاضرة الكتب الدينية التي تُعقَد مرتين في الشهر، فقد تجمَّع كلُّ مَن في المعبد في غرفة كبير الرهبان ليستمعوا إلى محاضرته، وكنت أومن أن كبير الرهبان سيعتمد على محاضرة «حاجز بلا أبواب» ويوبِّخني أمام الجميع.

وكان سبب إيماني بذلك هو اعتقادي التالي: أجلس أمام وجه كبير الرهبان للاستماع لمحاضرة هذه الليلة، وهو أمرٌ لا يتوافق مع شخصيتي بأي حال، ولكني أحسستُ داخلي بما يمكن تسميته نوعًا من أنواع الشجاعة الرجولية. وهنا يردُّ كبير الرهبان بإظهار فضيلة رجولية، وينهي حالةَ النفاق، فيعترف أمام كل رجال المعبد بأفعاله، وعلاوةً على ذلك يقوم بتوبيخي عن أفعالي الدنيئة.

... تجمَّع كل رجال المعبد تحت مصباح كهربائي مظلم، وفي الأيادي كتاب «حاجز بلا أبواب». كان الليل باردًا، ولكن لم يكن في الغرفة غير مجمرة صغيرة بجوار كبير الرهبان. ويُسمع صوت أحدهم يسحب مخاط أنفه. كانت جميع الوجوه المتجهة لأسفل مأخوذة في ركن الظل، ويفوح من كل وجهٍ منهم شيءٌ لا يمكن وصفُه من انعدام القوة. كان الراهب المستجد المنضم حديثًا رجلًا يعمل في النهار مدرسًا في مدرسة ابتدائية، يضع نظارة لِقصر النظر دائمًا تنزلق على أرنبة أنفه الفقير.

كنتُ الوحيد الذي يحسُّ داخلي بقوة. أو على الأقل هذا ما كنت أعتقده. فتح كبير الرهبان الكتاب ثم ألقى نظرةً على الحاضرين، وتابعتْ عيناي عينَي كبير الرهبان. كنتُ أحاول أن أريَه أن عينيَّ ليستا منكسرتين بتاتًا. ولكنَّ عينَي كبير الرهبان المحاطتين بتجاعيد سمينة، لم تُبدِ أيَّ مشاعر أو اهتمام، مرَّت بي ثم انتقلت ذاهبة إلى وجهِ مَن بجواري.

بدأ الدرس. كنتُ فقط أنتظر في أي جزء سيتحوَّل الدرس فجأةً إلى موضوعي. أصغيتُ أذني جيدًا. استمر كبير الرهبان في الدرس بصوتٍ حادٍّ وعالٍ. ولكني لم أستطِع سماع صوت قلبه الداخلي بتاتًا.

ظللتُ تلك الليلة مع عدم استطاعتي النومَ أحتقر كبير الرهبان، وحاولتُ أن أسخر من نفاقه، لكن لم يسمح لي الندم الذي بدأ ينمو تدريجيًّا، أن أظلَّ طويلًا بتلك المشاعر المتعجرفة. ارتبط احتقاري تجاه نفاق كبير الرهبان، ارتباطًا مريبًا مع ضَعفي الروحي، وأخيرًا بعد أن أدركت أنه منافس لا يمكن التغلُّب عليه، مهما بدا ذلك ممكنًا، وصلتُ لدرجة الاعتقاد أنني حتى إذا اعتذرتُ إليه، فلن يعنيَ ذلك هزيمتي. بدأ قلبي في طور الهبوط سريعًا بخطواتٍ متعجلة، من المنحدر الصاعد بدرجةِ ميل مفاجئة الذي صعده مرةً بالفعل.

قرَّرت أن أذهب في الصباح للاعتذار إليه. وعندما جاء الصباح قرَّرت الذهابَ إليه خلال اليوم للاعتذار. لم تَبدُ على ملامح كبير الرهبان أيُّ بادرة تغيُّر عما سبق.

كان يومًا تصخب فيه الرياح بشدة. بعد أن عدتُ من الجامعة، فتحتُ درج المكتب دون غرض معيَّن، واكتشفت وجود شيء ما ملفوف بورق أبيض. كان الشيء الملفوف هو الصورة. ولم يكن مكتوبًا أيُّ شيء على ورقة اللف.

ويبدو أن نيةَ كبير الرهبان إنهاءُ الأمر بهذه الطريقة. ويبدو أنه لم يتغاضَ عن الموضوع بوضوح، ولكنه أراد أن يعرفني عدمَ جدوى فعلي. ولكن تلك الطريقة المريبة في إعادة الصورة أعطت لي فجأةً حشدًا من التخيُّلات المتنوِّعة.

حدَّثتُ نفسي: «لا ريب أن كبير الرهبان أيضًا عانى نوعًا ما. ولا ريب أنه فعل ذلك الأمر بعد معاناة رهيبة. الآن هو بالتأكيد يكرهني. وربما لا يكرهني بسبب الصورة ذاتها، بل لأنني جعلته، وهو كبير رهبان هذا المعبد، يحمل تلك الصورةَ داخل معبده متسللًا لكيلا يراها أحد، وينتهز فرصة عدم وجود أحد في الممر فيتخطاه بخطوات مريبة، ويزور غرفةَ أحد تلاميذه التي لم يدخلها قط، ويفتح درج مكتبي مثل مجرم يرتكب جريمة، حصل كبير الرهبان على سببٍ كافٍ لكرهي الآن، بجعله يُضطر إلى فعل ذلك السلوك الخسيس.»

جاش صدري الذي وصل إلى هذا التفكير، فجأةً بفرحة عارمة لا يُعرف كنهها. وبعد ذلك عمِلت في أعمال ممتعة.

مزقتُ صورة المرأة إلى قِطَع دقيقة بالمقص، وطويت الورق المقوى للكراس إلى نصفين وقبضتُ عليها وذهبتُ إلى جوار المعبد الذهبي.

كان المعبد الذهبي تحت سماء الليل التي يصخب فيها القمر مع الريح، يرتفع شامخًا ممتلئًا بظلام كئيب لا يُعرف وقتها بدرجة متساوية. وعندما تستقبل الأعمدة ذات الجسد الرفيع ضوءَ القمر، بدت كما لو أنها أوتارُ آلة القانون الياباني، وبدا المعبد الذهبي وكأنه آلة موسيقية غريبة عملاقة. يبدو كذلك دائمًا بسبب تعرُّجات القمر، ولكن كان يبدو الليلة بصفةٍ خاصة حقًّا كذلك. ولكن كانت الريح تهب وتمرُّ بين فراغات أوتار آلة القانون بلا أي جدوى ودون أن تصدِر أيَّ صوت مطلقًا.

التقتُّ حجرًا صغيرًا من تحت قدمي، ووضعته في الورقة وغلَّفته بها جيدًا ثم ربطتها بشدة وحزم. وقمت بإلقاء قِطَع وجه المرأة الذي لُصق به مرساة ثقيلة وقُطِّع بهذا الشكل الرفيع في مركز بِركة كيوكو. امتدَّت موجات البِركة، ثم أخيرًا وصلتُ إلى ما تحت أقدامي أنا الذي أقف على حافة ماء البِركة.

كان هروبي المفاجئ في شهر نوفمبر من ذلك العام نتيجةً لتراكم كل هذه الأمور.

عند التفكير في الأمر بعد حدوثه، فقد كانت هناك فترة للحيرة والتفكير الطويل المتأني لهذا الهروب الذي يبدو أنه مفاجئ، ولكني أفضِّل التفكير فيه على أنه فِعل مندفع فعلتُه للتخلُّص من كل ذلك. فلأن ثمة نقصًا داخليًّا جذريًّا في الاندفاع؛ لذا أفضِّل محاكاةَ السلوك المندفع خاصةً. على سبيل المثال، هل يمكن أن يقال عن الرجل الذي يفكِّر في زيارة قبر أبيه، فيضع خطةً لذلك في الليلة السابقة، ولكنه عندما خرج من بيته في الصباح ووصل إلى المحطة، غيَّر رأيه وذهب إلى بيتِ نديم له، هل يمكن في مثل هذه الحالة القول قولًا خالصًا عن ذلك الرجل إنه شخص مندفع؟ ألا يكون تغيُّر قلبه المفاجئ هذا، عبارة عن ثأر منه تجاه إرادته الذاتية بدرجةٍ أكثرَ وعيًا من التخطيط الطويل لزيارة القبر الذي قام به حتى ذلك الوقت؟

يمكن اعتبار الدافع المباشر لهروبي هو قول كبير الرهبان لي في اليوم السابق، بصوتٍ صارم، لأول مرة وبكل وضوح وبلا موارِبة:

«لقد كنت أنوي في قرارة نفسي أن أجعلك في نهاية الأمر خليفتي، ولكن يجب عليَّ اليوم أن أخبرك أن ذلك الشعور قد زال تمامًا.»

ولكن رغم أنها كانت المرة الأولى التي قيل لي فيها ذلك، فإنني كنت أتوقَّع هذا القول منذ زمن بعيد، ومن المفترض أنني كنتُ على أتم الاستعداد لاستقبال ذلك الإعلان. فلم يتم إعلامي به إعلامًا مفاجئًا وعنيفًا. وعلاوةً على ذلك لا يمكن بعد كلِّ ما حدث أن أندهش أو

أضطرب وأحتار. ورغم ذلك، كنتُ أفضِّل التفكير أن ذلك الهروب تم بدافع وتحفيز من جملة كبير الرهبان تلك.

بدأ فقدان اهتمامي بتحصيل العلم يبرُز مع الأيام بعد أن حصلتُ على تأكيد من كراهية كبير الرهبان لي من خلال مكيدة الصورة. كانت نتيجتي في العام الأول من البرنامج التأهيلي على رأسها ٨٤ درجة في مادتَي اللغة الصينية والتاريخ، وكان الإجَمالي ٧٤٨ درجة، وترتيبي كان الرابع والعشرين من إجَمالي ٨٤ طالبًا. وعدد ساعات الغياب لم يكن إلا مجرد ١٤ ساعة فقط من إجَمالي ٤٦٤ ساعة. وكانت نتيجة العام الثاني من البرنامج التأهيلي، الدرجات الإجَمالية كانت ٦٩٣ درجة، وانخفض ترتيبي إلى الترتيب الخامس والثلاثين من بين ٧٧ طالبًا. ولكن بدأ كسلي عن حضور المحاضرات لمجرد الحصول على متعة الغياب في السنة الثالثة، حيث إنني لم أكن أملك أموالًا أصرفها في أوقات الفراغ، وبدأ هذا الفصل الدراسي الجديد مباشرةً بعد حادثة الصورة.

عندما انتهى الفصل الدراسي الأول، جاء إنذار من الجامعة، وعنَّفني كبير الرهبان. كان سبب التعنيف هو أن درجاتي سيئة وعدد ساعات غيابي كثير، ولكن كان كسلي عن محاضرات التأمل والتركيز الذي تُخصِّص الجامعة له مجرد ثلاثة أيام فقط في الفصل الدراسي الواحد، هو الذي أغضب كبير الرهبان بشدة. كان وقت التأمل والتركيز هو ثلاثة أيام قبل كلٍّ من عطلة الصيف وعطلة الخريف وعطلة الربيع كلَّ مرة يوم على حدة، وكانت تُقام بنفس طريقة المحاضرات التخصصية للمواد المختلفة.

كان ذلك التوبيخ فرصةً نادرة لأن يستدعيني كبير الرهبان خصوصًا إلى غرفته. كنت أقف صامتًا متدليَ الرأس. ورغم أن ما أنتظر حدوثه في قلبي خفيةً هو شيء واحد وحيد، فإن كبير الرهبان لم ينبِس بكلمة واحدة بخصوص حادث الصورة، ولم يَعُد للماضي أكثرَ إلى حادث ابتزاز العاهرة.

ولكن منذ ذلك الوقت صار سلوك كبير الرهبان تجاهي واضحًا في أنه يعاملني بجفاء كالغرباء. ويمكن القول إن هذا هو المصير الذي كنت أريده، وهو الدليل الذي كنت أتمناه، ويُعتبر نوعًا من أنواع انتصاري عليه، وكان مجرَّد تكاسلي سببًا يكفي للحصول عليه.

في الفصل الدراسي الأول من السنة الثالثة بلغ عدد ساعات غيابي عن المحاضرات بضعًا وستين ساعة، وهو ما يبلغ خمسة أمثال الفصول الدراسية الثلاثة كلها في السنة الأولى. كل هذه الساعات لم أقضِها في قراءة الكتب مثلًا، ولم يكن معي المال الذي أصرفه في المتعة؛ لذا غير الوقت الذي كنتُ أحيانًا أقضيه مع كاشيواغي، كنت أنفرد بنفسي لا أفعل

شيئًا. لقد كنت أقضي الوقت وحيدًا صامتًا دون فعل أي شيء لدرجة أن ذاكرة جامعة أوتاني لا يمكن فصلها عن ذاكرة الكسل والخمول. هل كان ذلك الكسل والخمول أحدَ أنواع التركيز على طريقي الخاصة؟ فأنا لم أشعر بأي ملل من ذلك ولو لحظةً واحدة.

أحيانًا كنتُ أجلس بالساعات فوق العشب أتأمل النمل وهو يبني عشَّه باستخدام حبات من الطين الأحمر. لم يكن النمل هو الذي جذب اهتمامي. وأحيانًا كنتُ أظل وقتًا طويلًا أنظر شاردًا إلى الدخان الرفيع المرتفع من مدخنة المصنع الموجود خلف الجامعة. ولم يكن الدخان هو الذي أثار اهتمامي. كنت أشعر أنني أغطس عنقي تمامًا في وجودي الذاتي. أماكن متفرقة من العالم الخارجي، تبرُد ثم تسخن مرةً أخرى. حقًّا! ماذا يمكنني القول يا تُرى؟ يكوِّن العالم الخارجي نقاطًا متفرقة، ثم يكوِّن مرة ثانية خطوطًا. يتبادل ما في داخلي والعالم الخارجي تبادلًا رخوًا غير منتظم، وتظل المناظر التي بلا معنًى حولي تنعكس على عينيَّ، تقتحم المناظر داخلي بلا إذن، بل وتلمع الأجزاء التي لا تدخل في حيوية ونشاط في الأفق البعيد. ذلك الشيء اللامع، في وقت معيَّن، يكون راية مصنع، أو يكون بقعةً مملة في السور، أو فردة قبقاب قديم رُمي في أرضٍ بها كلأ. تقوم في داخلي الأشياء، كل شيء وأي شيء، لحظةً بلحظة، ثم تنتهي بالموت مرةً ثانية. هل يمكنني الحديث عن الأفكار المتنوعة التي لا تأخذ أشكالًا؟ يمسك الشيء الهام يدَ الشيء التافه، ويأتيني اعتقاد أن الحادث السياسي في أوروبا الذي قرأت عنه في جرائد اليوم وفردة القبقاب التي أمام عينيَّ بينهما رابطةٌ وثيقة لا تنفصم عُراها.

ظللت في إحدى المرات فترة طويلة جدًّا أفكر في الزاوية الحادة التي في طرَف ورقة أحد الأعشاب. ربما كلمة «تفكير» غير مناسبة. فهذه الأفكار العجيبة الضئيلة لا تستمر مطلقًا، فعلاوةً على أنها مشاعرُ ولا تعرف هل هي حية أم ميتة، إلا أنها تظهر متكررة بإلحاحٍ يشبه تكرار اللازمة. لِمَ يجب أن يكون طرَف ورقة العشب هذه، بهذه الزاوية الحادة لهذه الدرجة؟ إذا كانت بزاوية منفرجة فهل ستفقد الأعشاب نوعَها ويجب أن تنهار الطبيعة من هذه الزاوية الواحدة؟ إذا جرَّبت وخلعت أصغر تروس الطبيعة، هل يمكن لك أن تقلب الطبيعةَ بأكملها رأسًا على عقب؟ ثم أظلُّ أفكر عابثًا في هذه الطريقة أو تلك التي تؤدي إلى ذلك.

... تسرَّب على الفور توبيخُ كبير الرهبان، ومع مرور الأيام صارت معاملة رجال المعبد لي تتسم بالعدوانية. وزميلي تلميذ الرهبنة الذي يحقد عليَّ لاستكمالي دراستي الجامعية، كان دائمًا ما يتأملني بضحكةٍ خفيفة تنِم عن التفاخر بالفوز.

استمرَّت حياتي داخل المعبد في الصيف وفي الخريف، دون أن أتكلم تقريبًا مع الآخرين. وأمر كبير الرهبان نائبه أن يستدعيني في صباح اليوم الذي هربت فيه.

كان ذلك في اليوم التاسع من شهر أكتوبر. وكان قبل ذهابي مباشرةً إلى الجامعة، فقد ذهبت إلى كبير الرهبان بالزي الرسمي للجامعة.

عندما قابلني كبير الرهبان الذي في الأصل وجهه سمين، ومن استيائه من وجوب التحدُّث إليَّ، كان ذلك الوجه جامدًا منكمشًا بدرجة غير طبيعية. أمَّا عن حالي أنا، فقد كنتُ مستمتعًا بنظرة كبير الرهبان إليَّ كأنه ينظر إلى مجذوم. كانت تلك العين بحقٍّ هي العين التي تمدح المشاعر الإنسانية التي تمنيتُها.

أشاح كبير الرهبان بنظره عني على الفور، وتحدَّث وهو يُدلِّك يديه فوق المجمرة. كان الصوت الصادر عن احتكاك لحم اليدين الطريين بعضهما ببعض، يتردَّد صداه داخل هواء الصباح في بدايات الشتاء، تردُّدًا خافتًا، ولكن على أنه تشويش في طبلة الأذن التي تهدف إلى الصفاء والنقاء. كان لحم كبير الرهبان يعطي إحساسًا بالألفة بعضه مع بعض أكثرَ من اللازم.

«هل تفكر إلى أي درجة يعاني ويتعذَّب والدك المتوفى؟ انظر إلى هذا الخطاب. أرسلَته الجامعة بلهجة عنيفة. ماذا تعتقد أن يصيرَ عليه الأمر بهذا الحال؟ عليك التفكير في الأمر بنفسك بجدية.» وبعد ذلك، استمر في الحديث وقال تلك الكلمات: «لقد حدث أنني كنتُ أفكِّر مليًّا وأنوي في قلبي أن أجعلك تخلفني، ولكن يجب عليَّ الآن أن أقول لك بمنتهى الوضوح إن هذه المشاعر لم تَعُد موجودة.»

بعد أن ظللتُ صامتًا فترة طويلة قلتُ:

«هل يعني ذلك أنك ستتخلى عني؟»

لم يُجِب كبير الرهبان على الفور. ثم أخيرًا:

«أما زلتَ تريد مني التخلِّي عنك، بعد كلِّ أفعالك تلك؟»

لم أُجِب. بعد مرور فترة من الوقت، نسيتُ نفسي وتكلمتُ عن شيء آخر وأنا أتلعثم.

«أنت يا كبير الرهبان تعرف عني كلَّ شيء. وأنا أعتقد أنني كذلك أعرفك.»

«ماذا تعني بأنك تعرفني؟» ... عيونُ كبير الرهبان صارت مظلمة. «هذا أمرٌ لا نفع فيه وغير ذي فائدة.»

لم أرَ في حياتي كلِّها وجهًا لشخص قد تخلَّى عن هذه الدنيا تخليًا تامًّا وكاملًا مثل ما رأيتُ وقتها. لم أرَ وجهَ إنسان يحتقر هذه الدنيا بهذه الدرجة وتفاصيل الحياة المعيشية،

والأموال، والنساء، مع تلويث يده بكل تلك الأشياء ... أحسستُ ببشاعة أنني لمست جثةً حية ساخنة تنبض بالدماء.

في ذلك الوقت، فار وقام فيَّ إحساس مؤلم برغبتي في الابتعاد فترة عن كل الأمور التي تحيط بي. بعد أن غادرت غرفةَ كبير الرهبان، فكرتُ في ذلك الأمر، وزادت تلك الأفكار عنفًا.

لففتُ معجم البوذية والناي الذي أعطاه لي كاشيواغي في صرة قماش. وأثناء إسراعي إلى الجامعة وأنا أحمل حقيبتي وتلك الصرة، لم أكن أفكِّر إلا في الرحيل فقط.

عندما دخلت من بوابة الجامعة كان من حسن الحظ أن كاشيواغي يسير أمامي. سحبت ذراع كاشيواغي وأخذته إلى طرف الممر، وطلبت منه قرضًا بثلاثة آلاف ين. وطلبت منه أن يستبدل ذلك بقاموس البوذية والناي الذي أهداني إياه دون زيادة على ذلك.

اختفت من وجه كاشيواغي ما يمكن القول عنه إنه الحبور الفلسفي الذي يعتليه دائمًا عندما يتكلم بطريقة متناقضة. ونظر إليَّ بعين صغيرة ضيقة كأنها تطلق دخانًا.

«في مسرحية هاملت، هل تذكر ماذا كانت نصيحة أبي لايرتيس لابنه؟ [لا تقترض مالًا، ولا تُقرضه. إذا أقرضتَ فستخسر المال، ومع المال ستخسر الصديق].»

قلت أنا:

«أنا لم يَعُد لي أب. إذا كنت ترفض فلا بأس.»

«لم أرفض الأمر بعدُ. لنناقش الأمر في هدوء. فأنا الآن لو جمعتُ كل أموالي لا أدري هل تبلغ ثلاثة آلاف ين أم لا.»

كنتُ على وشْك أن أقول له أن يعصر المال من امرأته، بطريقته التي سمِعتها من معلِّمة تنسيق الزهور، ولكني أعرضتُ عن ذلك.

«أولًا لنفكر في كيفية التصرف في هذا المعجم وهذا الناي.»

بعد أن قال كاشيواغي ذلك، على الفور دار للخلف وتوجَّه ناحية بوابة المدرسة، فدرتُ أنا كذلك، وقلَّلت من سرعة خطواتي ومشيت بمحاذاته. وحكى كاشيواغي لي عن شركة «هيكاري كلوب» المشهورة التي كان رئيسها طالبًا جامعيًّا، وقُبض عليه وحُقق معه بتهمة التعامل في سوق الإقراض السوداء، ولكن أُفرج عنه في شهر سبتمبر، بعد الإفراج عنه انهارت سُمعته للحضيض وأنه يبدو عليه أنه يواجه مصاعب.

كان كاشيواغي يهتم اهتمامًا شديدًا برئيس شركة «هيكاري كلوب» هذا منذ بداية الربيع، وظهر اسمه كثيرًا في أحاديثنا، ولم يتوقَّع كاشيواغي مطلقًا أن ينتحر رئيس شركة «هيكاري كلوب» بعد أسبوعين فقط؛ لأنه كان يؤمن تمامًا أنه من أقوياء المجتمع.

«فيمَ ستستخدم تلك الأموال؟»

فوجئتُ بهذا السؤال؛ لأنني كنت أعتقد أنه سؤال لا يتناسب مع طبيعة شخصية كاشيواغي.

«أريد أن أذهب إلى مكانٍ ما في رحلة استجمام.»

«وهل ستعود ثانية؟»

«ربما.»

«تريد الهروب من ماذا؟»

«أريد الهروب تمامًا من جميعِ ما يحيط بي، من رائحة الضَّعف والاستكانة التي تفوح بكثرة من كلِّ ما يحيط بي ... حتى كبير الرهبان، بلا حول ولا قوة، ضعيفٌ ضعفًا مزريًا. هذا ما فهمته.»

«وتهرُب من المعبد الذهبي كذلك؟»

«نعم هو كذلك. أهرُب من المعبد الذهبي أيضًا.»

«هل المعبد الذهبي كذلك بلا قوة؟»

«لا، المعبد الذهبي ليس بلا قوة. ليس ضعيفًا مطلقًا، ولكنه منبعُ كل الضَّعف.»

«هذا أمرٌ متوقَّع أن تفكِّر فيه أنت.»

قال كاشيواغي ذلك وهو يمشي على رصيف المشاة بخطوته إياها التي يحرِّك فيها قدَمه حركةً مُبالغًا فيها، وقرقع لسانه بما يبدو أنه في غاية الاستمتاع.

دخلنا محلًّا صغيرًا باردًا للتحف للقديمة وبِعنا له الناي، كما أرشدني كاشيواغي تمامًا. ولم يمكننا بيعُه إلا بأربعمائة ين فقط. وبعد ذلك عرَّجنا على محل كتب قديمة، وأخيرًا استطعنا بيْعَ المعجم بمائة ين. واصطحبني كاشيواغي إلى مسكنه، من أجل أن يُقرضني الألفين وخمسمائة ين المتبقية.

وهناك طرح عليَّ طرحًا غريبًا. فلأني أعدتُ له الناي، وكذلك يعتبر المعجم هديةً فيبدو الأمر أنني أعدت له الاثنين، فتعتبر الخمسمائة ين التي بيعا بهما أموالَ كاشيواغي، وإذا أضفنا الألفين وخمسمائة ين إلى ذلك، فمن الطبيعي أن يصبح القرض ثلاثة آلاف ين. وقال إنه يريد فائدة ١٠٪ على كل شهر حتى موعد إرجاعها. وهي مقارنةً بفائدة «هيكاري كلوب»

المرتفعة التي تبلغ ٣٤٪ تعتبر فائدةً بسيطة ورحيمة. أخرج ورقة ودواة حبر، وكتب تلك الشروط في صيغة فخمة ومهيبة، ثم طلب مني أن أبصم على وثيقة القرض تلك. ولمَّا كنت أكره التفكير في المستقبل، صبغتُ على الفور إبهامي في دواة الحبر وبصمتُ عليها.

... كان قلبي يتعجَّل الأمر. وضعتُ الثلاثة آلاف ين في جيبي وخرجت من مسكن كاشيواغي، وركبت القطار حتى محطة حديقة فوناؤكا ونزلت من القطار، وجريت صاعدًا درجات السلالم الصخرية المنعطفة التي تؤدي إلى معبد تاكيه إيساو الشنتوي. ورأيت أن أحصل على إيحاءٍ ما للمكان الذي أقرِّر السفر إليه من خلال سحبِ قرعة المعبد.

وأثناء صعودي الدرجات الحجرية، بدا لي معبد يوشيترو إيناري الشنتوي ذو اللون الأحمر الفاقع على يميني، وتمثالا الثعلبين الحجريين المتقابلين والمصفَّدين داخل صندوق من الحديد. يلقم الثعلب مخطوطًا بفمه، وأذنه المنتصبة بحدة، مصبوغة من الداخل باللون الأحمر.

كان يومًا يميل إلى البرودة، ومن وقت لآخر تهبُّ نسائم لامعة تحت أشعة الشمس الخافتة. يبدو لون أحجار الدرجات الحجرية التي أصعدها كما لو أنه هطل عليها رمادٌ دقيق بسبب لون الشمس الضعيفة التي تتسرَّب من بين ظلال الأشجار. وبدت تلك الأشعة بسبب ضَعفها الشديد وكأنها رماد متَّسخ.

ولكن عندما وصلتُ إلى الحديقة الأمامية الواسعة لمعبد تاكيه إيساو، كنتُ غارقًا في العَرق لأنني صعدتُ حتى ذلك الارتفاع دفعةً واحدة دون توقُّف. كانت الدرجات التي تؤدي إلى المدخل الرئيس لمعبد الزيارة مستمرة. وتؤدي إليه ساحة مبلَّطة بالأحجار كذلك مستوية وممتدة. تكمُن بين الجانبين اليمين واليسار أفرعُ صنوبر منخفضة ومختبئة في سماء طريق الزيارة. وفي الجانب الأيمن مبنى إدارة المعبد القديم بلون سور الأشجار، وكان معلَّقًا على باب المدخل لافتةٌ كُتب عليها «مركز أبحاث الأقدار». ثمَّة تمثال صنم أبيض أقربُ إلى مبنى الإدارة منه إلى قاعة الصلاة، وتستمر من هناك أشجار أَرْز صغيرة متناثرة هنا وهناك، ويمكن رؤية الجبال الممتدة في الجانب الغربي من ضواحي كيوتو، تحت سماء غائمة وباردة بلون البروتين تضطرب محتويةً على أشعة كئيبة وحزينة.

أُسِّس معبد تاكيه إيساو الشنتوي من أجل القائد نوبوناغا، وهو معبد مخصَّص كذلك للقائد نوبوتادا الابن الأكبر لنوبوناغا. إنه معبدٌ بسيط ومتواضع، ولكن كان الدرابزين ذو اللون الأحمر الذي يحيط بالقاعة الرئيسة هو فقط الملوَّن بالألوان الزاهية.

صعدتُ الدرجات الحجرية، وصلَّيتُ وأخذتُ في يدي الصندوقَ الخشبي القديم السداسي الشكل الموضوع فوق الرفِّ الذي بجانب صندوق النذور والتبرعات. ثم هززتُ

الصندوق الخشبي، فوقع من فتحته سهمٌ من الخيزران الرفيع مدبَّب السن. كان مكتوبًا عليه بحبر الفحم الأسود «١٤» فقط.

درتُ للخلف، وأخذتُ أنزل درجات السلالم الحجرية وأنا أهمس «١٤ ... ١٤ ...» توقَّف على لساني صوتُ ذلك الرقم، واعتقدتُ تدريجيًّا أنه صار له معنًى من المعاني.

طلبتُ الدليل عند مدخل مبنى الإدارة. ظهرت امرأة في منتصف العمر، يبدو عليها أنها كانت تقوم باستخدام الماء في عملٍ ما، وهي تجفِّف يديها في مريولها بإلحاح، فأخذت العشرة ينات المقرَّرة التي قدمتُها، بلا إظهار أي ملامح على وجهها.

«كم الرقم؟»

«رقم ١٤.»

«حسنًا، انتظر عند تلك الحافة.»

انتظرتُ وأنا أجلس في البلكونة المفتوحة. وأثناء انتظاري هكذا، فكرتُ أن تقرير تلك المرأة ذات الأيدي المشقوقة المبتلة لمصيري، هو أمرٌ بلا معنًى بدرجة كبيرة، ولكن لأنني جئتُ إلى هنا وفي نيتي الرهان على هذا اللامعنى، فقد كان ذلك أمرًا حسنًا. صدر من خلف الباب المغلق، صوتُ اصطدام حلْقة أحد الأدراج الصغيرة القديمة، الذي يبدو أنه صعب الفتح، ثم صدر صوتُ تقليب أوراق. وأخيرًا فُتح الباب فتحةً صغيرة:

«هذه هي، تفضَّل.»

وأعطتني ورقةً واحدة خفيفة، ثم أغلقت الباب مرةً ثانية. كان ركن الورقة مبتلًّا بأثر أصابع المرأة.

ثم قرأتُ المكتوب. كان مكتوبًا: «الرقم الرابع عشر: شؤم».

> «أنت، إذا بقيت هنا في النهاية فستدمرك الآلهة العديدة. وجب على أوكوني ذي الأحجار الحارقة والرماح الساقطة، مغادرةُ هذه البلاد، وذلك اتباعًا لتعاليم أسلافه الآلهة، يجب عليك الهروب سرًّا.»

ويقول الشرح إن في طريقي قلقًا يترقَّب، وثمَّة العديد من النيَّات الشريرة، ولكني لم أخَف. وفي أسفل الورقة حيث كُتب عددٌ لا نهائي من البنود نظرتُ إلى بند السفر. كان المكتوب:

> «السفر: شؤم. وبصفةٍ خاصة اتجاه شمال الغرب هو الأكثر سوءًا.»

وعندها قررتُ السفر في اتجاه شمال الغرب.

تحرَّك القطار المتَّجه إلى مدينة تسوروغا من محطة كيوتو الساعة السادسة و٥٥ دقيقة صباحًا. كان موعد الاستيقاظ في المعبد هو الساعة الخامسة والنصف. بعد أن استيقظتُ في صباح اليوم العاشر من الشهر، غيرتُ ملابسي على الفور لزي الجامعة، ورغم ذلك لم يشكَّ فيَّ أحد. كنت قد تعوَّدت تظاهُرَ الجميع بعدم النظر إليَّ.

في ظلام الفجر، بدأ الأشخاص في التناثر هنا وهناك للقيام بأعمال الكنس والمسح والنظافة. ويستمر وقت التنظيف حتى الساعة السادسة والنصف.

قمتُ بتنظيف الحديقة الأمامية. كانت خُطتي هي الرحيلَ في رحلة دون أن أحمل حقيبةً واحدة، أختفي اختفاءً سويًّا وغامضًا. مثلًا، أن أتحرك وفي يدي المقشة بعد الفجر بقليل فوق الطريق المغطاة بالحصى الأبيض الخفيف. وفجأة تسقط المقشة وأختفي، ثم بعد ذلك تتبقى فقط طريق الحصى الأبيض وسط الضوء الخافت. كنت أحلُم بأنني يجب أن أغادرَ المكان بهذه الطريقة.

من أجل ذلك أيضًا لم أقُم بوداع المعبد الذهبي.

ثمَّة ضرورة في أن أنزع نفسي فجأةً من كلِّ ما يحيط بي ومن ضمن ذلك المعبد الذهبي. قمتُ بالكنس متجهًا تدريجيًّا ناحية البوابة الرئيسة للمعبد. كان يمكنني تأمُّل نجوم الفجر من بين أفرع أشجار الصنوبر.

كان صدري يدقُّ بعنف. يجب أن أرحل. يمكن القول إن تلك الكلمة كانت ترفرف داخل صدري بعنف. أرحل من بيئتي، من فكرة الجَمال التي تقيِّدني، من إهمال العالم لي، من تلعثمي، من ظروف وجودي، يجب عليَّ الرحيل من كل ذلك بأي حال.

سقطت المقشة من يدي على الحشائش في ظلام الفجر، وكأنها ثمرة فاكهة تنفصل انفصالًا طبيعيًّا عن شجرتها. ومشيت متسللًا ناحيةَ البوابة الرئيسة للمعبد وأنا أتخفَّى في ظلال الأشجار، وبعد أن خرجتُ منها جريتُ بأقصى سرعتي. اقترب أول ترام في الصباح. وأحسستُ أن هذه هي المرة الأولى لي التي آتي فيها إلى مكانٍ بمثل هذا الإشراق.

أستطيع حاليًّا أن أتذكَّر بمنتهى الوضوح التفاصيلَ الدقيقة لتلك الرحلة في عقلي. فلم أنطلق مغادرًا جامحًا بلا معرفة المكان الذي أنوي الوصول إليه. بل كنت قد قرَّرت أن أذهب إلى أحد الأقاليم الذي زرته مرةً ضمن رحلة مدرسية في المرحلة الإعدادية. ولكن أحسستُ أثناء توجُّهي إلى ذلك الإقليم واقترابي تدريجيًّا، أن كل شيء أمامي مجهول تمامًا بالنسبة لي، بسبب أن مشاعر الرحيل والتحرُّر كانت على درجة كبيرة من القوة.

ورغم أن خط القطار الذي يصل إلى ذلك المكان، كان هو نفسه خطَّ السكك الحديدية المتجه إلى موطني الأصلي، وكنتُ معتادًا عليه، إلا أنه لم يسبق لي من قبلُ أن نظرتُ إلى القطار

القديم المتسخ بالسُّخام، بهذه الدرجة من الطزاجة والجِدة وكأنه شيء نادر. كانت المحطة وصافرة القطار، وحتى صدى الصوت الأجش من مكبرات الصوت في الصباح الباكر، تُكرِّر شعورًا واحدًا عدةَ مرات وتقويه، فيمتد أمامي مشهدٌ شاعريٌّ امتدادًا بانوراميًّا واسعًا. قسمت شمس الصباح الرصيفَ الواسع. وكان صوت الأحذية، وصوت قرقعة القبقاب على الطريق، والجرس الذي ظل يرنُّ بصوت رتيب، ولون اليوسفي الظاهر من أقفاص البيع في محل المحطة ... كانت كل تلك الأشياء، تعتبر إيحاءات واحدة بعد واحدة، وتوقُّعات واحدة بعد واحدة لذلك الأمر الضخم الذي أسلمتُ له نفسي.

جُمعت وتبلورت كل قطعة من المحطة مهما صغُرت، في اتجاه مشاعري الموحَّدة للرحيل والفِراق. يتراجع الرصيف للخلف تحت عينيَّ بأدب واحترام، وبدرجة كبيرة من التسامح. لقد أحسستُ إلى أي مدًى يجعل الراحلون وهم يتحركون من هنا ويغادرون، ذلك السطحَ الأسمنتي الذي بلا أي ملامح، لامعًا ومتألقًا.

لقد وثقتُ في القطار. إنها طريقة قول مضحكة، ولكن ما من طريقة للقول غير هذه الطريقة تؤمِّن هذا الاعتقاد الذي لا يمكن تصديقه بانتقال موقعي والابتعاد تدريجيًّا عن محطة كيوتو. لقد كنتُ أسمع مراتٍ عديدة في ليل روكوؤنجي، صوتَ صافرة قطار البضائع الذي يمرُّ بالقرب من حديقة الزهور، ولا أملِك إلا الدهشة والعجب من أنني الآن على وشْك ركوب ذلك الشيء الذي كان ينطلق مسرعًا بهذا الحال بعيدًا عني، ليلًا ونهارًا انطلاقًا مؤكدًا.

كان القطار يسير محاذيًا لنهر هوزو ذي اللون اللازوردي الذي كنتُ قد رأيته في الماضي مع أبي المريض. كانت المناطق التي بين سلسلة جبال أتاغو، والجانب الغربي من منطقة أراشياما، من هناك وحتى قرب سونوبِه، كانت تلك المناطق على الأرجح وبسبب تأثير تيارات الرياح، يختلف طقسُها تمامًا وجليًّا عن مدينة كيوتو. ويلفُّ ضباب متصاعد من نهر هوزو، هذه المنطقة تمامًا في كل ركن من أركانها دون أن يترك أيَّ جزء، من الساعة الحادية عشرة ليلًا حتى الساعة العاشرة صباحًا، أثناء شهور أكتوبر ونوفمبر وديسمبر، بطريقةٍ منتظمة تمامًا. وكان هذا الضباب يتحرَّك دون توقُّف، ومن النادر أن ينقطع.

ظهرت الحقول ممتدةً بصورة ضبابية، وبدت حقول الأَرُز الجرداء في لون الفطريات الخضراء. تتناثر الأشجار المختلفة الأطوال والأحجام حيثما اتفق كحاجز بين حقول الأَرُز، وكانت فروعها وأوراقها مقلَّمة حتى ارتفاع عالٍ، وتُحاط جذوعها الرفيعة بكوم قش يسمَّى في هذا الإقليم قفص البخار، وتظهر بترتيبها المتكرر من داخل الضباب كأنها أشباح

أشجار. كذلك، في بعض الأحيان تظهر مهتزةً في الضباب شجرةُ صفصاف كبيرة واضحة جلية، بالقرب نافذة القطار، وفي خلفيتها حقولٌ زراعية رمادية اللون تقريبًا لا يصل إليها مدى النظر، وتتدلى من الشجرة بثقل أوراق مبتلة تمامًا.

أُرشد قلبي إلى ذكرى الموتى الآن، وقد كان في غاية المرح والحيوية بهذا الحال عند رحيلي من كيوتو. أيقظت ذكريات يويكو وأبي وتسوروكاوا داخلي طيبةً لا يمكن التعبير عنها بالكلمات، وجعلتني أشكُّ في أنني لا يمكن أن أحبَّ من البشر إلا الموتى. ولكن لماذا يكون الموتى مقارنةً بالأحياء يمكن حبُّهم بهذه السهولة يا تُرى؟!

كان الأحياء غير القابلين للحب، في عربة الدرجة الثالثة القليلة الازدحام، ينفثون دخانَ التبغ بكثرة، ويقشِّرون اليوسفي. وكان يجلس في المقعد الذي بجواري شخصان كبيران في السن يبدو أنهما موظفان بإحدى الهيئات الحكومية العامة ويتحدثان بصوتٍ عالٍ. كان كلاهما يرتدي بذلةً خرقاء، أحدهما يَخرُج من فتحة أحد كمي بذلته، وجهُ بطانة داخلية بالية ذات شكل مخطَّط. ولقد تأثرتُ أنا مرةً أخرى، أنه حتى مع تراكم سنوات العمر لا يضعُف الابتذال ولو قليلًا. كان وجهاهما بتجاعيدهما العريضة المحروقان من أشعة الشمس اللذان ينمَّان عن أصولهما الريفية، مع نبرة الصوت الأجش التي أصبحت معربِدة بسبب الخمر، يُظهِران للعِيان ما يجب وصفُه بأنه جوهر وخلاصة أحد أنواع الابتذال.

كانا يتجادلان حول مَن هم الذين يجب عليهم التبرُّع للهيئات العامة. كان أحدهما ذا رأس أصلع، ولا يتدخل في الكلام بل يمسح يديه مرةً بعد مرة بمنديل الكتان الأبيض وقد تحوَّل لونه إلى الأصفر بسبب غسله مراتٍ ربما تصل إلى الآلاف.

«هذه اليد السوداء. تتسخ تلقائيًّا من السُّخام. شيء مزعج.»

«أتذكَّر أنك أرسلت مرةً مقالةً لصفحة الرأي بإحدى الجرائد عن السُّخام.»

«لا، لم يحدُث!»

أنكر العجوز ذو الرأس الأصلع ذلك. ثم أضاف:

«على كل حال هو أمرٌ مزعج.»

سمِعتُ الحوار رغم عدم نيتي الاستماعَ إليه. وكان ذلك بسبب ظهور المعبد الذهبي والمعبد الفضي من حينٍ لآخر في الحوار.

كان ذلك ملخَّص الحوار كالتالي:

كان الرأي الذي اجتمعا عليه هو أنه يجب جعل المعبد الذهبي والمعبد الفضي يتبرعان بكمياتٍ كبيرة. ربما يكون دخل المعبد الفضي نصفَ دخل المعبد الذهبي من الأموال،

ولكنه رغم ذلك مبلغ هائل جدًّا. أحدُ الأمثلة أنَّ دخْلَ المعبد الذهبي السنوي يُعتقد أنه أكثر من خمسة ملايين ين، ولأن المعبد نشاطاته كلها تُدار عادةً بطريقة الزِّن، فحتى لو أضفنا تكاليفَ الكهرباء والماء فالمصاريف لا تزيد على مليوني ين في العام. وإذا سألنا فيما تُستخدم الأموال المتبقية، نجد أن كبير الرهبان الذي يُطعِم رهبانه أطعمةً باردة، يذهب إلى حي غيون الترفيهي كلَّ ليلة ويصرف كما يحلو له. ورغم هذا فالمعبد مُعفًى من الضرائب، فهو بنفس قانون الحصانة خارج حدود الدولة. يجب طلب التبرعات من مثل هذه الأماكن بلا أي تسامح.

العجوز الأصلع السابق الذكر عندما جاءت نقطة وقوف فاصلة في الحوار قال وهو ما زال يمسح يديه بالمنديل بلا تغيير:

«إنه أمرٌ مزعج.»

وأصبحت تلك الكلمة هي خلاصة الحوار. ولم يَعُد بيد العجوز التي اكتمل مسحُها وتلميعها، أيُّ أثرٍ للسُّخام، وأصبحت تطلِق لمعانًا مثل زينة الأحزمة المصنوعة من الأحجار الكريمة. في الواقع وصلت حالة تلك اليد وكأنها قفزات وليست يدًا طبيعية.

كان أمرًا عجيبًا أن هذه أول مرة أسمع فيها انتقادَ المعبد لدى المجتمع. فنحن ننتمي إلى عالم الرهبان، وكذلك المدرسة تقع في ذلك العالَم؛ ولذا لم ينتقد أحدٌ منَّا المعبد. ولكني لم أُصَب بأي دهشة ولو قليلةً لهذا الحوار بين موظفي الهيئة العامة كبار السن هؤلاء. فقد كان كل ذلك أمرًا جليًّا واضحًا للجميع! نحن نأكل أطعمة باردة. وكبير الرهبان يتردَّد على حي غيون ... ولكن، كان لديَّ شعورٌ مقزِّز ما من طريقة للتعبير عنه، تجاه فهمي أنا لطريقة فهم الموظفين الكبار السن تلك. لم أكن أتحمَّل أنني أستطيع فهْم «كلماتهم»؛ لأن «كلماتي» أنا مختلفة عن ذلك. وأريد منكم أن تتذكَّروا أنني عندما شاهدتُ كبير الرهبان يسير مع غانية من غانيات غيون، لم آخذ الأمر على سبيل التقزُّز الأخلاقي مطلقًا.

هكذا اختفى حوارُ الموظفين تاركًا في قلبي تقززًا ضئيلًا يشبه رائحةَ انتقال الابتذال. لم أشعر يومًا برغبة في التماس الدعم من المجتمع لأفكاري. ولم أشعر كذلك بضرورة وضْع تلك الأفكار في إطارٍ يَفهمني المجتمع من خلاله بسهولة. وكما قلت أكثرَ من مرة، فعدم قدرة الناس على فهمي كان هو سبب وجودي.

... فجأةً فُتح باب العربة، وظهر بائع بصوت أجش، يتدلى من صدره قفص كبير. تذكرتُ فجأةً أنني جائع، فاشتريت منه بدلًا من الأَرُز، وجبةَ معكرونة بلون أخضر يبدو أنها صُنعت من أعشاب البحر، وأكلتها. زال الضباب ولكن لم تشرق السماء. وبدأت تظهر

في الأرض النحيفة، بالقرب من جبال تامبا أشجارُ التوت المزروعة، والبيوت المصنوعة من الورق.

خليج مايزورو. يغسل هذا الاسم قلبي بلا اختلاف عن الماضي. لا أدري سببًا لذلك. ولكن منذ فترة الصبا التي قضيتُها في قرية شيراكو، كان ذلك هو الاسم العام للبحر اللامرئي، وفي النهاية صار اسمًا للتنبؤ بالبحر ذاته.

ولكن كان ذلك البحر اللامرئي، يمكن رؤيته جيدًا من أعالي قمة جبل أوبایاما الذي يرتفع سامقًا خلف قرية شيراكو. ولقد صعدتُ إلى قمة جبل أوبایاما مرتين فقط. في المرة الثانية، رأيت أسطول قوات الحلفاء الموجود في ميناء مايزورو العسكري.

ربما تكون سفن الأسطول المستقرة داخل الميناء المتلألئ، متجمعةً في ذلك الوقت بكامل عددها. كان كلُّ ما يتعلَّق بذلك الأسطول من الأسرار العسكرية، لدرجةِ أننا كنا نشكُّ في وجود ذلك الأسطول فعلًا. لذلك فقد ظهر أسطول قوات الحلفاء الذي يُرى من بعيد، وكأنه سربُ طيور بحرية سوداء ذات جلال ومهابة، يُعرف اسمُها فقط ولم تُر من قبلُ مطلقًا إلا في الصور، وهي تعبث وتلهو سرًّا في البحر تحت حماية الحراسة الشديدة لكبارها، ولا تعرف أنها مرئية للبشر.

... أعادني للواقع صوتُ كمساري القطار الذي يُخبر باسم المحطة التالية وهي «محطة غرب مايزورو». هذه المرة انعدم وجودُ ركَّاب من جنود البحرية يهمُّون بالنزول حاملين حقائبهم على أكتافهم مسرعين. كان الذي بدأ في عمل استعدادات النزول غيري، اثنين أو ثلاثة رجال يبدو عليهم أنهم تجار في السوق السوداء.

كان كل شيء قد تغيَّر. وكانت المدينة قد تحوَّلت كأنها مدينة ساحلية في دولة أجنبية تبرُز لوحات المرور الإرشادية باللغة الإنجليزية هنا وهناك من أركان المدينة وكأنها تُهدد المارِّين. ويسير عدد كبير من الجنود الأمريكان في الطرقات.

وتحت سماءٍ ملبَّدة بالغيوم في بداية الشتاء، تهبُّ على طريقٍ واسعة مخصَّصة للجيش، نسائمُ متردِّدة باردة خفيفة مفعمة بهواء البحر المالح. فاحت رائحةٌ تبدو وكأنها رائحة غير عضوية لحديد به صدأ، أكثر من كونها رائحة البحر. وكان البحر الضيق بسطحه الميت هذا وتلك البارجة الصغيرة المربوطة بضفة البحر، يشبه قناةً مُدت إلى عمق مركز المدينة ... ثمَّة هنا سلام مؤكَّد، ولكن التحكم في النظافة المنتشرة أكثر من اللازم، سلب الميناء الحربي القديم حيويته الجسدية المضطربة، وحوَّل المدينة بأكملها إلى ما يشبه مستشفًى.

لم أكن أعتقد أن أقابل البحر هنا بأُلفة. وربما جاءت سيارة «جيب» من الخلف وألقت بي في البحر على سبيل المزاح. أنا أعتقد هذا الآن، ولكن كان من دوافع رحلتي هذه إشارةٌ

سرية من البحر، وعلى الأرجح أن ذلك البحر ليس هو هذا الميناء الصناعي، ولكنه بحرٌ مضطرب عنيف كما ولدته الطبيعة مثل الذي لمسته في طفولتي في موطني الأصلي في ناريو. إنه بحر اليابان الخلفي المنزعج الذي يحتوي على روحٍ غاضبة ذات تفاصيل دقيقة في كل أرجائه.

ولذلك كنت أنوي الذهاب إلى يورا. كان الشاطئ الذي يمتلئ حيويةً بالمصطافين في الصيف، يعاني الوحدةَ في هذا الوقت من الموسم، ولم أجد إلا تَقاتُل البر والبحر كلاهما للآخر بقواهما المظلمة. كانت الطريق التي تربط يورا بغرب مايزورو تصل إلى اثني عشر كيلومترًا، ولكن كانت أقدامي تتذكَّرها تذكرًا ضبابيًّا.

كانت الطريق تسير بمحاذاة الضلع المنخفض للميناء من مدينة غرب مايزورو في اتجاه الغرب، بالتبادل مع خط ميازو بزاوية قائمة، أخيرًا تخطيت قمةَ جبل تاكيشيري، ووصلتُ إلى نهر يورا. وبعد أن عبَرت جسر أوكاوا، اتجهتُ شمالًا بمحاذاة الضفة الغربية لنهر يورا. يتبقى فقط أن يقودَني تيار النهر إلى مصبِّه في البحر.

خرجتُ من مركز المدينة وبدأتُ المشي.

عندما تعِبت قدماي من المشي، سألتُ نفسي ما يلي:

«ماذا في يورا؟ ما البرهان الذي أمشي بعجلٍ هكذا من أجل الاصطدام به؟ أليس هو فقط بحر اليابان الخلفي، وشاطئًا مهجورًا بلا روَّاد؟»

ولكن، لم يبدُ على قدميَّ الخمود. كنت أحاول الوصولَ إلى مكانٍ ما، أيَّ مكان كان! لم يكن هناك أي معنًى لاسم المكان الذي أحاول الذهاب إليه. فلقد تولَّدت داخلي شجاعة — أغلبها شجاعةٌ غير أخلاقية — لمواجهةِ ما سأصل إليه أيًّا كان وأينما كان.

أحيانًا ما تسطع أشعةُ شمس خفيفة على حسب مزاجها، وشجرة الدردار الكبيرة التي على جانب الطريق، تحثُّني إلى ما تحتها من أشعة الشمس الدقيقة المتسربة من بين فروعها، وبلا معرفة السبب، أحسستُ أنني ليس لديَّ وقتٌ لراحة جسمي وأنا أحرِّك الزمن في مماطلة وإرجاء.

وأنا أقترب، لم يكن ثمَّة ميلٌ تدريجي للمنظر، ولكن ظهر فجأةً حوض النهر الضخم من الطريق المنحصرة بين الجبل والنهر. ورغم أن ماء النهر أزرق، وعرض النهر واسع، إلا أن جريان تيار النهر بدا تحت السماء الغائمة معكرًا وغير صافٍ وكأنه يُساق في اتجاه البحر تدريجيًّا ضد رغبته.

عندما وصلتُ إلى ضفة النهر الغربية، انقطع تمامًا مرور الناس والسيارات. ومن حين لآخر تظهر بمحاذاة الطريق حقولُ اليوسفي الصيفي، ولكن لا يظهر أثرٌ لإنسان.

وكان آخر شيء ظهر هو وجه كلبٍ ذي شعر أسود في مقدمة أنفه بعد أن صدر فجأةً صوتُ تفريق الحشائش بجوار تجمُّع بيوت قروية صغير اسمه «وايه».

كنتُ أعلم أن في تلك المنطقة من الأماكن التاريخية الشهيرة أطلالَ قصر دايو سانشو صاحب التاريخ المريب. ولأنه لم يكن عندي أي رغبة في زيارته ولو زيارةً خاطفة، فقد مررتُ من أمامه وتخطيته في غفلة مني. والسبب أنني كنت أنظر ناحيةَ النهر على الدوام. في داخل النهر جزيرةٌ نهرية مغطَّاة بغابة من الخيزران. ورغم أن الطريق التي أسيرُ فيها ليس بها ريح إلا أن أجَمَة الخيزران في الجزيرة النهرية كانت منحنيةً من الرياح. ثمَّة حقول أَرُز فوق الجزيرة بمساحة اثني عشر هكتارًا تقريبًا تُزرع بمياه الأمطار، ولا أثر لمزارعين، فقط شخص واحد يعطي ظهره تجاهي ويدلي خيط صيد في مياه النهر.

شعرتُ بأُلفة تجاه هذا الإنسان الذي أراه بعد فترة من انقطاع رؤية البشر.

«هل يا تُرى يصيد سمك البُوري؟ إذا كان فعلًا ما يصطاده هو سمك البوري، يكون من المفترض أن مصبَّ النهر ليس بعيدًا.»

حين ذلك، علا صوتٌ صاخب صادر من أجَمَة الخيزران المنحنية حتى غطَّت على صوت النهر، وما بدا لي أنه ضباب مرتفع كان على ما يبدو أمطارًا. صبغت قطراتُ المطر ضفةَ جزيرة النهر الجافة. وأثناء تفكيري في ذلك، كان المطر قد بدأ يتساقط عليَّ. لا أثر بالفعل للمطر فوق الجزيرة، التي أنظر إليها ومياه الأمطار تبللني. ولم يحرِّك الشخص الذي يصطاد، بنفس وضعه السابق، جسمَه قيد أُنملة. ثم انزاحت بعد ذلك السحابة المطرة من فوقي.

غطَّى الحسك وأعشاب الخريف مجالَ رؤيتي، في كل منحنًى من منحنيات الطريق. ولكن امتداد مصب النهر أمامي كان قريبًا. وذلك لأن رياح البحر الباردة بدأت في الأغلب تضرب أنفي.

كلما اقترب نهر يورا من نهايته ظهر عدد من الجزر النهرية المنعزلة. مياه النهر كانت تقترب اقترابًا مؤكدًا من البحر، ويقتحمها تيار البحر، ولكن سطح الماء كان يزداد هدوءًا ولم يبدُ أي بادرة عن حدوث شيء. مثل شخص يموت بعد فقدانه الوعيَ.

كان مصب النهر ضيقًا على غير المتوقَّع. وهناك دخلَ البحرُ الذي يتبادل الامتزاج والاختراق مع النهر، مندسًّا في تراكمات غيوم السماء المظلمة، ويرقد فقط على جنبه في غموض مبهم.

كان يجب عليَّ السير لفترة باتجاه الرياح التي تهبُّ بعنفٍ عابرةً السهول والحقول، من أجل أن ألمس البحر وأتعرَّف عليه. كانت الرياح ترسم البحر الشمالي بلا أي فراغات. كان البحر هو سبب إسراف وتبذير تلك الرياح القاسية بتلك الدرجة، فوق حقولٍ ينعدم فيها أيُّ أثر لبشر. وذلك ما يمكن تسميته بحر البخار الذي يغطي شتاء هذا الإقليم، البحر اللامرئي الآمر والحاكم.

انتشرت تدريجيًّا موجاتٌ مطوية عدة طيات على الجانب الآخر من المصب، ليظهر سطح البحر رماديَّ اللون. وبرزت في مواجهة المصب تمامًا جزيرة أخذت شكل قبعة عالية مستديرة. وكانت تلك هي جزيرة كاموري وتبعُد ثلاثين كيلومترًا عن مصب النهر، ويعيش فيها طائر «جلم الماء المخطَّط» المسجَّل طائرًا تذكاريًّا للدولة.

دخلتُ أحدَ الحقول الزراعية. ودُرت ببصري فيما حولي. كانت أرضًا منعزلة وموحشة.

في ذلك الوقت لمع في ذهني أحدُ المعاني. ولكنه بعد أن لمع اختفى في الحال وفقدَ معناه. ظللتُ فترة ساكنًا، ولكن الريح الباردة التي تهبُّ بقسوة سلبتني أفكاري. ثم بدأتُ السيرَ في عكس اتجاه الرياح.

استمرَّت الأرض الزراعية النحيلة وبعدها أرضٌ قاحلة يكثر بها الأحجار والحصى، وأغلب الحشائش البرية ذابلة، والخضراء التي لم تذبُل، هي فقط التي التصقت بالتربة التي تشبه الطحالب العفنة، وأوراق تلك الحشائش متقطِّعة ومفلطحة. وكانت تربة الأرض مختلطة بالفعل مع الرمل.

سمِعت صوتًا مهتزًّا بطيئًا. ثم سمعتُ صوتًا بشريًّا. سمِعت ذلك وقتما كنتُ بلا وعي أعطي ظهري للرياح القوية أنظر عاليًا نحو قمة جبل يوراغاتاكه الذي في الخلفية.

بحثتُ عن مكان وجود الناس. فعثرتُ على طريق ضيقة تهبِط بمحاذاة الجرف من أجل الهبوط إلى الشاطئ. وهنا عرفتُ أنه أشغالٌ متواضعة لدعم الشاطئ ليقاوم عوامل التعرية والنحر العنيفة. كانت تمتد هنا وهناك أعمدةٌ خرسانية تشبه الهيكل العظمي، ولكن بدا لون تلك الخرسانة الجديدة فوق الرمال حيويًّا ونشطًا. كان الصوت المهتز البطيء هو صوت هزاز الخرسانة الذي يهز ويحرك الأسمنت داخل الإطار الخاص به. نظر العمال الأربعة أو الخمسة ذوو الأنوف المحمرة الطرف، بارتيابٍ إليَّ أنا الذي يرتدي زيَّ الطلبة الجامعي.

أنا بالطبع كنت أنظر إليهم أيضًا. وبهذه الطريقة انتهت التحية التي يتبادلها البشر بينهم.

كان البحر يسقط بشدة وعنف في شكل الهاون من الشاطئ الرملي. مرةً أخرى كان يهاجمني، مع وطئي للرمل الذي يغلُب عليه نوعية الجرانيت، وأثناء سيري إلى مكان ارتطام الأمواج، شعورُ الفرح والسعادة من اقترابي اقترابًا مؤكدًا وخطوة بعد أخرى متوجهًا إلى إحدى الفِكَر التي لمعت في ذهني منذ قليل. بسبب برودة الرياح القوية وعدم ارتدائي قفازاتٍ، فقد كانت يدي متجمِّدة على الأغلب، ولكن لم يكن الأمر بهذه الدرجة من السوء.

كان ذلك بالفعل هو بحر اليابان الخلفي! النبع الصافي لكل أنواع التعاسة والأفكار السوداء المظلمة، النبع الصافي لكل أنواع قبحي وقوَّتي. كان البحر مضطربًا وهائجًا. وتتدافع الأمواج واحدةً بعد أخرى بلا توقُّف ولا فراغات بينها، ويمكن رؤية اللون الرمادي في قاع الأعماق الملساء خلال المسافة بين الموجة الآتية توًّا والموجة التي تأتي بعدَها. كانت الغيوم المتراكمة كثيرًا فوق سماء البحر المظلم، تجمع بين ثقل الوزن ورهافة الحس. وذلك لأن تراكمات الغيوم الثقيلة التي لا تفصل بينها حدود، تحيط بسماء موجودة وغير موجودة ذات اللون الأزرق الشاحب من منتصفها تمامًا، بعد أن يستمرَّ بعدها شريطٌ يشبه ريش أجنحة باردة في غاية الخفة. وكذلك يخفي البحر ذو اللون الرصاصي، جبال رأس البر ذات اللون البنفسجي الأسود. تعطي كل الأشياء المتحركة والساكنة، إحساسًا بأنها تبلورت مثل الجماد ومثل القوة المظلمة التي لا تتوقف عن الحركة.

فجأةً تذكرتُ ما قلتُه في اليوم الذي قابلتُ فيه كاشيواغي للمرة الأولى. تلك الكلمات التي قلت فيها: «إن اللحظة التي نصبح فيها فجأةً في منتهى القسوة، هي اللحظة التي نتأمل فيها شرود الأشعة المتسربة من بين الأشجار وهي تتراقص في عصر يوم ربيعي جميل، ونحن نجلس فوق نجيل مقصوص بعناية بالغة.»

أتوجَّه الآن نحو الأمواج ونحو الرياح الشمالية العاتية. ما من عصرِ يوم ربيعي جميل هنا، ولكن ثمَّة نجيل مقصوص بعناية بالغة. وكانت تلك الطبيعة المقفرة الكئيبة، تتملقني ربما أكثرَ بكثير من النجيلة وقتَ العصر، وكانت سرَّ وجودي الحميم. كنتُ هنا معتمدًا على ذاتي. ولم أكن مهدَّدًا أو خائفًا من أي شيء.

هل يمكن القول إن الفكرة التي طرأت في ذهني فجأة، هي فكرة بالغة القسوة، مثلما يقول كاشيواغي؟ على أي حال تولَّدت تلك الفكرة داخلي فجأة، وأوحت بالمعنى الذي لمع لي منذ قليل، وبدأت تنير ما بداخلي بتوهُّج. ولم أجرِّب بعدُ التفكير في ذلك بعمق، ولم يكن الأمر إلا أن تلك الفكرة قد ضربتني، مثلما أُصاب بضربة شمس. ولكن تلك الفكرة التي لم

تخطر على بالي مطلقًا حتى الآن، زادت من قوَّتها في ذات اللحظة التي وُلدت فيها، وزادت من حجمها، على العكس أعتقدُ أنها تحتويني. كانت تلك الفكرة هي:

«يجب أن أحرق المعبد الذهبي!»

الفصل الثامن

مشيت بعد ذلك أكثرَ، حتى وصلتُ إلى محطة «تانغويورا» على خط «ميازو». كنا قد سرنا على نفس خط السير، وقت الرحلة المدرسية عندما كنتُ في مدرسة شرق مايزورو الإعدادية، ورجعنا في طريق العودة من هذه المحطة نفسها. كان عدد الناس قليلًا في الطريق التي أمام المحطة، وعرفتُ أن تلك البلدة تعتمد في دخلها على الازدهار والنشاط أثناء الصيف القصير الأمد.

وقررتُ أن أبيت ليلتي في نُزْل صغير أمام المحطة حينما وجدتُ لوحةً عليها اسمه، كان اسمه نُزُل يورا وهو مخصَّص للمصطافين. فتحتُ باب المدخل ذا الزجاج المُصَنفر، وناديت بصوتٍ عالٍ لعل أحدًا يرشدني، ولكن لم أجد استجابة. كان الغبار متراكمًا على مكتب الاستقبال، والمكان من الداخل مظلم بسبب إغلاق النوافذ، ولا أثر يدلُّ على وجود بشَر.

درتُ إلى خلف المبنى. ثمَّة حديقة صغيرة متواضعة بها زهور سحلبية ذابلة. وثمَّة حوض ماء بُني على مكانٍ عالٍ. ويتدلى من ذلك الحوض دشٌّ لكي يتمكن الزبائن الذين جاءوا بعد العوم في البحر أثناء الصيف، من إزالة الرمال من على أجسامهم.

وثمَّة بيتٌ صغير منفصل عنه قليلًا، يبدو أنه مسكن أسرة مالك النُّزل. يتسرَّب صوت مذياع من الباب الزجاجي المغلق تمامًا. بدا لي ذلك الصوت العالي لدرجة الإزعاج، وكأنه صوتٌ أجوف، وعلى العكس لم يعطني شعورًا بأن أحدًا يسكن في ذلك البيت. وفي النهاية، انتظرتُ أمام المدخل الذي تناثر أمامه قبقابان أو ثلاثة، وأنا أنادي صائحًا بلا جدوى بين فترات صمت المذياع.

ثم ظهر خلفي ظلٌّ إنسان. كان ذلك في الوقت الذي انتبهت فيه إلى سطوع حبيبات الخشب في رفوف صندوق الأحذية، بسبب أشعة الشمس التي بدت دافئة من سماءٍ يكثر بها السحاب.

كانت امرأة جسدُها سمين أبيض ذابت حوافُّه وجحظت للخارج تنظر إليَّ بعيون رفيعة لحد الشك في أن لديها عيونًا أم لا. طلبتُ غرفةً للمبيت. استدارت المرأة للخلف صامتةً واتجهتْ نحو مدخل النُّزل، دون حتى أن تقول لي اتبعني.

... كانت الغرفة التي أُعطيت لي، صغيرةَ الحجم في أحد أركان الطابق الثاني، وتُطِلُّ نافذتُها تجاه البحر. أتلفتِ النار الخافتة للهبِ مصباحٍ يدويٍّ كانت تحمله المرأة، هواءَ الغرفة التي ظلَّت مغلقةً أمدًا طويلًا، ممَّا جعل رائحةَ العطن لا تُطاق. فتحتُ النافذة وعرضتُ جسمي للرياح الشمالية. في اتجاه البحر، استمرَّ لهو السحاب البطيء ثقيلًا كما كان منذ قليل، دون أن يُريه لأحد. كان السَّحاب كما لو أنه انعكاسٌ لدوافع الطبيعة التي ليس لها هدف تصبو إليه. تظهر قِطَع خفيفة من السماء الزرقاء، في جزء من ذلك، تشبه بِلَّورة صغيرة زرقاء ذات ذكاء واضح. ولكن لا يمكن رؤية البحر.

... بجوار تلك النافذة بدأتُ مرةً أخرى أتابع أفكاري التي كنت أفكِّر فيها منذ قليل. سألتُ نفسي لماذا لم تطفُ على ذهني مطلقًا فكرةُ قتل كبير الرهبان قبل فكرة حرق المعبد الذهبي؟

حتى ذلك الوقت أيضًا لم تطفُ فكرةُ قتل كبير الرهبان مطلقًا، ولكني على الفور عرفت بعدم فاعلية ذلك. والسبب هو أنني أدرك أنني حتى لو قتلت كبيرَ الرهبان وأنهيت أمره، فسوف يظهر من أفقِ الظلام في تتابُع عدد لا نهائي لشر ذلك الراهب الأقرع الضعيف.

إن كل الكائنات الحية، لا تملك خاصيةً فردية صارمة مثل المعبد الذهبي. فقد أعطت الطبيعة للبشر جزءًا من الانتماء الشامل، ولا يَزِد الأمر عن أنهم تكاثروا وتوارثوا ذلك بوسيلة يمكن تعويضها. إذا كان القتل من أجل القضاء على ضحيةٍ ذات حياة فردية، فسيكون القتل حسابًا خاطئًا للأبد. كنت أفكِّر بهذه الطريقة. وهكذا ظهر التباين الواضح بين المعبد الذهبي والوجود البشري. من جهة، برز وهمُ الأبدية على العكس، بسبب هيئة البشر السهلة الاندثار، وعلى العكس انبعث من جَمال المعبد الذهبي غير القابل للفَناء، إمكانية اندثاره. فلا يمكن القضاء على عنصر الموت عند البشر. ولكن يمكن إزالة عدم القابلية للفَناء عند المعبد الذهبي. لماذا يا تُرى لا ينتبه الناس إلى ذلك؟ لم يكن لديَّ أدنى شكٍّ في قدراتي الإبداعية. إذا أحرقتُ أنا المعبد الذهبي الذي سُجِّل أثرًا وطنيًّا في أواخر

القرن العشرين، فسيكون ذلك دمارًا خالصًا، دمارًا لا يمكن النجاة منه، وسيكون بالتأكد تقليلًا من حجم الجَمال الذي صنعه البشر.

أثناء استمراري في التفكير، هجم عليَّ مزاج الدعابة. قلت لنفسي: «إذا حرقت المعبد الذهبي، تُرى هل هذا التعليم الفعَّال سيكون مميزًا؟ لأنه بفضله سيتعلم الإنسان من خلال القياس أن الخلود أمرٌ ليس له أيُّ معنًى. لأنه سيتعلَّم أن مجرد الاستمرار في الوجود ببساطة على ضفاف بركة كيوكو مدة ٥٥٠ عامًا، ليس له أي نوع من الضمانات. لأنه سيتعلم القلق من انهيار وجودنا ربما غدًا مثلًا لأنه يتبع هذه الحقيقة البديهية الشديدة الوضوح.»

حقًّا. بالتأكيد وجودنا، تم الحفاظ عليه محاطًا بأشياءَ مكثفة استمرت خلال فترة زمنية محددة. على سبيل المثال، الدُّرج الصغير الذي يصنعه النجار من أجل منفعته في الأعمال المنزلية، مع مرور الوقت يتخطى الزمنُ طبيعته تلك، وبعد عشرات ومئات السنين، على العكس يتكثَّف الزمن ويصبح وكأنه أخذ تلك الهيئة والطبيعة. الفراغ الصغير المحدَّد، في البداية يُشغل من خلال الجسم المادي، ولكن يُحتل بواسطة الزمن الذي تجمع. وهذا يتجسَّد في نوع من أنواع الروح. كُتب في مقدمة إحدى قصص الأطفال المشهورة في العصور الوسطى تسمَّى «قصص تسوكوموغامي» ما يلي:

«ما يقوله كتاب قصص متنوِّعة من سِيَر الكُهان، أن الأدوات بعد مرور مائة عام، تتجسَّد وتحصُل على روح، وتخدع قلوب البشر، وهذا ما يُطلِق عليه تسوكوموغامي «التصاق الروح بالأداة». وبناءً على ذلك ثمَّة عادة في العالم البشري في بداية الربيع من كل عام، نزع الأثاث القديم من البيوت وإلقاؤه في الطريق ويُسمى هذا إزالة سُخام البيت. وهذا ما يعني أنه كل عام قبل أن تمرَّ مائة سنة، تحدُث كارثة بسبب تسوكوموغامي.»

وسيكون الغرض من فعلي هذا، فتْحَ عيون الناس على شرور وكوارث تسوكوموغامي، ومن ثَم إنقاذهم من تلك الكوارث. أنا من خلال هذا الفعل، أدفع وأدور عالم المعبد الذهبي، إلى عالمٍ لا وجود فيه للمعبد الذهبي. ومن المؤكد أن عندها معنى العالم سيتغير …

أحسستُ إحساسًا مؤكدًا أنني أتحوَّل إلى شعور بالتفاؤل. كان العالم الذي يحيط بي الآن وأراه أمام عينيَّ تمامًا، قريبًا جدًّا من سقوطه وانتهائه. أشعة الشمس الغاربة تمتد راقدة في جميع الاتجاهات، كان العالم الذي يركب المعبد الذهبي المتألق لامعًا بتلك الأشعة، مثل الرمال التي تتسرب ساقطة من بين أصابعي، يسير حثيثًا نحو سقوطه.

كانت صاحبة النُّزل هي التي قطعت إقامتي في نُزل يورا مدة ثلاثة أيام؛ فقد ارتابت في سلوكي وعدم خروجي من الغرفة خطوةً واحدة خلال تلك الفترة فاستدعت الشرطة. عندما دخل الشرطي بزيه الرسمي عليَّ الغرفةَ خِفت من اكتشاف أمري، ولكني على الفور تنبهتُ إلى عدم وجود سبب لذلك الخوف. أجبتُ عن استجواباته، وقلت له إنني هربت من المعبد بسبب رغبتي في البعد فترةً عن حياة المعبد والرهبنة، وأظهرت له بطاقتي الجامعية، وتعمَّدتُ أن أدفع حسابَ النُّزل كاملًا أمامه. ونتيجةً لذلك تغيَّر سلوك الشرطي إلى وضع الحماية لي.

اتصل الشرطي على الفور بمعبد روكوؤنجي، وتأكَّد من أن أقوالي ليس بها أي كذب، ثم أخبرني أنه من الآن سيصحبني حتى المعبد. ثم من أجل ألا يتسبَّب في جرح لي أنا الذي أحمل مستقبلًا زاهيًا، غيَّر ملابسه خصوصًا لملابس مدنية من أجلي.

أثناء انتظارنا القطار في محطة تانغويورا، هطلت أمطار الخريف الغزيرة، وفي لمح البصر ابتلَّت المحطة التي بلا سقف. اصطحبني الشرطي ودخلنا غرفةَ عاملي المحطة. وأوضح الشرطي ذو اللبس المدني لي بفخر أن رئيس المحطة وموظفيها أصدقاؤه. ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط. بل إنه عرَّف الجميع بي على أنني ابن أخيه الذي جاء لزيارته من كيوتو.

لقد أدركتُ عقليةَ الثائر. إن الشرطي ورئيس المحطة اللذين يتبادلان الحديث المرح وهما يحيطان بمجمرة الفحم الحديدية التي تشتعل فيها النيران الحمراء، لم يكن لديهما أيُّ توقُّع ولو قليلًا باقتراب انهيار نظامهما، وتغيُّر العالم الذي على وشْك أن يقع أمام أعينهما.

«لو أحرقتُ المعبد الذهبي ... لو أحرقتُ المعبد الذهبي، سيتغير عالم هؤلاء، وستنقلب قواعدهم الذهبية رأسًا على عقب، وسيضطرب جدول مواعيد القطارات، ومن المؤكد أن قوانينهم ستصبح لاغية.»

أسعدني أنهم لم يكونوا منتبهين إلى أنه بجوارهم مباشرةً أحدُ مجرمي المستقبل يمدُّ يده إلى مجمرة الفحم بوجهٍ لا يعبأ بشيء. كان موظفو المحطة الشبان المرحون يتحدَّثون بصوتٍ عالٍ عن الفيلم الذي سيذهبون لرؤيته في المرة القادمة. كان ذلك فيلمًا رائعًا يثير الدموع من العيون، ولم يكن ينقصه الإثارة والحركات المبهرة. في العطلة التالية فيلمٌ سينمائي! ذلك الشاب المفعم بالحيوية والشباب والأقوى جسديًّا مني بمراحلَ بعيدة، في العطلة التي تلي ذلك، يشاهد فيلمًا، ويضاجع فتاة ثم ينام.

كان يسخر من مدير المحطة بلا توقُّف، ويطلق المزاح، ويصحِّح له، وأثناء ذلك يحمل الفحم على ظهره في عجل، ويكتب على السبورة أرقامًا ما. كان سحر وجاذبية الحياة، أو بمعنًى آخر، حسدُ الحياة اليومية على وشْك أن يأسرني مرةً أخرى. يمكنني تركُ الرهبنة دون حرق المعبد الذهبي، فقط الهروب من المعبد، والرجوع إلى حياة البشر المدنية والغرق هكذا في الحياة اليومية.

... ولكن على الفور، عادت إلى الحياة مرةً أخرى قوة ظلامية، وأخرجتني من ذلك. كما توقَّعت يجب عليَّ حرقُ المعبد الذهبي. وعندها ربما تبدأ حياة أخرى وترتيب مختلف، لم أسمع بهما من قبل ويناسباني تمامًا.

... ردَّ مدير المحطة على الهاتف. وأخيرًا ذهب أمام المرآة، واعتمر بانضباطٍ القبعةَ الرسمية التي بها خيوط ذهبية. وبعد أن سعل قليلًا، ثنى صدره، وكأنه يذهب إلى مقر احتفال، خرج متوجهًا إلى الرصيف الذي توقَّفت عنه الأمطار. وأخيرًا استطعت سماعَ صوت زمجرة القطار الذي يجب عليَّ ركوبه، وهو ينزلق قبل قدومه، بمحاذاة الجرف القائم بجوار خط السكة الحديد. يصلنا من أرض الجرف بعد سقوط الأمطار، ذلك الصوت المدوي المبلَّل بزخرفة.

وصلتُ بصحبة الشرطي بالزي المدني إلى كيوتو في الساعة الثامنة إلا عشر دقائق مساءً، وجئنا إلى البوابة الرئيسة لمعبد روكوؤنجي. كانت ليلة باردة قليلًا. خرجنا من بين الجذوع السوداء لأشجار غابة الصنوبر المتصلة، وعندما اقتربنا من البوابة الرئيسة العنيدة، رأيت أمي التي تقف هناك.

كانت أمي تقف بالصدفة بجوار اللوحة الإرشادية التي سبق ذكرها. اللوحة الإرشادية التي كُتب عليها: «مَن يرتكب تلك الأفعال فسيتم معاقبته طبقًا لقوانين الدولة.» وبدت هيئة شَعرها الأشعث كغابة، تحت إضاءة مصباح البوابة، وكأن شَعرها الأبيض يقف منعكسًا شعرةً بشعرة. ورغم أن شَعر أمي ليس أبيضَ بهذه الدرجة، إلا أن انعكاس لهب المصباح جعله يبدو كذلك. كان وجهها الذي يحيط به ذلك الشَّعر جامدًا لا يتحرك.

وبدا جسد أمي الصغير عملاقًا بعد أن تضخَّم تضخمًا مريبًا ومقززًا. ويمتد خلفها ظلامُ الحديقة الأمامية داخل بوابة المعبد الرئيسة المفتوحة دومًا على مصراعيها، كانت أمي تعطي ظهرها للظلام، وتلفُّ حزام الكيمونو الرسمي الوحيد الذي تملكه وقد تهدَّلت

بغباء هيئته المتواضعة، وبَليت خيوطُ تطريزه الذهبية، وهي تحملق في الفراغ كما لو كانت شخصًا مات وهو واقف كما هو في مكانه.

تردَّدتُ في الاقتراب منها. كنتُ مرتابًا في سبب مجيء أمي إلى هذا المكان، ولكن الذي عرفته فيما بعدُ، أن كبير الرهبان بعد أن عرف بهروبي، أرسل إلى أمي يسألها عني، فأُصيبت أمي بصدمة وجاءت لزيارة معبد روكوؤنجي، وأقامت في المعبد.

دفع الشرطي بالزي المدني ظهري. رغم أني أقترب فإن حجم أمي كان يتضاءل تدريجيًّا مع اقترابي. كان وجه أمي تحت عيني مباشرةً، وتنظر إلى أعلى تجاهي بوجه شديد الانبعاج.

لم يسبق أن سخِر إحساسي مني قط. أوضحت لي عينُ أمي الصغيرة التي يبدو عليها اللؤم ذات التجويف، أخيرًا أن كرهي لها شرعي وعادل. وقد ذكرت فيما سبق، أن سببَ شعوري بالخزي والعار العميقين، والكراهية المتأجِّجة هو أنني وُلدت من هذه المرأة ... على العكس لم تعطني متسعًا لكي أقطع علاقتي بأمي، وأخطِّط للثأر منها. ولكن علاقة الدم لا سبيل لقطعها.

... ولكن الآن، شعرتُ أنني تحرَّرت فجأةً مع رؤيتي لأمي وقد غرق جسدها تقريبًا في عذاب الأمومة على الأرجح. أحسستُ أن أمي صارت غير قادرة على إخافتي أو تهديدي. ولا أدري سببَ ذلك.

... حدَث صراخٌ حاد وكأنه حشرجة الموت خنقًا. في اللحظة التي فكَّرت فيها هكذا، امتدت يدُها إلى خدي ولطمتني بضَعف.

«إيها العاق! يا ناكر الجميل!»

ظلَّ الشرطي بالزي المدني صامتًا ينظر إليَّ وأنا أُضرب وأُلكم. صارت أطراف الأصابع التي تضرب مضطربة، وفقدَت الأصابع قوَّتها، ولذا على العكس أصابت الأظافرُ الخدود وكأنها بَرَد. عندما رأيت أن ملامح أمي وهي تضربني كانت لا تنسى التضرُّع، أشحتُ بصري بعيدًا عنها. بعد فترة وجيزة، غيَّرت أمي من نبرة كلامها.

«لهذه الدرجة ... لهذه الدرجة ذهبت بعيدًا، ماذا فعلتَ بالنقود؟»

«النقود؟ استعرتها من صديقٍ قبل الرحيل.»

«أحقًّا ما تقول؟ ألم تسرقها؟»

«لم أسرق شيئًا.»

كان على ما يبدو أن ذلك هو الأمر الوحيد الذي كانت قلقةً منه، أخيرًا تنفَّست أمي الصُّعداء واطمأنت.

«حقًّا؟ ... أنت لم تفعل أيَّ شيء سيئ، أليس كذلك؟»

«لم أفعل.»

«حقًّا؟ على أي حال هذا أمرٌ جيد. يجب أن أجعلك تعتذر لكبير الرهبان. أنا اعتذرتُ له بالفعل، يجب عليك أن تعتذرَ من أعماق قلبك، وأن تنال منه العفو والمغفرة. فإنَّ كبير الرهبان رجل طيب القلب، وأعتقد أنه سيجعلك تستمر كما أنت، ولكن هذه المرة إن لم تتغيَّر تغيُّرًا حقيقيًّا فإن أمك ستموت. حقًّا. إذا لم تكن تريد أن تموت أمك بسببك، يجب عليك التغيُّر. ثم بعد ذلك تصير راهبًا عظيمًا ... ولكن على أي حال قبل ذلك يجب الاعتذار.»

بعد أن سكتت أمي تبِعناها أنا وشرطي الزي المدني في السكوت. كانت أمي قد نسيت أن تلقيَ التحية كما يجب على الشرطي.

أخذتُ أفكِّر وأنا أتأمل خلفيةَ الحزام المتدلي الذي يهتز اهتزازاتٍ قصيرة، ما الذي يجعل أمي بهذه الدرجة من الدمامة التي هي عليها. إنه الأمل ... الذي يجعل أمي دميمة. الأمل الذي يشبه الجرب العنيد الذي يعيش على أكل الجلد القذِر، الذي لا ينهزم أمام أي شيء في هذا العالم، الذي يسبِّب حكةً لا تنقطع بلون وردي أحمر رطب، إنه أملٌ غير قابل للشفاء.

جاء الشتاء. وأخيرًا صار قراري صلبًا. أخذت الخطة تتأجل وتتأجل، ولكن لم أمَلَّ من مطِّها وتطويلها.

صار الأمر الذي كنت أعانيه خلال ستة أشهر منذ ذلك الوقت، شيئًا آخر. كان كاشيواغي في نهاية الشهر يلح عليَّ في ردِّ القرض، ويبلغني بمقدار المبلغ بعد إضافة الفوائد، ويلومني بكلمات نابية. ولكن في الواقع لم يكن عندي نيةٌ لرد القرض. كان من الأفضل أن آخذ إجازة من الجامعة حتى لا أقابل كاشيواغي.

بعد أن قررتُ ذلك مرة بحسم، لا يجب اعتبارُ عدم حديثي عن تفاصيل حَيرتي واهتزاز قلبي بين أخذ القرار والعودة عنه أمرًا عجيبًا. فلقد اختفى التردُّد من قلبي. وكنت أركِّز النظر في أثناء الأشهر الستة الماضية، على أمرٍ واحد من المستقبل. وكنت على الأرجح قد عرفتُ طَعم السعادة أثناء تلك الفترة.

أولُ شيء، أن حياة المعبد صارت سهلة. فقد كان من السهل تحمُّل ما لا يمكن تحمُّله، إذا فكَّرت أن المعبد الذهبي سيئول إلى الحرق. مثل الشخص الذي تنبأ بموته، صار سلوكي تجاه رجال المعبد ودودًا، وتعاملي لهم مشرقًا، وصرتُ أجتهد في التصالح معهم في كل الأمور. حتى الطبيعة تصالحتُ معها. وحملت ودًّا وألفة تجاه ريش صدر العصافير التي تأتي كلَّ صباح في الشتاء لتلتقط ثمارَ الآس البري المتبقية على الأشجار.

لقد نسيت حتى كرهي لكبير الرهبان! أصبحت متحررًا من أمي، ومن أقراني، ومن جميع الأشياء. ولكني لم أكن غبيًّا لدرجة أن أنخدع في أن استمتاعي بحياتي الجديدة هذه الأيام يعني تحقيق تغيُّر العالم دون أن يلمسه أحد. إذا تأملت أيَّ أمر كان من ناحية النهاية، يمكنك التسامح معه. إن برهان تحرُّري بحق، كان في جعل تلك العين التي تنظر من جانب النهاية ملكي أنا، بل والإحساس أن يدي أنا هي التي تقرِّر تلك النهاية.

حتى لو قلنا إنها فكرة تولَّدت فجأة بهذه الطريقة، ولكن كانت فكرة حرق المعبد الذهبي تشبه ملابسَ غربية تم تفصيلها توًّا، وتناسب مقاسي تمامًا. كما لو أنني كنت منذ وقت ميلادي أجعلها هدفًا نصب عيني. على الأقل منذ اليوم الذي جئتُ فيه بصحبة أبي ورأيت المعبد الذهبي لأول مرة في حياتي، فهذه الفكرة تربَّت داخلي وكأنها تنتظر تفتُّح وردتها. كانت حقيقة أن يبدوَ المعبد في عين صباي جميلًا جَمالًا لا مثيل له في هذا العالم، تُهيئ داخلي في النهاية جميعَ الأسباب لكي أكون مجرمَ حرائق متعمَّدة.

أنهيتُ الفصل التمهيدي في جامعة أوتاني في يوم ١٧ مارس من عام ١٩٥٠. وأخذًا في الاعتبار أن اليوم التالي لليوم الذي يليه، أي ١٩ مارس، هو عيد ميلادي، إذن كنتُ في الحادية والعشرين من عمري. كانت نتيجة الفصل التمهيدي في ثلاث سنوات رائعة. ترتيبي كان التاسع والسبعين من بين تسعة وسبعين طالبًا. أقلُّ درجة حصلتُ عليها بين كل المواد كانت ٤٢ درجة في اللغة اليابانية. عدد ساعات الغياب، كان ٢١٨ ساعة من بين ٦١٦ ساعة، أي أكثر من الثلث. ورغم ذلك ومن رحمة بوذا، لم يكن في هذه الجامعة رسوبٌ وإعادة السنة؛ ولذا استطعت التقدُّم للمرحلة الدراسية العادية. وافق كبير الرهبان أيضًا صامتًا على ذلك.

قضيت الأيام الجميلة من نهايات الربيع إلى بدايات الصيف، وأنا أتغيَّب عن المحاضرات، وأزور المعابد البوذية ومعابد الشنتو التي ليس بها رسوم دخول. مشيت حتى حدود ما امتدت قدماي. ويجعلني هذا أتذكَّر اليوم التالي.

كنتُ أسيرُ في الطريق الرئيسة التي أمام معبد ميوشينجي. وعندها انتبهتُ إلى طالبٍ يمشي أمامي بنفس سرعة خطواتي. عندما وقف عند محل للسجائر قديم ومنخفض الارتفاع لكي يشتريَ سجائره، بدا لي وجهه الجانبي تحت قبَّعة الجامعة.

كان وجهًا جانبيًّا حادًّا ذا لون أبيض تقترب حواجبه من بعضها، وعندما نظرتُ إلى قبَّعة الجامعة عرفتُ أنه طالب في جامعة كيوتو. نظر ناحيتي نظرةً خاطفة بطرف عينه. كانت نظرةً تشبه مجيء ظل أسود متدفِّق معها. وقتها جاءني حَدْس تلقائي أن ذلك الطالب «هو ولا ريب مجرمُ حرائق متعمَّدة.»

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. وكان الوقت غير مناسب مطلقًا لعمل جريمة حريق متعمَّدة. كانت الفراشة التي ضلَّت طريقها فخرجت إلى طريق الباصات المعبَّدة، تلف وتدور حول زهرة الكاميليا الذابلة في المزهرية المخصَّصة لزهرة واحدة فقط والموضوعة أمام محل السجائر. كان الجزء الذابل من زهرة الكاميليا البيضاء يبدو وكأنه بقايا احتراقها بنارٍ بلون بني غامق. لا يأتي الباص مهما مرَّ الوقت، وكان الزمن متوقفًا فوق الطريق.

لا أعلم لماذا أحسستُ أن ذلك الطالب يخطو حثيثًا نحو الحرق العمد خطوةً بخطوة. فقط بدا لي بوضوح أنه مهووس بالحرائق العمد. وكان يسير ببطء إلى الفعل الذي وضعه نُصب عينيه بعناد، وقد اختار معتمدًا وَضَح النهار الذي هو أصعبُ وقت يمكن إشعال حريق فيه. أمامه نار ودمار، وخلفه نظام هجره. أحسستُ بذلك من ظهر زيه الجامعي الموحَّد المهيب نوعًا ما. ربما كنتُ قد رسمتُ تلك الصورة في مخيِّلتي لما يجب أن يكون عليه ظهرُ شاب مهووس بالحرق العمد. كان يمتلئ ظهر ذلك القماش الأسود الذي تسقط عليه أشعة الشمس، بشيء حادٍّ ومشئوم وصعب المراس.

فكرتُ في أن أقلِّل من سرعة خطواتي وأتبع أثر الطالب. وأثناء سيري هكذا، صرتُ أعتقد أن ظهره الذي تسقط فيه كتفه اليسرى قليلًا، هو ظهري أنا. كان ذلك الطالب أجملَ مني بدرجة كبيرة جدًّا، ولكن لم يكن هناك اختلاف في أن نفس الوحدة، ونفس التعاسة، ونفس الأفكار الضالة عن الجَمال، تحثُّه على نفس الفعل. صرتُ في غفلةٍ من الزمن مع تتبُّعي له، وكأنني أتابع تصرفاتي أنا الشخصية مقدمًا.

وكان ذلك أمرًا محتملَ الحدوث بكثرة في ظهيرة أواخر الربيع، بسبب شدة كآبة الجو والإضاءة. بمعنى أن أصير مزدوجًا، ويحاكي جزءٌ مني تصرفاتي من البداية، وعندما أقرِّر التنفيذ، يظهر أمامي بوضوحٍ جزئي غيرُ المرئي. ذلك هو ما يحدث.

مهما مرَّ الوقت فالباص لا يأتي، وانقطع مرور الناس في الطريق. اقتربتْ بوابة المدخل الجنوبي لمعبد شوهوزان ميوشينجي. بدت البوابة التي فُتحت على مصراعيها يمينًا ويسارًا، وكأنها تبتلع جميع أنواع الظواهر الكونية. وذلك أنه عندما ننظر من هذه الجهة، نجد داخل ذلك الإطار العملاق، منظرَ الأعمدة المتكررة لبوابة مبعوث الإمبراطور وبوابة الجبل، وقرميد سقف قاعة تمثال بوذا، والكثير من الصنوبر، وإضافة إلى ذلك فهي تبتلع جزء السماء الزرقاء المقتَطَع، وبعض قِطَع السحاب النحيلة. تمتد الطرقات المغطاة بالأحجار طولًا وعرضًا في أنحاء المعبد الواسع، مع الاقتراب من البوابة، وكذلك تنضم إليها أسوار المعابد الفرعية الكثيرة، وأشياء لا حدود لها. إذا مررت من البوابة مرةً، تعرف أن البوابة السحرية ذات القداسة، تحتل جميع الغيوم مع كامل السماء الزرقاء التي داخل البوابة. هكذا يجب أن يكون المعبد البوذي الكبير.

دخل الطالب من البوابة. ودار من الجهة الخارجية لمدخل مبعوث الإمبراطور، ووقف على ضفاف بِركة اللوتس التي أمام مدخل الجبل. ثم علاوةً على ذلك وقف فوق الجسر الحجري الذي يعبر البِركة، وتوجَّه بنظره إلى بوابة مدخل الجبل التي تعلو سامقة. فكرتُ: «من المؤكَّد أنه يدخل هذا الجبل بنية الحرق العمد.»

كان ذلك مناسبًا لأن تحيط به النيران أمام مدخل الجبل المهيب الجميل. في هذا الظهر المشرق، على الأرجح لن تُرى النيران بوضوح. ستُعرف فقط النيران خلال رؤية انبعاج السماء الزرقاء فقط تهتز، حيث يلتفُّ الدخان الكثيف حولها ويلحس اللهب غير المنظور الهواء.

اقترب الطالب من مدخل الجبل، ولذا من أجل ألا يكتشفني درتُ من الجهة الشرقية لمدخل الجبل ونظرت. كان ذلك وقتَ عودة رهبان جمْع التبرعات إلى المعبد. تأتي مجموعة التبرعات المتسلسِلة المكوَّنة من ثلاثة رهبان، من طريق الشرق يأتون بمِشية الأوزة على الطريق المرصوفة بالأحجار وهم يرتدون خُفَّ القش. ويعلِّق الثلاثة في أيديهم قبَّعة الخيزران. وكما تنص قواعد جمْع التبرعات، لا ينظرون إلا إلى مسافة ثلاثة أو أربعة أقدام أمامهم، دون تبادل أي أحاديث خاصة مع بعضهم البعض حتى العودة إلى مقر المبيت، ورحلوا من أمام عيني خاصة بهدوء شديد منحرفين لليسار.

مرةً أخرى تردَّد الطالب بجوار مدخل الجبل. وأخيرًا أسند ظهره على أحد الأعمدة، ثم أخرج من جيبه علبة السجائر التي اشتراها منذ قليل. وأخذ ينظر فيما حوله في قلقٍ وعدم سكينة. كنتُ أعتقد أنه من المؤكَّد أنه يتظاهر بتدخين السجائر، لكي يقومَ بإشعال حريق. حسنًا، لقد وضع السيجارة الأولى في فمه، وقرَّب وجهه ثم حكَّ الثقاب.

أظهرت نار الثقاب في لحظةٍ تألقًا شفافًا صغيرًا. كان سبب الاعتقاد أن لون النار لم تبدُ مرئيةً في عين الطالب، أن شمس الظهيرة تحيط منذ فترة مدخل الجبل من ثلاثة اتجاهات، فأعطت ظلالًا فقط في الجانب الذي أقفُ فيه. ثمَّة نار بجوار وجه الطالب الذي يستند على أحد أعمدة مدخل الجبل على ضفاف بِركة اللوتس، في لحظة واحدة سريعة، طفَت ما يشبه نيران زائلة مؤقتة. ثم أُطفئت بواسطة يد الطالب التي اهتزَّت بعنف لإطفائها.

ويبدو أن الطالب لم ترتَح نفسه بمجرد إطفاء الثقاب فقط. الثقاب التي رماها فوق حجر الأساس ظل يدعسها بباطن حذائه زيادةً في التأكيد. حسنًا، مع استمتاعه بتدخين السيجارة، ودون أي اعتبار لليأس المتبقي داخلي أنا، عبَر الطالب الجسرَ الحجري ومرَّ بجوار بوابة تيشي، وسار مختالًا، ورحل مغادرًا من البوابة الجنوبية التي يُرى منها الشارع الواسع الممتدة فيه قليلًا ظلالُ البيوت المتراصة.

لم يكن ذلك الطالب مجرم إشعال حرائق، بل كان طالبًا يقوم بنزهة. وعلى الأرجح أنه كان طالبًا به قليل من الملل والفقر، فقط لا غير.

لم يكن يروق لي مطلقًا أنا الذي شاهدتُ جميع الخطوات، أن ذلك كلَّه من أجل تدخين سيجارة واحدة، وليس من أجل حريق متعمَّد. وبصفة خاصة لم يرُق لي ما حدث بعد ذلك؛ أي «تربيته الثقافية» التي جعلته يفرح كطالب في بخلٍ بمجرد خروجه عن النظام، والتي تجعله يتلفَّت بجبن واضطراب فيما حوله هكذا، وسلوكه في الحرص على إطفائه الثقاب المطفأة بالفعل بهذه الطريقة. وبفضل تلك التربية التي تشبه سَقَط المتاع، سيطر على النار الصغيرة التي أحدثها بمنتهى الأمان. وهو على الأرجح يريد أن يكون بارعًا في السيطرة على ثقابه، وأن يكون تجاه المجتمع، المسيطرَ الكامل على النار الذي لا يتأخَّر.

كانت تلك التربية سببَ عدم احتراق المعابد البوذية في وسط مدينة كيوتو وفي ضواحيها، بعد ثورة ميجي (١٨٦٧) إلا نادرًا. حتى لو وُجد حريق بطريق الصدفة، يتم تقطيع النيران إلى قِطَع صغيرة، وفصلها بعضها عن بعض، وفي النهاية يسيطر عليها. ولكن لم يكن الأمر بهذا الحال على الإطلاق فيما مضى. فلقد احترق معبد تشيؤنين في عام ١٤٣١، وبعد ذلك أيضًا عانى الحرائق أكثرَ من مرة. واحترق معبد نانزنجي في عام ١٣٩٣؛ فقد احترقت قاعاته مثل قاعة بوذا في المبنى الرئيس، وقاعة المحاضرات وقاعة كونغو ومبنى دايونان. وتحوَّل معبد إينرياكوجي إلى رماد في عام ١٥٧١. وطالت النيران

معبد كينَّينجي في عام ١٥٥٢ بسبب الحرب الأهلية. وتدمَّر معبد سانجوسانغن حرقًا في عام ١٢٤٩. واحترق معبد هونَّوجي بسبب الحرب الأهلية في عام ١٥٨٢.

في تلك العصور كانت النيران حميمية. ولم تكن تُفصل النيران بهذه الطريقة، بل كانت تستمر وتوثِّق يدها مع نيرانٍ أخرى، وتستطيع أن تتجمَّع في نيران بلا عدد. وكان البشَر على الأرجح أيضًا على نفس المنوال. كانت النيران لديها القدرة على استدعاء نيرانٍ أخرى مهما كان موقعها، وكان صوتها يصل في التو والحال. كانت المعابد تحترق فقط بسبب نيرانٍ تنشأ من خطأ، أو نيران بسبب الحرب أو بسبب نيران انتقلت إليها من حريق في مكانٍ آخر، وما من تسجيل لحريق متعمَّد لمعبد، ولذا فشخص مثلي لو وُجد في عصر من العصور القديمة، كان يكفيه أن يحبس أنفاسه ويختبأ ثم ينتظر فقط. فلا بد أن يحترق المعبد في يومٍ ما. كانت النيران وفيرة، وتفعل ما يحلو لها. لو انتظر فقط، فالنار التي ترقب أي ثغرة، كانت بالضرورة تنطلق، وتمتد يد النيران إلى يد نيران أخرى، وتنجز ما يجب إنجازه. أما المعبد الذهبي ففي الواقع أنه أفلت من النيران بمجرد صدفة نادرة ليس أكثر. تستعر النيران استعارًا طبيعيًّا، يتجاور الفَناء والنفي تجاورًا دائمًا، المعبد البوذي الذي يُبنى لا بد وأن يحترق، فالمنطق البوذي وقانونه يسيطران على العالم سيطرةً سحرية وغامضة. حتى لو كان حريقًا عمدًا، فهو لجوء طبيعي للغاية إلى قوى النار المختلفة، ولذا ربما لم يعتقد أيٌّ من المؤرخين أن ذلك حرقٌ عمد.

كان الوضع في تلك العصور على الأرض غير مستقر. كان اضطرابًا لا ينهزم أمام الاضطراب الموجود على الأرض حاليًّا في عام ١٩٥٠. إذا كانت المعابد البوذية احترقت في الماضي من خلال الاضطراب والفوضى، فلِمَ يُفترض أن المعبد الذهبي لا يحترق الآن؟

لأنني كنتُ أتكاسل عن حضور المحاضرات وأتردَّد مراتٍ فقط على المكتبة فقد قابلت كاشيواغي الذي كنت أتفاداه في أحد أيام شهر مايو. لمحني أحاول تفاديَه فلحقني بمشاعرَ مستمتعة، وتعمَّد على العكس أن يوقفني بسبب تفكيره أنني لو جريت فلا يفترض أن يستطيع صاحب القدَم الحَنْفَاء اللَّحاق بي.

كانت أنفاس كاشيواغي الذي أمسك بكتفي تتقطَّع. كان الوقت الساعة الخامسة والنصف تقريبًا بعد انتهاء المحاضرات. كنتُ قد خرجتُ من المكتبة وانحرفت من الجانب الخلفي لمباني الجامعة من أجل ألا أقابل كاشيواغي، فوصلت إلى الطريق التي بين السور الحجري العالي وبين الثكنات التي تحوَّلت إلى قاعاتٍ للمحاضرات في الجانب الغربي.

كان ذلك المكان يتبقى فيه القمامة من الورق والزجاجات الفارغة وسط زهور الأقحوان البرية التي تنبُت طبيعيًّا فيه، وكان الطلاب الذين تسلَّلوا إليه يلعبون لعبةَ تبادُل قذف كرة البيسبول. كان ذلك الصوت الحاد يجعل قاعاتِ الدرس الخاليةَ بعد انتهاء المحاضرات التي تُرى من خلال زجاج النوافذ المنكسر وداخلها مقاعدُ الدرس وقد علاها التراب، موحشةً بدرجة بارزة وواضحة.

وقفتُ أنا بعد أن تخطيت ذلك ووصلت إلى المبنى الرئيس، ثم جئت أمام الكوخ الصغير المعلَّق عليه لافتة المعمل قد علَّقها عليه جماعة تنسيق الزهور في الجامعة بعد خروجي من الجانب الغربي. تشف أشجار ظلال أوراق الكافور التي تقف عاليةً بمحاذاة السور متخطيةً سقف الكوخ، أشعة شمس الغروب، التي تنعكس على جدران المبنى الرئيس المبنية من الطوب الأحمر. بدا الطوب الأحمر متألقًا وشمس الغروب تغمره بأشعَّتها.

ولأن كاشيواغي أسند جسمَه على ذلك الحائط لأن أنفاسه تتقطع، فقد لوَّنَت ظلال أوراق شجر الكافور الصاخبة خدودَه الذابلة دائمًا وأعطتها ظلًّا متراقصًا في ريب. أو ربما انعكاسات الطوب الأحمر التي لا تتناسب معه جعلته يظهر بهذا المنظر.

قال:

«أصبح المبلغ خمسة آلاف ومائة ين. أنت تصعِّب السَّداد على نفسك.»

ثم أخرج من جيب صدره ورقةَ القرض المثنية التي يضعها فيها على الدوام، ثم فردها وأراني إيَّاها. ثم قبض على يدي مخافةَ أن أقوم بتمزيقها، ثم أسرع بثنيها مرةً ثانية وأعادها مكانها الأصلي، ولذلك لم يتبقَّ في نظري إلا بقايا اللون الأحمر الفاقع لبصمة الأصبع المسمومة. بدت بصمةُ أصبعي مريعة بشدة.

«رُدَّ المال لي بسرعة. فهذا من أجل مصلحتك أنت. ألا يمكنك أن تختلس من مصاريف الدراسة أو شيء من هذا القبيل؟»

كنتُ ساكتًا. فهل ثمَّة أي التزام بإعادة القرض والعالم مقبِل على الفَناء؟ كنت على وشْك الوقوع في إغراء التلميح قليلًا بذلك لكاشيواغي، ولكني أعرضت عن ذلك.

«لن أفهم شيئًا من صمتك. هل تخجل من التلعثم؟ بعد ماذا! فحتى هذا يعلم أنك متلعثم. حتى هذا.»

قال ذلك وهو يضرب حائط الطوب الأحمر المُنار بانعكاسات شمس الغروب بقبضة يده. اصطبغت قبضة يده بمسحوقٍ ذي لونٍ بنيٍّ محروق.

«حتى هذا الحائط. ما من أحدٍ في هذه الجامعة لا يعرف ذلك.»

وبعد ذلك وقفتُ في مواجهته وأنا على صمتي. في ذلك الوقت فلتت الكرة من أحد الطلبة، وجاءت تتدحرج بيننا نحن الاثنين. أحنى كاشيواغي جسمه لالتقاطها وإعادتها إليه. نهض فيَّ ذلك الفضول المنحرف فحاولت رؤية كيف سيمسك الكرة التي على بُعد قدم منه بيده، كيف ستجعل قدمه العرجاء تنشط. ويبدو أن عيني دون وعي كانت تنظر إلى قدمه. ويمكن القول إن سرعة ملاحظة كاشيواغي لذلك كانت سرعةَ ملاحظةٍ ربانية. فقد رفع جسده قبل أن يبدوَ عليه الانحناء وحملق فيَّ، كان في تلك العين، حقدٌ ينقصه البرود، وهو ما لا يتناسب معه.

اقترب الطالب متكاسلًا، والتقط الكرة من بيننا وهرب. وأخيرًا قال كاشيواغي:

«حسنًا إذا كان ذلك هو موقفك فأنا لديَّ فكرة. قبل أن أعودَ إلى بلدتي في الشهر القادم، سأريك كيف أحصُل على ما أستطيع الحصول عليه مهما كانت الطريقة. وأنت أيضًا بالتأكيد مستعدٌّ لذلك.»

بعد دخول شهر يونيو، تدريجيًّا تناقصت المحاضرات المهمة، وبدأ الطلاب كلَّ الاستعدادات للعودة إلى قراهم. ولن أنسى ما حييت يومَ العاشر من يونيو.

عند دخول الليل صارت الأمطار التي كانت تهطل منذ الصباح أمطارًا غزيرة. وكنت بعد وجبة العشاء في غرفتي أقرأ كتابًا. اقتربَت في الساعة الثامنة مساءً، أصواتُ أقدام في الممر الذي يصل بين المكتبة الكبرى وقاعة الزوار. يبدو أن أحد الزوار جاء لزيارة كبير الرهبان الذي لم يخرج هذه الليلة على غيرِ عادته. ولكن الشيء العجيب أن صوت الأقدام كانت تشبه صوت ارتطام الأمطار الهائجة بألواح الأبواب. ورغم أن صوت أقدام الراهب المبتدئ الذي يرشدها إلى المكان منتظمةٌ وفي غاية الهدوء، فإن صوت أقدام الزائر جعل ألواح أرضية الممر تصدر صريرًا غريبًا، وعلاوةً على ذلك بطيئًا للغاية.

كان إفريز سقف معبد روكوؤنجي المظلم يحتوي على صدى أصوات الأمطار. تجعل الأمطار التي تنصبُّ هاطلة على المعبد الضخم العتيق، رائحةَ العفن التي بلا عدد تملأ تمامًا الغرفَ العديدة الفارغة. لا تسمع الأذن في المخازن الخلفية ومبنى مبيت الموظف الإداري ومسكن الرهبان وقاعة الزوار إلا صوت المطر. فكرتُ في ذلك المطر الذي يسيطر على المعبد الذهبي. فتحتُ باب الغرفة قليلًا. امتلأت الحديقة الوسطى الصغيرة الحجم التي أكثرها أحجارٌ بمياه الأمطار، تنتقل المياه من حجر إلى حجر وهي تُظهر ظهرَها الأسود اللامع.

كان الراهب المبتدئ الجديد عائدًا من غرفة كبير الرهبان، وعندما مرَّ من أمام غرفتي، أطلَّ برأسه فقط داخل الغرفة قائلًا:

«لقد جاء طالبٌ اسمه كاشيواغي لمقابلة كبير الرهبان. لا ريب أنه صديقك، أليس كذلك؟»

أصابني قلق شديد فجأةً. ثم قمت بإيقاف هذا الراهب الذي يرتدي نظارةَ نظر والذي يعمل في النهار مدرسًا بمدرسة ابتدائية بعد أن همَّ بالإسراع في الجري، وأدخلته غرفتي. والسبب أنني لم أقدِر على احتمال الوحدة وأنا أتخيَّل الحوار الدائر في مبنى المكتبة الكبرى.

مرَّت خمس دقائق. سمِعنا صوتَ الجرس اليدوي الذي يرنُّه كبير الرهبان. دقَّ صوت الجرس منتشرًا بشجاعة ومخترقًا أصوات الأمطار ثم توقَّف فجأة. نظر بعضنا إلى وجه بعض.

قال الراهب المستجد:

«إنه أنت.»

نهضتُ واقفًا بصعوبة.

كانت الوثيقة المهورة ببصمة أصبعي مفرودة فوق مكتب كبير الرهبان، ثنى كبير الرهبان جنبًا من تلك الورقة وأشار بها إليَّ، حيث كنتُ جاثيًا على ركبتي في الممر أمام غرفته. ولم أحصل على إذن بدخول الغرفة.

«هل هذه بصمتك؟»

أجبتُ:

«نعم.»

«لقد فعلتَ ما يسبِّب إزعاجي حقًّا. إذا فعلت ذلك مرةً أخرى فلن أُبقيَ عليك بالمعبد. كنتُ على علمٍ بذلك. فهناك العديد ...»

كان كبير الرهبان على وشْك قول شيءٍ ما، ولكنه أغلق فمه مراعاةً لوجود كاشيواغي.

«سأقوم أنا بردِّ المال. هيَّا يمكنك الرحيل الآن.»

بهذه الكلمة تولَّد لديَّ متَّسع للنظر إلى وجه كاشيواغي. كان يجلس بملامحِ وجهٍ وديعة. وكان حريصًا على أن يتَّجه بوجهه بعيدًا عني. كان وجه كاشيواغي عندما يفعل شيئًا شريرًا، يتخذ الملامحَ الأكثر براءةً وطهرًا وكأنه دون أن ينتبه بنفسه لذلك، قد اقتلع شخصيته الجوهرية. كنتُ أنا الوحيد الذي يعرف ذلك.

أحسستُ فجأةً بعد أن رجعتُ إلى غرفتي، أنني حصلتُ على حريتي، وسط الوحدة والعزلة، وسط أصوات المطر العنيفة. كان الراهب المستجدُّ قد غادر غرفتي بالفعل.

لقد قال كبير الرهبان:

«لن أبقيَ عليك بالمعبد.»

عندما سمِعتُ هذه العبارة من فم كبير الرهبان لأول مرة، أخذتُها على أنها يمكن اعتبارها وعدًا من كبير الرهبان. أصبحتِ الأمور فجأةً في غاية الوضوح. ففكرة طردي من المعبد موجودةٌ بالفعل في ذهن كبير الرهبان. يجب الاستعجال في التنفيذ.

لو لم يفعل كاشيواغي ما فعله اليوم، لم تكن هناك فرصة أخرى لكي أسمع هذه الكلمة من فمِ كبير الرهبان، وربما كان التنفيذ تأجَّل أكثرَ من ذلك. وعندما أفكِّر أن الذي أعطاني قوةَ الدفع هو كاشيواغي، يفور داخلي إحساسٌ غريب بالشكر والامتنان تجاهه.

لم تكن هناك أي بوادر لزوال المطر. الجلد يشعر ببعض البرودة رغم أننا في شهر يونيو، وغرفة المخزن ذات التسعة أمتار مربَّعة والمحاطة بألواح الخشب، بدت كئيبةً موحشة تحت إضاءة المصباح المظلم. كانت هذه غرفتي التي ربما أُطرد منها في النهاية. ليس بها أي نوع من أنواع الزينة، وتغيَّر لون حافة حصير التاتامي السوداء بفعل الزمن، وبقي ممزقًا ومعوجًا وتظهر خيوطه الداخلية الصلدة للعيان. عندما أدخل الغرفة وأنيرُ المصباح، دائمًا ما تشبك أصابع قدمي في ذلك الخيط، ولكن لم أحاول خياطته. فما من علاقة لحصير التاتامي أو لغيره في درجة حماس حياتي المعيشية.

تفوح مع اقتراب الصيف، رائحةُ عرقي اللاذعة في تلك المساحة الصغيرة. والأمر الذي يجب الضحك منه هو أنني راهب، بل وأملك رائحةَ جسد شاب. التصقت الرائحة بالأعمدة الغليظة العتيقة في الأركان الأربعة التي تشع أشعةً سوداء، وكذلك في ألواح الباب القديمة، فكانت تلك الأشياء تطلق رائحةً عفنة لكائن حي شاب من بين عُقَد الأخشاب التي أعطت لها السنين والشهور صدأ الأركان الملتوية. وقد تحوَّلت هذه الأعمدة والألواح، إلى ما يشبه كائناتٍ حية متوحشة لا تتحرك.

في ذلك الوقت تردَّد في الممر ذلك الصوتُ الغريب الذي سمِعته منذ قليل. نهضت وخرجت إلى الممر. شجرة الصنوبر البعيدة التي على شكل مركب والتي تتلقى إضاءة غرفة كبير الرهبان البعيدة، وترتفع عاليًا مقدمة المركب المبتلة الخضراء التي بها سواد، ويقف في ظهرها كاشيواغي ساكنًا وكأنه أوقف فجأةً حركتَه الميكانيكية. أما أنا فقد علَت وجهي ابتسامة.

ولقد حصلتُ على شعورٍ بالرضا التام عندما ظهر على وجه كاشيواغي الذي رأى ذلك، إحساسٌ يقترب من الرعب. ثم قلت:

«ألا تأتيَ لزيارة غرفتي؟»

«ما هذا؟ لا تُخِفْني. أنت إنسان غريب!»

... وأخيرًا جلس كاشيواغي على الوسادة التي قدَّمتُها له، جِلسة جانبية ببطء بعد حركة الجثو المعتادة. رفع رأسه وألقى نظرةً فاحصة على الغرفة. كان صوت المطر خارج باب الغرفة يغلق المكان وكأنه عباءةٌ سميكة. وترتطم من وقتٍ لآخر، قطرات مطر، من الرزاز المتناثر الذي يصطدم بالشرفة المفتوحة، في الباب الورقي هنا وهناك.

«حسنًا، لا تحقد عليَّ. فأنت الذي أرغمتني في النهاية على اتخاذِ هذه الوسيلة، لقد نلتَ جزاء عملك. هذا هو ما حدث.»

قال ذلك وأخرج من جيبه مظروفًا مطبوعًا عليه اسم روكوؤنجي وأخذ يَعُد العملات الورقية. كانت النقود عبارة عن ثلاث ورقات من فئة الألف ين التي يبدو أنها صدرت في بداية هذا العام. قلت له:

«ألا ترى أن عملات المكان هنا نظيفةٌ وجديدة؟ فكبير الرهبان مصابٌ بمرض هوس النظافة ويجعل نائبه يذهب إلى البنك مرةً كل ثلاثة أيام ويبدل كلَّ النقود.»

«انظر، إنها ثلاث ورقات فقط. ماذا عن بخل كبير رهبان معبدك؟ فهو لا يعترف بوجود فوائد في القروض التي بين الطلبة بعضهم بعضًا. رغم أنه يكسب الكثير من المال.»

استمتعتُ من كل قلبي بفقدان الأمل غير المتوقَّع هذا من كاشيواغي.

ضحكتُ بلا أي مراعاة لكاشيواغي وهو أيضًا شاركني الضحك. ولكن التصالح هذا كان للحظة زمن، بعدها أنهى كاشيواغي ضحكاته، وقال وهو ينظر إلى جبهتي، وكأنه ينفصل عني:

«أنا أفهم الأمر. أنت في الفترة الأخيرة تخطِّط لعملٍ مدمِّر.»

كنت أعاني تحمُّلَ ثقلِ نظراته. ولكن عندما فكَّرتُ أن العمل المدمِّر على طريقته في الفهم، يبتعد تمامًا عمَّا أهدفُ أنا إليه، عاد إليَّ هدوئي. ولم أتلعثم في ردي بتاتًا.

«لا ... لا شيء مطلقًا.»

«حقًّا. أنت شخصٌ غريب فعلًا. أغرب شخص قابلته حتى الآن.»

عرفتُ أن تلك الكلمة موجَّهة إلى الابتسامة الأليفة التي لا تختفي من حواف فمي، ولكن معنى الامتنان الذي يفور من داخلي، التوقُّع المؤكد أنه لن يلاحظه كاشيواغي مطلقًا، جعل ابتسامتي تمتد امتدادًا تلقائيًّا وطبيعيًّا. سألته السؤال التالي بعلاقة الصداقة السطحية المعتاد في المجتمع:

«هل ستعود إلى بلدتك؟»

«نعم ... أنوي العودة غدًا. الصيف في مدينة سانوميا! إنها مكانٌ آخر ممل ...»

«إذًا لن نتقابل في الجامعة فترةً طويلة.»

«ماذا؟ إنك تقول ذلك مع أنك لا تأتي تقريبًا.»

قال كاشيواغي ذلك، ثم فتح بتسرُّع زرَّ صدر الزي المدرسي وعبث بأصابعه في الجيب الداخلي، ثم قال:

«... قبل أن أعودَ إلى قريتي، فكرتُ في إسعادك فجئتُ إليك بهذه. فأنت كنت تقدِّر ذلك الشخص بإفراط كبير.»

ثم رمى أربعة أو خمسة خطابات فوق مكتبي. وعندما نظرتُ إلى المرسِل وفوجئت، قال كاشيواغي ما يلي بطريقة عابرة:

«اقرأها؛ فهي شيء من رائحة تسوروكاوا.»

«هل كنت على علاقة طيبة مع تسوروكاوا؟»

«نوعًا. نعم علاقة طيبة بطريقتي الخاصة. ولكنه أثناء حياته، كان يكره بشدة أن يظهر كصديق لي. ومع ذلك فهو قد باح إليَّ أنا فقط. لقد مرَّت ثلاث سنوات على موته، فلا بأس من أن يراها أحدٌ غيري. وخاصة أنك كنت صديقًا حميمًا له، كنتُ أنوي أن أطلعك أنت فقط عليها في وقتٍ ما.»

كان تاريخ الخطابات جميعها قبل موته مباشرة. شهر مايو من عام ١٩٤٧، كان يرسل كلَّ يوم تقريبًا خطابًا من طوكيو إلى كاشيواغي. إنه لم يرسل إليَّ خطابًا واحدًا، ولكن عند النظر إلى هذه الخطابات نجد أنه من اليوم التالي لعودته إلى طوكيو كان يكتب كلَّ يوم خطابًا ويرسله إلى كاشيواغي. كان خط الخطابات بلا أي ريب أو شك خطَّ يدِ تسوروكاوا الطفولي المربَّع الزوايا. احتواني حقدٌ خفيف. كان تسوروكاوا الذي لم يكذب أمامي بواحدة من المشاعر الشفافة، وأحيانًا ما يبدي رأيه في أعمال كاشيواغي السيئة، كان وهو ينتقد علاقتي الجيدة معه، في نفس الوقت يخفي بِجِدية هذه العلاقة السرية لهذه الدرجة مع كاشيواغي.

قرأتُ تلك الرسائل ذات الخط الرفيع المكتوب على ورقٍّ مسطَّر حسب تاريخ إرسالها. كانت الجُمل في منتهى الرداءة بدرجةٍ لا يمكن ضرب مثال لها، والأفكار تتوقَّف في كل مكان، ولم يكن من السهل قراءتها، ولكن من خلفية الجُمل السابقة واللاحقة تبرُز معاناة غامضة، وعند قراءة الرسالة بالتاريخ التالي ظهرت لي بوضوح وجِدَّة معاناة تسوروكاوا. ومع استمراري في القراءة بكيت. ومع بكائي، ذُهلت من معاناة تسوروكاوا التافهة.

فلم يَزِدِ الأمر عن حادثة حبٍّ من النوع المنتشر في كل مكان وزمان. لم يَزِد عن علاقة حبٍّ تعيسة لا يقبل بها المجتمع بسبب رفض أبويه للطرف الآخر. ولكنَّ تسوروكاوا نفسَه كاتب تلك الرسائل ربما بسبب المبالغة في المشاعر التي هجمت عليه دون أن يدريَ، كتب الجملة التالية التي أصابتني بالذهول:

«عندما أفكِّر في الأمر الآن، أرى أن هذا الحب التعيس أيضًا كان من أجل قلبي التعيس. فأنا قد وُلدت بقلبٍ مظلم كئيب. وأعتقد أن قلبي لم يعرف في أيِّ وقت مشاعرَ الإشراق الرحبة.»

في آخرِ جملة من آخرِ رسالة قرأتُها، ولأنها كانت متقطعة بعنف، لأول مرة بدأتْ تستيقظ داخلي شبهةٌ لم أكن أتخيَّلها حتى تلك اللحظة ولا في الأحلام.

«ربما كان ...»

بدأتُ في قول ذلك، فأومأ كاشيواغي موافقًا.

«نعم هو كذلك. لقد كان انتحارًا. أنا كذلك لا يبدو لي الأمر إلا أنه انتحار. وأهله اخترعوا حكايةَ عربة النقل ليحافظوا على سُمعتهم أمام المجتمع.»

ألححتُ في طلبِ الرد من كاشيواغي وأنا أتلعثم من الغضب:

«أكيد كتبت له ردودًا على رسائله، أليس كذلك؟»

«كتبت. ولكن وصلت بعد موته على ما سمِعت.»

«ماذا كتبت؟»

«كتبت له إياك أن تنتحر. هذا فقط.»

سكتُّ أنا عن الكلام.

فقد كان تأكُّدي الذي يقول إن مشاعري تسخر مني بلا طائل. ثم أجهز كاشيواغي عليَّ بالطعنة الأخيرة.

«ماذا حدث لك. هل تغيَّرت نظرتك للعالم بعد قراءتك تلك الرسائل؟ ألم تتحطَّم جميع خططك الآن؟»

كانت خطة كاشيواغي في أن يريني تلك الرسائل بعد ثلاث سنوات واضحةَ المعنى والهدف تمامًا. ولكن مع استقبالي لهذه الصدمة، لم تَنمَحِ من ذاكرتي صورةُ أشعة الشمس الصباحية المتسربة من بين الأشجار التي تتناثر كنقاطٍ صغيرة فوق قميصٍ أبيضَ، لفتًى ينام وسط الأعشاب النابتة في الصيف. مات تسوروكاوا، وبعد موته بثلاث سنوات تغيَّر حاله هكذا، ومع أنه كان يعتقد أن الشيء الذي استودعه قد اختفى مع موته، عاد إلى الحياة

ثانيةً في هذه اللحظة على العكس من خلالِ حقيقةٍ واقعية أخرى. وصلتُ أنا إلى الإيمان بحقيقة الذاكرة الفعلية أكثرَ من معنى الذاكرة ذاتها. لقد آمنتُ بذلك في وضعٍ يقول إن عدم الإيمان به على الأرجح سيجعل الحياةَ نفسَها تنهار. ولكن كاشيواغي وهو ينظر إليَّ من علٍ، كانت يداه على العكس تمتلئ وتفيض بالقتل القلبي.

«ما رأيك؟ ألم يَنْهَر شيءٌ ما بداخلك؟ فأنا لا أستطيع رؤيةَ صديق يعيش وهو يحمل داخله شيئًا سهلَ الكسر. ومن طيبتي أن أظل أكسر ذلك الشيء.»

«إذا لم يكن قد انكسر بعدُ، ماذا أنت فاعل؟»

«لا تكن كالأطفال، وتمتنع عن الإقرار بالهزيمة.»

ثم ضحِك كاشيواغي ساخرًا وأضاف:

«لقد كنتُ أريد إخبارك. أن الوعي هو الذي يغيِّر هذا العالم. هل تسمع؟ ما من شيء آخر يغيِّر هذا العالم. الوعي فقط، هو الذي يجعل هذا العالم الثابت يتغيَّر، يتغيَّر وهو ثابت كما هو. إذا نظرنا من وجهة نظر الوعي، فالعالم غير متغير تغيُّرًا أبديًّا، ثم يتغيَّر باستمرار إلى الأبد. ربما تقول أنت وماذا يفيد ذلك؟ ولكن لنقُل إن الإنسان حمل سلاح الوعي من أجل احتمال هذه الحياة. وهذا الشيء لا ضرورةَ له لدى الحيوانات. فليس لدى الحيوانات أيُّ إدراك لمسألة تحمُّل الحياة. فالوعي جعل صعوبةَ تحمُّل الحياة كما هي سلاحًا للإنسان، ولكن مع ذلك لا يمكن تقليلُ صعوبة التحمُّل تلك ولو قليلًا. هذا هو مبلغُ الأمر.»

«ألا تعتقد أن ثمَّة طريقةً أخرى لتحمُّل الحياة؟»

«نعم. ليس إلا الجنون أو الموت.»

«الذي يغيِّر العالم ليس الوعي مطلقًا.»

رددتُ بهذا دون وعي وأنا على وشْك الوقوع في خطر الاعتراف.

«الفعل هو الذي يغيِّر العالم. ما من شيء إلا الفعل فقط.»

في النهاية تقبَّل كاشيواغي ما أقوله بتلك الابتسامة الباردة التي تبدو ملتصقةً على فمه.

«انظر لقد عاد إلى القول نفسه! عاد يقول الفعل! ولكن الشيء الجميل الذي تحبُّه أنت، ألا تعتقد أنه يستمتع بشَرَهِ النوم وهو في حماية الوعي؟ إنها هرة قصة «ذبح الراهب نانسن هرة» التي تحدَّثت عنها في وقتٍ ما من قبل. تلك الهرة التي لها جَمالٌ لا يمكن إعطاء مثال له. فصراع الجانبين من الرهبان، هو من أجل حماية الهرة التي في الوعي

الذي يحمله كلٌّ منهما، وتربيتها، ولأنهما يريدان جعلها تنام بارتياح. حسنًا ولأن الراهب نانسن كان هو الفاعل، فلقد قطع رأس الهرة ورماها. والراهب تشوشو الذي جاء بعد ذلك، وضع حذاءه فوق رأسه. لقد كان الراهب تشوشو يريد قولَ ما يلي: هو بالطبع كان يعرف أن الجَمال يجب حمايته بالوعي وجعله ينام. ولكن ما من شيء يسمَّى وعيَ كلٍّ فرد على حدة، أو وعيًا منفردًا. فالوعي هو بحر الإنسان، وهو سهول ومراعي البشر، إنه وضْع الوجود العام للبشر. أنا أعتقد أن الراهب كان يحاول قول ذلك. هل أنت الآن تحاول أن تتقمَّص دورَ نانسن؟ … إن الشيء الجَمالي، الشيء الجَمالي الذي تعشقه أنت، هو الجزء الباقي داخل نفس الإنسان الذي تم توكيله من الوعي، الجزء الوهمي المتبقي منه. إن ما تقوله أنت عن «طريقة أخرى لتحمُّل الحياة» وهمٌ. ويمكن القول إن هذا الشيء لا وجودَ له من الأصل. يمكن قولُ ذلك، ولكن كما المتوقَّع الذي يعطي قوة كبيرة لهذا الوهم ويمنحه طبيعةً واقعية بأقصى حدٍّ من الاستطاعة: هو الوعي. من خلال الوعي لا يكون الجَمال سلوانًا على الإطلاق. ربما يكون امرأة أو يكون زوجة ولكن لن يكون سلوانًا. ولكن هذا الشيء الجَمالي الذي لم يكن مطلقًا سلوانًا، يُولَد من زواجه بالوعي شيءٌ ما. شيء عديم الفائدة تمامًا مثل الرغوة التي لا تحقِّق شيئًا، ولكن على الأقل يُولَد شيء. وذلك الشيء هو ما يُطلِق عليه المجتمع: الفنون.»

«الجَمال …»

بعد أن بدأت بهذا القول تلعثمتُ بشدة. في ذلك الوقت، خطر على ذهني شكٌّ في أن يكون تلعثمي شيئًا وُلد من فكرة الجَمال. وهي على أي حال، فكرةٌ ليس لها نتيجة ولا نهاية.

«الجَمال … أي شيء ينتمي إلى الجَمال هو بالفعل عدوي اللدود.»

«تقصد أن الجَمال عدوٌّ لدود؟»

… فتح كاشيواغي عينيه على اتساعهما بمبالغة. عاد إلى الحياة مرةً أخرى الانتعاش الفلسفي المعتاد على وجهه الذي اصطبغ بلون الدم.

«يا لها من كلمة غريبة، عندما أسمعها تخرج من فمك أنت. يجب عليَّ أنا أيضًا أن أعدِّل درجة عدسة إدراكي للأمور.»

… وظللنا بعد ذلك أيضًا، نتجادل جدالًا أليفًا بعد غياب مدة طويلة. ولم يتوقف هطول الأمطار. وفي طريق العودة، حدَّثني كاشيواغي عن حي سانوميا وميناء كوبيه اللذين لم أتعرَّفهما بعدُ، وحكى لي عن السفن العملاقة التي تغادر الميناء في الصيف وغير

ذلك من حكايات. وتيقَّظت على ذكريات مايزورو. ولأول مرة نرى اتفاقَ آراء طالبَين فقيرين، في وهم أن أي إدراك أو فعل لا يمكن أن تعادل فرحة إبحار السفينة من الميناء.

الفصل التاسع

كان كبير الرهبان دائمًا بدلًا من أن يقوم بإعطائي موعظة، وفي الوضع الذي من الواضح جدًّا أنه يجب أن يقوم فيه بإعطائي موعظة، على العكس يأتي ويمنحني بَركة، وعلى الأرجح لم يكن ذلك من قبيل الصدفة، بعد خمسة أيام من مجيء كاشيواغي لأخذ المال، استدعاني كبير الرهبان وأعطاني في يدي مبلغ ٣٤٠٠ ين قيمة مصاريف دروس الفصل الأول، و٣٥٠ ينًّا قيمة مصاريف القطار للتردد على الجامعة، و٥٥٠ ينًّا لمصاريف شراء الأدوات الدراسية. كانت قواعد المدرسة تنص على تسديد مصاريف الدراسة قبل العطلة الصيفية، ولكن بعد أن حدث ما حدث، لم أكن أتوقَّع أو أتخيَّل أن كبير الرهبان سيعطيني ذلك المال. وحتى لو كان يرغب في تغطية تكاليف الدراسة، فبعد أن عرف أنني لست جديرًا بالثقة؛ لذا كنت أعتقد أنه سيرسل ذلك المال إلى المدرسة مباشرةً من خلال حوالة بريدية.

لقد كنتُ أعرف جيدًا ربما أكثر منه، أن ثقته بي مزيفة، رغم إعطائه المال لي بهذه الطريقة. ففي البَركة التي يمنحها إياي كبير الرهبان صامتًا، ما يشبه لحمه الوردي الطري. ذلك اللحم المفعم بالأكاذيب، ذلك اللحم الذي يقابل الثقة بالخيانة، ويقابل الخيانة بالثقة. اللحم الذي يتكاثر خفيةً بلون وردي ساخن وإن لم يصِبه أيُّ نوع من أنواع الفساد.

في الوقت الذي جاء فيه الشرطي إلى نُزل يورا، وكأنني فجأةً أخاف أن يُكتشف الأمر، فكنتُ أشعر مرةً أخرى، بخوفٍ يقترب من الوهم محتواه هو ألا يكون كبير الرهبان قد كشف خطتي، وهو لذلك يعطيني المال لكي يبعد عني أيَّ فرصة لتنفيذها؟ فقد كنتُ أشعر أثناء حملي لذلك المال بحرص بالغ، أن شجاعة التنفيذ تنقصني. ولذا يجب عليَّ بأي طريقة كانت إيجاد سبيل، لإنفاق ذلك المال بأسرع وقت، واليوم قبل غدٍ. إن الفقير بصفة خاصة لا تأتيه بسهولة أفكارٌ جيدة لإنفاق المال. يجب عليَّ إيجاد تلك الطريقة التي

عندما يعرفها كبير الرهبان لا يحتمل اندفاع غضبه العنيف، ثم لا يصبر على طردي في التو والحال وإبعادي عن المعبد.

تلك الليلة كان دوري في تولية مسئولية الطبخ. وبعد وجبة العشاء، وبينما كنتُ أغسل الصحون الصغيرة في المطبخ كنت أنظر شاردًا إلى قاعة الطعام التي أصبحت خاليةً بالفعل. عند العامود الذي يقع في آخر المطبخ ويشع شعاعًا أسودَ بسبب السُّخام، ثمَّة بطاقة قدُمَت لدرجة أن لونها تغيَّر.

تميمة حامية معبد أتاغو

«احترسوا من الحرائق»

... رأيت في خيالي النارَ وقد شحب لونُها بعد أن أحاطتها تلك التميمة ومسكت بها. وبدا لي أن ما كان مزدهرًا في الماضي، خلف تميمة الحماية تلك، صار ضعيفًا مريضًا ذا لون أبيض شاحب. هل يا تُرى يصدِّقني أحد إذا قلت إنني في الآونة الأخيرة صرت أشعر بالرغبة الجسدية في شبح النار؟ إذا كانت كل رغباتي في الحياة تعتمد على النار، أليس من الطبيعي أن تتجه رغبتي الجسدية تجاهها أيضًا؟ ثم تصنع تلك الرغبة الجسدية شكلًا طريًّا من هيئة تلك النار ويقوم اللهب باستشفاف العمود الذي يطلق شعاعًا أسودَ، ويدرك أنني أنظر إليه فيُهنِدِم نفسه بحنان. لقد كانت تلك اليد وتلك القدم وذلك الصدر جميعًا في غاية الضَّعف.

وضعتُ الأموال في جيبي ليلة ١٨ يونيو وخرجت متسللًا من المعبد. وذهبت إلى حي كيتاشينتشي الذي يُعرف في العادة باسم الحي الخامس. لقد سمِعت أن المحلات في ذلك الحي أسعارها رخيصة وأنهم يعاملون رهبان المعبد بلطفٍ وأريحية. يقع الحي الخامس على مسافةٍ تبعُد من معبد روكوؤنجي قرابة ثلاثين أو أربعين دقيقة سيرًا على الأقدام.

كانت ليلة ازدادت فيها درجة الرطوبة، ولكن كان القمر يظهر ضبابيًّا في سماءٍ خفيفة الغيوم. كنتُ ألبس سروالًا كاكيَّ اللون، وأرتدي معطفًا، وفي قدمي قبقاب خشبي. على الأرجح بعد بضع ساعات، سأعود مرتديًا الأشياء نفسها مرةً أخرى. ولكن كنت قد أقنعت نفسي إلى حدٍّ ما أن لديَّ توقعًا أنَّ مَن في داخل تلك الملابس سيكون شخصًا مختلفًا تمامًا.

لقد كنت بالتأكيد أفكِّر في حرق المعبد الذهبي من أجل أن أستطيع أنا الحياة، ولكن كان ما أفعله يشبه استعدادات الموت. مثلما يذهب الرجل البتول الذي قرَّر الانتحار إلى

المواخير، فأنا كذلك أذهب إلى نفس الحي. من الأفضل أن أطمئن. فهذا الفعل من الرجل يشبه التوقيعَ على نموذج ورقة رسمية، فلن يصير ذلك الشخص «إنسانًا آخرَ» على الإطلاق بفقد عذريته. لا يجب الخوف هذه المرة، من حالات الفشل السابقة، ذلك الفشل الذي كان المعبد الذهبي يقف حائلًا بيني وبين المرأة. وذلك لأنني هذه المرة لا أرى أحلامًا، ولم أحاول مطلقًا أن أشارك في الحياة من خلال المرأة. فحياتي تقرَّرت بالفعل في ذلك النداء الذي يأتي من بعيد، وتجاربي حتى ذلك الحين لا تزيد عن مجرد إجراءات بشعة ومرعبة فقط.

... كنت أقول وأردِّد ذلك لنفسي. وعندها عادت إلى أذني كلمات كاشيواغي.

«المرأةُ المحترفة لا تحب الزبونَ ولا تختاره. فحتى لو كان الزبون عجوزًا أو شحاذًا، أو ضريرًا، أو وسيمًا، أو حتى لو كان مريضًا بالجذام وهي لا تعلم، فهي تستقبله زبونًا. الإنسان العادي يطمئن تجاه هذه المساواة في التعامل، ويشتري أول امرأة في حياته. ولكن أنا لم أتقبَّل تلك المساواة. فلم أستطِع الصبر وتحمُّل أنها تستقبل رجلًا كاملَ القدرات وتستقبلني أنا بنفس الشروط، وكان ذلك يمثِّل لي مهانة وازدراءً ذاتيًّا مخيفًا.»

كانت تلك الكلمات التي تذكَّرتها، غير مريحة لي في وضعي الحالي. ولكنني أختلف قليلًا عن كاشيواغي، فبغض النظر عن التلعثم، أنا جسمي ليس به إعاقة، ويمكنني الإيمان بأن قُبحي في مستوًى عاديٍّ جدًّا.

«... ولكن رغم ذلك القول، هل يا تُرى لا تقرأ المرأة من خلال حاستها المباشرة ما يشبه علامةَ مجرم عبقري فوق جبهتي القبيحة؟»

هكذا حملتُ داخلي قلقًا لا يمكن تمييزه عن الغباء.

لم تَعُد قدماي تجِدَّان في السعي. وبعد قتل الفكرة بحثًا في عقلي، لم أفهم هل أنا أحاول التخلي عن عذريَّتي من أجل حرق المعبد الذهبي، أم أنا أحاول حرق المعبد الذهبي من أجل التخلص من عذريتي؟ وفي ذلك الوقت، طفَت على قلبي بلا معنى كلمةِ «قدَر السماء صعبُ المسير» النبيلةِ، وأخذتُ أردِّد هامسًا وأنا أمشي: «قدَر السماء صعبُ المسير، قدَر السماء صعبُ المسير، قدَر السماء صعبُ المسير.»

وأثناء فعلي ذلك، بدأت تظهر لي من بعيد محلات القمار والبارات التي تصل فيها الضوضاء إلى منتهاها، وتتراص مصابيح الضوء البيضاء وكذلك إضاءات النيون الكثيرة، بقواعدَ صارمة في وسط الظلام.

كنتُ منذ خروجي من المعبد أسيرَ وهم أن يويكو ما زالت حية تعيش في مخبأ بذلك الحي. أعطاني ذلك الوهم قوة.

كان تفكيري منذ أن أخذت قرار حرق المعبد الذهبي، ولأنني كنتُ مرةً أخرى في حالة براءة جديدة تشبه تلك التي كنتها في فترة صباي، أنني من المفترض أن أقابل مرةً ثانية الأشخاصَ والأشياء التي قابلتها في بداية حياتي.

مع أنه من المفترض أنني سأحيا من الآن فصاعدًا، إلا أن الأمر العجيب، أنه زادت شدة أفكار التشاؤم مع مرور الأيام، وكنتُ أعتقد أن الموت على مقربة مني وكأنه سيزورني غدًا، وكنت أصلي وأدعو أن يتغافل الموت عني ويتركني حتى أقوم بحرق المعبد الذهبي. ليس معنى هذا أنني مريض، مطلقًا، ما من بوادر حتى للمرض. ولكن يومًا بعد يوم صرت أشعر بقوة أن مسئولية وترتيب العناصر المختلفة التي تجعلني أعيش، تضع كلَّ ثقلها على كتفي وحدي.

أمسِ أثناء التنظيف، جُرِح أصبع السبابة بسبب خُطَّاف المقشة، وحتى ذلك الجُرح البالغ الصِّغر صار مدعاةً للقلق والخوف. وتذكَّرت ذلك الشاعر الذي كان سبب موته جَرْحَ أنامله بشوك الورد. لا يموت الإنسان العادي الطبيعي بسببٍ كهذا. ولكن لأنني صرُت بالفعل شخصًا ذا قيمة كبرى، لا أدري طريقةَ الموت التي أعدَّها القدرُ لي. ولحسن الحظ لم يسبِّب جرحُ الأصبع قيحًا، وصار اليوم لا يزيد عن مجرد إحساس بسيط بالألم إذا ضغطتُ عليه.

وبالطبع لا داعيَ لذكر إلى أي مدًى أخذتُ الاحتياطات الطبية اللازمة وأنا في سبيلي للذهاب تجاه الحي الخامس. ففي اليوم السابق ذهبتُ إلى صيدلية بعيدة لا يعرفني فيها أحد، واشتريت منها عازلًا مطاطيًّا. وكان ذلك الغشاء الذي يبدو كمسحوق غيرَ صحيٍّ ولا يُعتمد عليه مطلقًا. في ليلة أمس قمتُ بتجربة واحد منها. ففي وسط لوحة بوذا التي رسمتُها لاهيًا بقلم شمع أحمر، والتقويم السنوي الذي تقوم بإصداره هيئة السياحة في مدينة كيوتو، وكتاب السوترا الذي كان مفتوحًا بالضبط عند فصل داراني بوتشوسونشو، وجواربي المتسخة، وحصير تاتامي تكثر به الشقوق ... وسط تلك الأشياء جميعًا، يقف شيء في لون رمادي سلس، مثل تمثال بوذا مشئوم لا عين له ولا أنف. جعلتني تلك الهيئة المزعجة، أتذكَّر ذلك الفعل الوحشي الذي يُدعى راستسو[1] الذي يبقى فقط حاليًّا كأسطورة محكية.

حسنًا، دخلتُ حارةً جانبية تتراص بها القناديل المعلَّقة.

[1] الراستسو هو عملية الإخصاء في الديانة البوذية من أجل السيطرة على الرغبة الجنسية. (المترجم)

يتكوَّن الحي من مائة وبضع عشرات من المنازل تأخذ جميعها نفس الشكل والتصميم. يقال إن أي هارب من العدالة يمكنه الاختفاء هنا بسهولة لو اعتمد على زعيم المنطقة. ويقال كذلك إن الزعيم لديه جرس، إذا دقَّه يتردَّد صداه في كل بيت من بيوت حي الدعارة، ليُعرِّف الزوار بوجود خطر يهدِّدهم.

وفي كل بيت نافذةٌ مظلمة مزوَّدة بشُباك على جانبٍ من المدخل، وكل بيت مكوَّن من طابقين. وتتراصُّ الأسقف ذات القرميد الثقيل العتيق، بنفس الارتفاع تحت القمر الرطب. وفي كل مدخل ستارة من قماش بلون أزرق غامق مكتوبة عليها بصبغة بيضاء كلمة «نيشيجين»، وتميل قوادة ترتدي ملابس مريول مطبخ بجسدها، لتراقب مدخل البيت من حافة الستارة.

لم يكن لدي أيُّ قدْرٍ من التفكير في المتعة. كان شعوري كأنني تم استبعادي من نظامٍ كونيٍّ ما، وصرفي عن الصف بمفردي، وأنا أجرُّ قدميَّ المرهقتين، وأحس أنني أسيرُ عليها في منطقة معزولة. كانت الشهوة داخلي تدير لي ظهرها ممتعضة، وتجلس منحنية حاضنة ركبتيها.

«على أي حال إن واجبي الآن هو صرف المال هنا»، ظللت أفكر في ذلك قائلًا لنفسي «يكفي صرفُ كل أموال الدراسة هنا بأي طريقة كانت. وبفعل ذلك أكون قد أعطيتُ كبيرَ الرهبان سببًا منطقيًّا بالغَ القوة لطردي من المعبد».

كنتُ على هذه الحال لا ألاحظ أيَّ تناقض غريب في تلك الفكرة، ولكن إذا كانت تلك هي رغبتي الحقيقية، فمن المفترض أنني من المحتم أن أكون محبًّا لكبير الرهبان.

كان المارة في هذا الحي بالذات قليلين بدرجة غريبة، ربما بسبب أن الوقت ليس وقت الذُّروة. وكان صوت قبقابي الخشبي يتردَّد صداه بدرجة فاضحة. صوت الاستدعاء الرتيب الممل الضعيف للقوادين، يُسمع وكأنه يدور زاحفًا داخل هواء فصل الأمطار المتدلي والمنخفض في رطوبة. وتمسك أصابعُ قدميَّ بشدة بأصبع القبقاب المرتخي قليلًا. ثم فكَّرت كما يلي: من المؤكَّد أن أنوار هذا الحي كانت وسط الأنوار العديدة التي تأمَّلتها بعد نهاية الحرب من فوق قمة جبل المعبد.

ويُفترض وجود يويكو في المكان الذي ستقودني قدماي إليه. ثمَّة محلٌّ اسمه «أوتاكي» في ركن من أركان تقاطع أربع طرق. اخترقتُ ستارة ذلك المحل عشوائيًّا وبلا تفكير. فوجدت مباشرةً غرفةً تبلغ مساحتُها قرابة عشرة أمتار مربَّعة مفروشة بالبلاط، وفي العمق تجلس ثلاث بنات على أريكة، يجلسن وكأنهن قد تعِبن من الانتظار الطويل لقطارٍ لا يأتي. كانت

إحداهن بملابس يابانية، وتلفُّ ضمادةً على عنقها. إحدى اللائي يرتدين ملابسَ غربية كانت محنية الرأس، ومن وقتٍ لآخر تخفِض جَوربها لأسفل لكي تحكَّ رَبْلَة ساقها. كانت يويكو غائبة. ولكن عدم وجودها ذلك، جعلني أشعر بالطمأنينة.

رفعت الفتاة التي كانت تحكُّ ساقها، وجهَها مثل كلبٍ ناداه صاحبه. بدا ذلك الوجه المستدير متورمًا قليلًا وبه مسحوق الوجه الأبيض، وأحمر الشفاه بدرجة مكتملة، ولكنَّ نظرتها عاليًا تجاهي — مع أنها طريقة وصف غريبة — كانت في الواقع بها براءة مثل لوحةٍ زاهية الألوان لوجه طفل. نظرت الفتاة تجاهي وكأنها تنظر إلى شخصٍ لا تعرفه بعد اصطدامهما في ركن من الطريق. لم تتعرَّف تلك العيون مطلقًا الرغبةَ التي بداخلي.

ما دامت يويكو غائبة فأي واحدة غيرها ستؤدي الغرض. فقد ظلَّت في داخلي الخرافة التي تقول إنه إذا اخترتُ وتأمَّلت خيرًا، فسيؤدي ذلك إلى الفشل. وبما أن الفتاة ليس لديها حرية اختيار الزبون، فمن الأفضل لي ألا أختار أنا الفتاة. يجب ألا أسمح ولو بجزء ضئيل للغاية بتدخُّل فكرة الجَمال المرعبة تلك التي تجعل الإنسان بلا أي قوة معنوية.

سألتني القوادة:

«أي فتاة ستختار؟»

أشرتُ إلى الفتاة التي تحكُّ قدمَها. كانت الحكَّة التي وصلت إلى قدمِ تلك الفتاة وقتها — وهي على الأرجح من أثر قرص بعوضة الزاعجة المنتشرة هنا وهناك على سطح البلاط — هي الصلة التي ربطت بيني وبينها. بفضل تلك الحكَّة، ستحصل تلك الفتاة على حق أن تكون شاهدي فيما بعدُ.

قامت الفتاة وجاءت إلى جواري، وضحكتْ بجعل شفتيها ترتفعان لأعلى، ولمست قليلًا ذراع معطفي.

أثناء صعود درجات سُلَّم مظلم قديم يقود إلى الطابق الثاني، فكَّرت ثانية في أمرِ يويكو. فكَّرت أنها غابت خصوصًا في هذه الساعة نوعًا ما، غابت عن العالم في هذه الساعة. ما دامت غائبة عن هذا المكان الآن، فلا شك أنك إذا بحثت عن يويكو في أي مكان فلن تجدها. يبدو أنها خرجت للاستحمام في حمَّامٍ ما أو مكانٍ ما خارج إطار عالَمنا هذا.

أظن أنا أن يويكو حتى قبل ميلادها تدخل وتخرج بحريةٍ كبيرة ذلك العالَم المزدوج. وحتى في وقت تلك الحادثة المأسوية، اعتقدتُ أنها سترفض هذا العالَم، إلا أنها قبِلته في المرة التالية. ربما كان الموت أيضًا عبارة عن حادث مؤقَّت بالنسبة ليويكو. ربما لا يزيد

الدم الذي تركته على جسر معبد كونغوين، عن مجرد أنه مثل دقيق فراشة تتركه على إطار النافذة عندما ترحل طائرة في نفس وقت فتح النافذة في الصباح.

في منتصف الطابق الثاني، مكانٌ يحوم حول درابزين شفاف منحوت قديم للجزء المكشوف المُطل على الحديقة الداخلية، وثمَّة عود نشر غسيل معلَّق عليه قميصٌ داخلي حريمي أحمر وسروال داخلي، ومنامات معلَّقة بين إفريز هذا المبنى وإفريز المبنى المجاور. كان المكان مظلمًا في أغلبه، وبدا لي شكل المنامة ضبابيًّا كأنه إنسان.

تغنِّي فتاةٌ في إحدى الغرف. استمرَّت أغنية الفتاة في انسياب سلس، وأحيانًا يرافقها صوتُ غناء ذكوري في حالة نشاز عن اللحن. انقطعت الأغنية، وبعد فترة صمت، ضحِكت الفتاة ضحكةً مدوية وكأنها قرقعة صوت انقطاع خيط.

«إنها فلانة.»

قالت فتاتي العاهرة ذلك للقوادة.

«دائمًا، هي دائمًا على هذا الحال.»

قالت القوادة ذلك وهي تولِّي بعناد ظهرَها المربَّع ناحيةَ مصدر صوت الضحك. كانت الغرفة الصغيرة التي أُرشدتُ إليها، عبارة عن غرفة كئيبة بمساحة خمسة أمتار مربَّعة، وثمَّة حوضٌ للغسل بديلًا عن مكان الزينة، وتمثال للإله هوتيه وللقط الداعي بعشوائية. ومُلصَقٌ على الحائط قِطَعٌ ورقية رفيعة بها بعضُ المذكرات ومعلَّق بها تقويم. ويتدلَّى من السقف مصباح مظلم بقدرة ثلاثين أو أربعين شمعة. ويتردَّد من النافذة المفتوحة على مصراعيها، من حين لآخر صدى أصوات أقدام زبائن حي الدعارة.

سألتني القوادة هل سأقضي ساعة فقط أم سأبيت. كانت الساعة سعرها أربعمائة ين. ثم بعد ذلك طلبت ساكي ومَزَّة.

نزلت القوادة إلى الطابق السفلي لكي تُحضِر تلك الطلبات، ولكن لم تأتِ الفتاة بالقرب مني. اقتربت بعد أن حثَّتها على ذلك القوادةُ التي عادت حاملةً الساكي. عندما نظرتُ إليها من قرب، كانت الفتاة مصابةً أسفل أنفها بخدوش، ولونها أحمر إلى حدٍّ ما. ويبدو أن تلك الفتاة لديها عادةٌ مزمنة في حكِّ وخدش جسدها هنا وهناك، وليس ساقيها فحسب للتخلُّص من الملل. ولكن ربما كان ذلك الاحمرار الخفيف الذي أسفل الأنف، سببُه أن أحمر الشفاه قد انحرف قليلًا لأعلى.

لا يجب الشك في إجراء كل هذه المشاهدات والفحوصات في تفاصيل المكان؛ فهذه هي المرة الأولى منذ ميلادي التي آتي فيها إلى ماخور. فقد كنت أحاول البحث عن دليل الإمتاع

فيما تستطيع عيني رؤيته من أشياء. أتأمَّل كلَّ شيء بدقة وبكلِّ ما يمكن من نقاء مثل تأمُّلي اللوحات المحفورة على النحاس، بل وكأنها ملصوقة على مسافة ثابتة أمام عينيَّ.

«لقد رأيتك يا سيدي من قبلُ.»

قالت الفتاة ذلك بعد أن ذكرت أن اسمها ماريكو.

«إنها أول مرة لي.»

«حقًّا؟ هل هذه أول مرة لك في مكانٍ كهذا؟»

«نعم إنها أول مرة لي.»

«يبدو أنه كذلك فعلًا. فيَدُكِ ترتعش.»

بعد أن قالت الفتاة ذلك انتبهتُ أنا إلى أن يدي التي تمسك بكأس الساكي ترتعش.

قالت القوادة:

«إذا كان الأمر كذلك، فسيكون اليومُ يومَ سعدٍ لِفَرْجك يا ماريكو.»

أجابت ماريكو بوقاحة:

«سنعرف فورًا إن كان هذا صدقًا أم كذبًا.»

ولكن تلك الكلمات لم يكن لها تأثيرٌ حسي، وبدا لي أن قلب ماريكو يلعب في مكانٍ ما لا علاقة له لا بجسدي ولا بجسدها، مثل طفلٍ اندمج في اللعب بمفرده وانفصل عن باقي أصحابه. كانت ماريكو ترتدي قميصًا بلون أخضر فاتح وتنورة صفراء. كانت أظافر أصبع الإبهام فقط من كل يدٍ مصبوغة بلون أحمر، وكأنها صبغتهما بعد أن استعارت الصبغةَ من إحدى زميلاتها واستخدمتها وهي تلهو.

وأخيرًا عندما دخلنا غرفة النوم ذات الخمسة عشر مترًا مربعة، وضعت ماريكو إحدى قدميها على الفراش، وسحبت الحبلَ الطويل المتدلي من المصباح الكهربائي. وبرز الفراش الحريري المزخرف لأعلى تحت أنوار المصباح. كانت غرفة بها ركن عظيم الزينة ومزيَّن به تمثال فرنسي.

خلعتُ أنا ملابسي بطريقة خرقاء. ووضعت ماريكو على كتفها زيَّ يوكاتا ورديَّ اللون مصنوعًا من قماش المناشف، وبمهارة عالية خلعت ملابسها الداخلية الغربية الطراز. بلعتُ لُعابي مع الماء الموضوع بجوار الوسادة. فقالت الفتاة التي سمعت صوت الماء هذا:

«أنت ممن يشربون الماء!»

ثم ولَّت ظهرها إياي وضحِكت. ثم دخلنا الفراش، وحتى وبعد أن جعلنا وجهَينا أحدهما تجاه الآخر نقرت بأصبعها على أرنبة أنفي بخفة وقالت:

«هل حقًّا هذه هي المرة الأولى؟»

ثم ضحِكتْ. حتى في وسط إضاءة المصباح المظلم الذي بجوار الوسادة، لم أنسَ النظر والفحص بعيني؛ لأن النظر هو البرهان على أنني أعيش. ورغم ذلك، فقد كانت تلك هي المرة الأولى لي في رؤية عينَي شخص آخر من هذه المسافة القريبة. لقد انهار المنظور الذي كنت أرى به العالم. فقد اقتحم شخصٌ غريب وجودي بلا خوف، وغرقتُ في طوفان من حرارة جسدها ورائحة عطرها الرخيص بعد أن ارتفع تدريجيًّا سطحهما. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ذوباني في عالَم شخص آخر بهذه الكيفية.

عاملتني الفتاة معاملةَ رجل كامل، كوحدة شاملة مطلقة. لم أتخيَّل قط أن يعاملني أحدٌ بتلك الكيفية. خلعتْ عني رداءَ التلعثم، وخلعتْ عني رداءَ القبح ورداءَ الفقر، حتى بعد خلع ملابسي تكررتْ بهذه الطريقة، عملية الخلع عددًا لا حصرَ له. كنتُ بلا شك قد وصلتُ إلى غاية المتعة، ولكن لم أصدِّق أنني أنا الذي أستمتع بتلك المتعة. استيقظتِ المشاعر التي كانت منفية في مكانٍ بعيد وفارتْ، وأخيرًا انهارت ... على الفور فصلتُ جسدي عنها، ثم ضربتُ على جزءٍ من رأسي الذي أصابه الخَدر وقد وضعتُ جبهتي على الوسادة، ضرباتٍ خفيفة بقبضة يدي. ثم بعد ذلك هجم عليَّ شعور وكأن كل الأشياء تخلَّت عني وتركتني وحيدًا، ولكن ليس لدرجةِ أن تسيل مني الدموع لذلك.

بعد الانتهاء وكحكايات قبل النوم، حدَّثتني الفتاة عن ماضيها وأنها جاءت من مدينة ناغويا. أثناء استماعي لذلك شاردًا كنتُ لا أفكِّر إلا في المعبد الذهبي. كان ذلك عبارة عن أفكار تجريدية، ولم تكن كما كانت دائمًا أفكارًا معكرة بثقل الشَّبق الجسدي.

«تعالَ مرةً ثانية.»

بتلك الكلمة التي قالتها، أحسستُ أن ماريكو تكبُرني بعام أو عامين. لا شكَّ أنها في الواقع كذلك. كان ثدياها أمام عينيَّ مباشرةً ويملؤهما العَرق. مجرد لحم يستحيل أن يغيِّر هيئته إلى شكل المعبد الذهبي. لمستهما بأصابعي في تخوُّف وقلق.

«هل هذا شيء نادر؟»

قالت ماريكو ذلك وهي تلوي جسدها، وأخذت تهزُّ ثديَيها بخفةٍ وهي تنظر إليهما بثبات، وكأنها تلاعب حيوانًا صغيرًا. جعلني اهتزاز ذلك اللحم أتذكَّر شمس الغروب على خليج مايزورو. أعتقد أن سهولة تحرُّك شمس الغروب وسهولة تحرُّك اللحم، اختلطتا داخل قلبي وذابتا معًا. ثم تخيَّلي أن ذلك اللحم الذي أمام عيني ومثل شمس الغروب تمامًا

التي تُلفُّ بعدة طبقات من غيوم الغروب، سيرقد لينام في عمق حفرة قبر الليل، أعطاني راحةً وطمأنينة.

في اليوم التالي ذهبتُ لزيارة نفس الماخور للقاء نفس الفتاة. لم يكن السبب هو بقاء كمية تكفي وتزيد من المال. فلقد كان الفعل في المرة الأولى فقيرًا في متعته وفرحته مقارنةً بما كنت أتخيَّله في ذهني؛ لذا ثمَّة ضرورة لتجربة ذلك مرةً ثانية والاقتراب بقدرِ الإمكان من المتعة والفرحة التي تخيَّلتهما. كان عندي ميلٌ دائمًا أن ينتهيَ الفعل في الحياة اليومية على أرض الواقع، كنموذج مخلص لما أتخيَّله، بخلاف الآخرين. إن التخيُّل ليس عشوائيًّا. بل على العكس يجب القول إنه منبعُ ذاكرتي. لا يمكنني إزالة الإحساس بأنني سبق أن تذوَّقتُ بالفعل طَعم الخبرات المتنوِّعة التي من المقرَّر أن تمرَّ في حياتي فيما بعدُ، تذوُّقًا أكثرَ تألقًا ولمعانًا. حتى بالنسبة لهذا الفعل الجسدي، فلديَّ إحساس أنني استمتعت بالفعل فيما مضى، في مكان وزمان لا يمكنني تذكُّرهما (ربما مع يويكو) بمتعة جسدية أكثرَ عنفًا وأكثر تخديرًا للجسد. كان ذلك هو منبع مُتَع متنوعة، ولم تكن المتعة في الواقع الحقيقي، إلا مجرد غَرفة باليد تعطي مقدارَها من ماء ذلك النبع.

في الواقع أشعر وكأنني رأيتُ في ماضٍ سحيق وفي مكانٍ ما، شفقَ غروب في جَمال رهيب لا يُقارن. هل ذنبي أنا أن الشفق الذي أراه بعد ذلك، يبدو لي بدرجةٍ ما باهتَ اللون؟

ولأن فتاة الأمس عاملتني كإنسان عاديٍّ بهذه الدرجة، ذهبتُ إلى هناك وأنا أضع في جيبي طبعةً شعبية من كتاب قديم كنتُ قد اشتريته من مكتبة للكتب القديمة منذ عدة أيام. وهو كتاب «الجرائم والعقوبات» لمؤلِّفه سيزاري بِكَّاريا. كان هذا الكتاب لذلك العالِم القانوني الإيطالي في القرن الثامن عشر، عبارة عن وجبة كاملة ثابتة وتقليدية من التنوير والعقلانية، وكنت قد ألقيتُه بعيدًا على الفور بعد قراءة صفحاتٍ قليلة منه ولكني فكَّرت أنه ربما تبدي الفتاة اهتمامًا بعنوان الكتاب.

استقبلتني ماريكو بنفس ابتسامة الأمس، كانت نفس الابتسامة، ولكن لم يكن يتبقى أيُّ أثر في أي مكان لـ «الأمس». لأن الألفة التي قابلتني بها، كانت ألفةً تجاه إنسان قابلته سريعًا في ركن من أركان الطريق، ولأن جسدها أيضًا كان يشبه شيئًا ملقًى على قارعة الطريق.

ولم يكن الحوار في الغرفة الصغيرة أثناء شرب الساكي يدور بتلك السلاسة والألفة. قالت القوادة:

«تأتي مرةً ثانية للحبيبة الأولى! يا لك من صاحب مشاعرَ ناضجةٍ رغم أنك ما زلتَ شابًّا صغيرًا!»

قالت ماريكو:

«ولكن ألا يغضب عليك الراهب الكبير إذا أتيتَ هكذا كلَّ يوم؟»

ثم أضافت عندما رأتْ دهشتي الكبرى لأنها عرفت مهنتي:

«هذا أمرٌ في غاية الوضوح. فالموضة الآن هي قَصة الشَّعر العالية، وإذا كنت تحلق شَعرك كلَّه فأكيد أنت من أهل المعابد. ويقال إن راهبًا أصبح الآن ذا منصب عظيم كان يأتي إلى بيتنا هذا في شبابه كثيرًا ... حسنًا، لا عليك، دعنا نغنِّي معًا.»

بدأت ماريكو فجأةً في غناء أغنية منتشرة حاليًّا تتحدَّث عن امرأة الميناء التي فعلت لا أعلم ماذا.

كان الفعل للمرة الثانية، وفي بيئةٍ تعودتُ عليها بالفعل، وقمتُ به بسهولة ودون أي تباطؤ. هذه المرة من المعتَقد أنني نظرت إلى المتعة من وجهةِ نظر مختلفة، ولكنها لم تكن المتعة التي تخيَّلتها، لم تكن إلا مجرد اكتفاء منحط شعرتُ به وأنا أتكيف مع ذلك الأمر.

بعد الفعل أعطتني الفتاة درسًا جارحًا للمشاعر بما يناسب أنها أكبرُ مني سنًّا، فأفسدت حتى المشاعر التي تولَّدت للحظة.

فقد قالت لي ماريكو:

«أعتقد أنه من الأفضل لكَ ألا تتردَّد على مكانٍ مثل هذا كثيرًا. فأنت إنسان جادٌّ. أنا أعتقد ذلك. يجب ألا تغوص أعمقَ من ذلك. أعتقد أنه من الأفضل لك أن تبذل جهدك في العمل بجِد. أنا بالطبع أرغب في أن تأتيَ إليَّ، ولكن أنت تفهم شعوري هذا، أليس كذلك؟ فأنا أشعر أنك بمثابةِ أخ أصغر لي.»

على الأرجح أن ماريكو تعلَّمت هذا الكلام من حوار في رواية من الروايات الرخيصة، أو شيء من هذا القبيل. لم تكن تقول تلك الكلمات بمشاعرَ قويةٍ أو عميقة، ولكنها دبَّجت حكايةً صغيرة أكون أنا شريكها فيها، وتوقعتْ ماريكو مني أن أشاركها تلك العواطفَ التي صنعتَها. كان الوضع سيصير أفضلَ وأفضل، إذا بكيتُ أنا تجاوبًا مع ذلك الكلام.

ولكني لم أفعل، فجأةً أخرجتُ كتاب الجرائم والعقوبات من جوار الوسادة ووضعته أسفل أنفها.

تصفَّحت ماريكو كتاب النسخة الشعبية بتلقائية. ثم ألقَت به في مكانه السابق دون أن تنطِق بكلمة واحدة. وبالفعل غادر الكتابُ ذاكرتها في الحال.

كنت فقط أرغب أن تشعر ماريكو بواجسٍ ما، من أنَّ القدَر جعلها تلتقي بي. كنتُ أرغب أن تقترب قليلًا من الوعي بأنها تساعد في سقوط العالَم وانهياره. وفكرتُ أن هذا الأمر من المحال ألا يكونَ مهمًّا حتى لتلك الفتاة. وبعد فراغ صبري هكذا، أخيرًا قلت ما لا يجب عليَّ قوله:

«في خلال شهر ... نعم في خلال شهر من الآن، ستتكلم الجرائد والمجلات كثيرًا، وأرجو أن تتذكريني عندما يحدُث ذلك.»

عندما انتهيتُ من كلامي هذا كان قلبي يدقُّ بعنف. على أي حال، أصابت ماريكو نوبةٌ من الضحك. ضحِكتْ وهي تهزُّ ثدييها وتنظر إليَّ مرةً بعد مرة، ثم تحاول أن تمنع نفسها من الضحك خلال عضِّ كُم الرداء، ولكن الضحكات الجديدة هذه المرة جعلتها تختلج ويهتز جسمها كلُّه. من المؤكد أن ماريكو نفسَها لم تكن تستطيع شرحَ هذا الأمر الغريب الذي يضحكها لهذه الدرجة! انتبهتِ الفتاة إلى ذلك فتوقَّفت عن الضحك.

«ماذا يُضحِك في الأمر؟»

سألتُ أنا هذا السؤال الأبله.

«لأنكَ يا هذا، كاذب. آه ... أمرٌ مضحك. فأنت كاذب كبير.»

«أنا لا أكذب مطلقًا.»

«كفاكَ كذبًا. آه ... يا له من أمرٍ مضحك. سأموت ضحكًا. تقول كل هذا الكذب بهذا الوجه الجاد.»

عادت ماريكو إلى الضحك ثانية. ربما كان السبب الخالص لهذا الضحك هو مجرَّد الكلمات التي سارعتُ وتعجَّلتُ في نطقها؛ كان تلعثمي بها غريبًا وساذجًا. على أي حال لم تصدِّق ماريكو أيَّ شيء مطلقًا.

ماريكو لم تصدِّق. لو حدث زلزال أمام عينيها أكيد أنها لن تصدِّق أيضًا. ربما لو انهار العالم، لن ينجوَ من الانهيار إلا هذه الفتاة فقط. والسبب أن ماريكو لا تؤمن إلا بما يحدث متوافقًا ويتناسب مع ما تفكِّر فيه، وانهيار العالم ليس من ضمن ما تفكِّر ماريكو فيه، ولأنها لم يكن لديها أيُّ فرصة على الإطلاق لأن تفكِّر في شيء كهذا. وتتشابه ماريكو في هذه النقطة مع كاشيواغي. كانت ماريكو هي كاشيواغي في هيئة فتاة لا تفكِّر.

انقطع الحديث، فبدأت ماريكو تنغِّم بأنفها أغنيةً وهي كما هي عارية الصدر. فحدث أن اختلطت أغنية الأنف تلك مع صوت طنين ذبابة. كانت الذبابة تطير حولها، ثم وقفت صدفةً على ثديها، فقالت لها ماريكو: «أنتِ تدغدغيني!» فقط، ولم تحاول أن تدفعها

بعيدًا. عندما توقَّفت الذبابة على الثدي كانت لصيقة بالثدي بدرجة كبيرة. والذي أصابني بالدهشة، أن تلك المداعبة لم تزعج ماريكو.

كانت أصوات المطر تُسمع فوق إفريز السقف. وكانت أصوات المطر تلك توحي بأن المطر لا يهطل إلا في تلك البقعة فقط. وكأن المطر قد فقد انتشاره، فوقف شاردًا تائهًا في هذا الركن من أركان هذا الحي. كان ذلك الصوت، مثل مكاني هذا الذي أنا فيه، كأنه صوتُ مطر لعالم محدود ومحصور قد انفصل من ليلٍ بالغ الاتساع، فقط تحت ضوءٍ خافت لمصباح السرير.

لاحت لي أسئلة لم أكن أعرف إجاباتٍ لها: لو كان الذباب يحب العفن فقط، فهل يختلط العفن بماريكو؟ هل عدم الإيمان بأي شيء هو العفن؟ هل تسكن ماريكو في عالَمها الخاص المطلَق فقط، وقد حطَّت عليها الذبابة؟

ولكن فجأة، سقطت الفتاة في غفوةٍ تشبه الموت، فوق ضوء الثدي المدوَّر الذي انعكس عليه المصباح القريب من الوسادة، ولم تتحرَّك الذبابة كذلك، وظلَّت ثابتة وكأنها كذلك سقطت في نوبة نوم مفاجئ.

لم أذهب إلى ماخور أوتاكي مرةً ثانية. لقد أنهيت تنفيذَ ما كان يجب عليَّ عمله. كلُّ ما تبقى الآن هو أن يدرك كبير الرهبان كيف صرفت تكاليف الدراسة الجامعية، فيطردني من المعبد.

ولكن رغم ذلك لن أعطيَ كبيرَ الرهبان من نفسي أيَّ إشارة أو تلميح عن كيفية استهلاكي للنقود. لم يكن ضروريًّا لي الاعتراف، بل يجب على كبير الرهبان أن يخمِّن ذلك دون اعترافي.

كان من الصعب عليَّ أن أفسِّر لماذا كنت أحاول بمعنًى من المعاني الاعتمادَ على قوة كبير الرهبان إلى هذا الحد. ولم أفهم لماذا كنتُ أحاول أن أجعل قراري النهائي يعتمد على طرد كبير الرهبان لي من المعبد؟ وكما ذكرتُ بالفعل، كنتُ قد تأكَّدتُ منذ زمن بعيد أن كبير الرهبان إنسانٌ ضعيف.

بعد عدة أيام من ذهابي الثاني إلى الماخور، كانت لديَّ فرصة لكي أرى كبير الرهبان في الوضع التالي.

ذهب كبير الرهبان في الصباح المبكِّر لذلك اليوم قبل أن يُفتح المعبد للزوار، للتنزُّه حول المعبد الذهبي، وكان ذلك منه أمرًا نادر الحدوث. جاء إليَّ وإلى باقي الرهبان الشباب

الذين كانوا ينظِّفون أرضيةَ المعبد، وشكرَنا مشجِّعًا إيانا. ومشى بعدها صاعدًا الدرجاتِ الحجرية التي تؤدي إلى مبنى سِيكَّاتيه وهو يرتدي رداءً أبيضَ خفيفًا. ويبدو أنه ذاهب إلى هناك ليجلس بمفرده ويقوم بإعداد كوب من الشاي الأخضر، ليصفيَ ذهنه.

كانت السماء صباحَ ذلك اليوم بها بقايا توهُّج شمس الصباح العنيف. وتتحرَّك الغيوم التي تعكس الوهج الأحمر هنا وهناك خلال خلفية السماء الزرقاء. وكانت الغيوم كأنها لم تفلح بعدُ في الاستيقاظ من خجلها بدرجةٍ كاملة.

عندما انتهينا من كنس الأرضية، عاد باقي أعضاء مجموعتي إلى المبنى الرئيس. أنا فقط أخذت نفس المسار الذي يقود إلى حديقة سِكَّاتيه لأذهب إلى المكتبة الكبرى. وذلك لأن الطريق الخلفية المؤدية إلى المكتبة الكبرى لم تُكنس بعدُ.

أمسكتُ بالمكنسة وخرجت بجوار مبنى سِكَّاتيه بعد أن صعدتُ درجات السلالم الحجرية المحاطة بسور المعبد الذهبي، وكان الخيزران مبلولًا نتيجة أمطار الأمس. انعكست بقايا أشعة شمس الصباح على الندى الكثير على أطراف أوراق الشجيرات، وكأنها هي ثمار تلك الشجيرات نضجت في غير أوانها بلون أحمر فاتح. ويرتعش بيت العنكبوت الذي توثَّق مع الندى كذلك مع لمعان اللون الأحمر.

تأملتُ ذلك متأثرًا أن يحويَ الجمادُ على هذه الأرض ألوانَ السموات العُلى إلى هذه الدرجة. كانت رطوبة المطر داخل خضرة المعبد كلها تأتي من أعالي السموات. وكان كل ذلك يقطر من البلل وكأنه يتقبل البَركة والنِّعم، وتفوح منها رائحة الفطر مع رائحة رطوبة منعشة؛ لأنها لا تدري الوسيلةَ التي ترفض بها استقبالَ كل ذلك.

وكما تعلمون جميعًا، يلاصق مبنى سِكَّاتيه برج النجم الشمالي، وهو الذي يُذكر اسمه في المقولة الشهيرة «النجم الشمالي ثابتٌ في مكانه وجميع النجوم تدور حوله». ولكن برج النجم الشمالي الآن يختلف عما كان عليه وقت أن كان يوشيميتسو يتولى الحكم وهو الآمر والناهي؛ فقد أُعيد بناؤه منذ مائة وبضع عشرة سنة، فجعلوه قاعةً لحفلات الشاي الأخضر لمحبي الشكل الدائري. لم أرَ لكبير الرهبان أثرًا في مبنى سِكَّاتيه؛ ولذا يبدو أنه الآن في برج النجم الشمالي.

لم أكن أريد أن أقابل كبير الرهبان منفردًا. كان من المفترض ألا يراني من مكانه هناك، إذا مشيت خافضًا رأسي بمحاذاة سور الأشجار. فعلت ذلك ومشيت وأنا أمنع أقدامي من إصدار أي أصوات.

كان برج النجم الشمالي مفتوحًا على مصراعيه. ورأيت لوحة أوكيو مارورياما المعلَّقة في مكانها المعتاد من ركن الزينة. ورأيت أيضًا نموذج المعبد البوذي المصغَّر المحفور من

خشب الصندل يزيِّن كوة الزينة وبه زخارف دقيقة من النسيج القطني البديع القادم من الهند، تحوَّل لونها مع مرور الزمن إلى اللون الأسود. وتظهر على الجهة اليسرى أرفف على الطراز الذي يحبه الراهب ريكيو مصنوعة من خشب شجر التوت. ورأيت بابًا ورقيًّا. كان منظر كبير الرهبان هو الذي لا يمكنني رؤيته، ولذا دون وعي أخرجتُ عنقي عن سور الأشجار وأدرتُ النظر برأسي يمينًا وشمالًا.

واستطعتُ أن أرى شيئًا ما كأنه ملفوف برداء أبيض كبير، في مكان مظلم خافت عند قاعة الأعمدة. وعندما دققتُ النظر كان ذلك هو كبير الرهبان. يلبَس رداءً أبيض اللون، وقد انحنى بجسده بأقصى ما يستطيع، ووضع عنقه بين ركبتيه، ويغطي وجهه بكُمَّي ردائه.

ظل كبير الرهبان بهذه الحالة لا يتحرك. لا يتحرك على الإطلاق. بل على العكس أنا الذي أنظر إليه، تروح وتأتي عليَّ مشاعرُ متنوِّعة ومختلفة.

اعتقدتُ أنا في البداية، أن كبير الرهبان أصابه فجأةً مرضٌ ما عنيفٌ، ويحاول أن يتحمَّل الأزمة. كان من المستحسن أن أقترب منه على الفور وأقوم بإسعافه.

ولكن كانت هناك قوة مختلفة تستوقفني. فأنا لا أحبُّ كبير الرهبان بأي معنًى من المعاني، وأي شكل من أشكال الحب، وربما غدًا على أقصى حدٍّ، سأحسم قراري بحرق المعبد عامدًا متعمِّدًا؛ فهذا الإسعاف هو نفاق، وكذلك إذا تسبَّب إسعافي له أن يغدِق عليَّ كبير الرهبان مشاعرَ الامتنان والمحبة، فهناك خطرٌ من أن يضعُف قلبي إزاء ذلك.

عند النظر في التفاصيل، لم أعتقد أن كبير الرهبان مريض. ولكن على كل الأحوال، هذا الوضع يفتقد إلى رهبة الكبرياء، وتجعلك دناءته تعتقد أنها هيئة نوم حيوان وحشي. أدركتُ أن طرَف كُم الرداء يهتز مرتعشًا ارتعاشًا طفيفًا، مما جعلني أعتقد أن ثمة شيئًا غيرَ مرئي ثقيلًا يجثم على ظهره.

أخذتُ أفكر فيما هو يا تُرى ذلك الثقل غير المرئي؟ هل هو معاناة نفسية؟ أم هو شعور كبير الرهبان نفسه بالضَّعف لدرجةٍ لا تُحتمل؟

مع اعتياد أذني على السمع، استطعت سماع أن كبير الرهبان يرتِّل بضعة أبيات من كتاب السوترا المقدس هامسًا بصوتٍ خفيض للغاية، ولكني لم أعرف أي كتاب هو. فكبير الرهبان لديه حياةٌ معيشية مظلمة لا أعلم أنا عنها شيئًا، ومقارنةً بذلك، ومن أجل أن أجرح كبريائي بنفسي، فجأةً ظهرت لي فكرة أن ما حاولته أنا بكل جهد من صغائر الشرور والذنوب والكسل لا يرقى أبدًا إلى المقارنة معه.

حقًّا إنه كذلك. في ذلك الوقت كنت قد انتبهتُ إلى أن هيئة كبير الرهبان المنحنية تلك، كانت تشبه هيئةَ الراهب جامعِ التبرعات مشيًا على الأقدام الذي رُفض طلبه دخولَ القاعة الرئيسة لمعبد الزِّن، فظلَّ في هيئة «الانتظار في الحديقة» أمام المدخل طوال اليوم جالسًا فوق أمتعته متدليَ الرأس. إذا كان راهبًا من طبقة كبار الرهبان مثل كبير الرهبان، يقلِّد هذا النوع من التدريب الذي يفعله راهبٌ مبتدأ من الرهبان الرُّحَّل، فإن هذا التواضع، يدعو إلى الدهشة بالفعل. لم أفهم إلى ماذا يوجِّه كبير الرهبان هذا التواضع إلى هذه الدرجة. مثلما تتواضع الأعشاب السفلية للحديقة، وأطراف أوراق الأشجار، وقطرات الندى التي سكنت فوق خيوط العنكبوت، تجاه شفق الصباح تحت السموات العالية، هل كان تواضع كبير الرهبان هو تجاه الشرور والذنوب الجذرية التي ليست من طبيعته، لدرجةِ أنْ تعكس هيئتُه تلك صورةَ حيوان متوحش هكذا؟ فجأةً جاءتني فكرة: «إنه يفعل ذلك ليريني إياه!» إنه يعلم أنني سأمرُّ من هنا، ويفعل ذلك من أجل أن أراه. إن كبير الرهبان الذي يدرك بالفعل ضَعفه، اكتشف في النهاية هذه الطريقة الساخرة للوعظ، يمكن له بها شقُّ قلبي نصفين دون أن ينطِق بكلمة، وإيقاظ شعور الشفقة داخلي، وجعلني أخيرًا أركع على ركبتيَّ!

والحقيقة أنني مع وقوع قلبي في الحيرة نوعًا ما، كانت الشفقة على وشْك أن تهجم عليَّ أثناء رؤيتي لهيئة كبير الرهبان تلك. مع نفي ذلك بكلِّ ما لديَّ من قوة، إلا أنه لا شك أنني كنت على مشارف حدود محاولة بذل حب واحترام حقيقي لكبير الرهبان. ولكن بفضل تفكيري «إنه يفعل ذلك ليريني إياه!» انقلب كلُّ شيء إلى العكس، وحصلتُ على قوة عزيمة أكثرَ من ذي قبل.

كان ذلك هو الوقت الذي وصلت فيه إلى تفكيري أنه يجب ألا أعتمد في أخذ قرار حرق المعبد على طرد كبير الرهبان إياي. فأنا وكبير الرهبان، نسكن عالَمين مختلفين لا يؤثِّر أحدنا على الآخر. كنتُ أنا بلا قيود. ولا أتوقَّع خيرًا من أي قوة خارجية، كان يمكنني تنفيذُ ما أقرِّره بنفسي في الوقت الذي يَعنُّ لي.

زادت السُّحب في السماء مع شحوب لون شفق الفجر، وتراجعت أشعَّة الشمس الزاهية من حافة برج النجم الشمالي المبتلة. وكان كبير الرهبان منحنيًا كما هو. فأسرعت بمغادرة المكان بخطًى متعجلة.

وفي يوم ٢٥ يونيو، اشتعلت الحرب في شبه الجزيرة الكورية. وصار توقُّعي أن هذا العالَم مقبل على الانهيار والدمار المؤكد، واقعًا حقيقيًّا. ووجب عليَّ الإسراع.

الفصل العاشر

كنتُ في الواقع قد بدأت تجربةً ما، في اليوم التالي لذهابي إلى الحي الخامس. فقد خلعت مِسمارين، طول كلٍّ منهما بوصتان تقريبًا، من ألواح الجانب الشمالي للمعبد الذهبي.

ثمَّة بوابتان للطابق الأرضي للمعبد الذهبي المسمَّى هوسوين، واحدة في الشرق وأخرى في الغرب، كل بوابة ذاتُ باب بمصراعين يفتحان من المنتصف. وكانت العادة أن يصعد الدليل العجوز إلى المعبد الذهبي في الليل، ويغلق البوابة الغربية من الداخل، ثم يغلق البوابة الشرقية من الخارج، ويضع على الأخيرة قفلًا. ولكني كنتُ أعلم أنه يمكنني دخولُ المعبد الذهبي حتى لو لم يكن معي مفتاح القُفل. تبدو ألواح الجانب الشمالي من البوابة الشرقية، وكأنها تحمي خلفية نموذج المعبد المصغَّر داخل المعبد الذهبي. كانت تلك الألواح بالية، إذا خلعت ستة أو سبعة من المسامير العلوية والسفلية، فسيكون من السهل جدًّا خلعها. وكانت كل المسامير شبهَ مفكَّكة بالفعل، ويمكن خلعُها بمنتهى السهولة بالأصابع فقط. وهنا كانت تجربتي هي خلع اثنين من تلك المسامير. لففتُ المسمارين اللذين خلعتهما في ورقة، ووضعتهما في أعمقِ مكان من دُرج مكتبي. مرَّت بضعة أيام. ولا يبدو أن أحدًا لاحظ أيَّ شيء. في مساء يوم الثامن والعشرين، أعدتُ المسمارين مكانهما مرةً أخرى خفيةً.

في ذلك اليوم الذي رأيت فيه كبيرَ الرهبان في هيئته الرابضة وحدَّدت أخيرًا اليوم الذي لن يمكنني فيه الاعتمادُ على قوة أي شخص غيري، اشتريت دواء الكالموتين المنوِّم من صيدليةٍ بجوار قسم شرطة الحي الغربي في منطقة «سنبون إيماديكاوا». في البداية أحضر لي الصيدلي زجاجةً صغيرة بها ثلاثون حبة، ولكني طلبت منه أن يعطيني حجمًا أكبر، فاشتريت زجاجة بها مائة حبة بسعر مائة ين. علاوةً على ذلك، اشتريتُ من محل

السكاكين والقواطع الواقعِ جنوبَ قسم شرطة الحي الغربي، خنجرًا صغيرًا يبلغ نصله أربع بوصات وكان سعره بالغمد، تسعين ينًّا.

وفي الليل كنتُ أمشي جَيئة وذهابًا من أمام قسم شرطة الحي الغربي. وكنتُ أرى الأنوار مضاءةً بوضوح في عدد من النوافذ، ورجال التحريات الذين يرتدون قمصانًا مفتوحة الياقة، يدخلون المبنى في عجلةٍ من أمرهم حاملين في أيديهم حقائب. ولم يلفت وجودي نظرَ أحدٍ منهم. لم ينتبِه لي أحدٌ طوال عشرين عامًا مضت، وحتى الآن ما زال الوضع مستمرًّا على نفس الحال. حتى هذه اللحظة أنا لستُ ذا أهمية. في اليابان هذه، ملايين بل عشرات الملايين من الناس الذين يعيشون على الهامش دون أن يلتفت إليهم أحد، وأنا ما زلتُ أنتمي لهذه الفئة من الناس. ولا يشعر المجتمع بأي اهتمام إذا قرَّر أحد من هؤلاء أن يموت أو أن يعيش، ولكن يملك هؤلاء المهمَّشون في الحقيقةِ ما يجعل الناس يطمئنون. ولذا يطمئن أفراد التحريات ولا يلتفتون إلى شخصي. تُظهر حروف كلمة «قسم شرطة الحي الغربي»، التي وقعت منها كلمة «شرطة» والمكتوبة بالعرض على لوحة حجرية، تُظهر أشعةً مثل مصباحِ بوابةٍ ذي أدخنة حمراء.

كنت أفكِّر أثناء عودتي إلى المعبد في مشتريات هذه الليلة. إنها مشترياتٌ تجعل القلب يرقص فرحًا.

لقد اشتريتُ الخنجر والمنوِّم استعدادًا للانتحار المحتَّم في حالة حدوث أي حادث طارئ لي، ولكنها كانت مشترياتٍ تُشعِر قلبي بمتعة عظيمة لدرجةٍ تذكِّرك بمتعة الرجل الذي يشتري أثاث البيت استعدادًا لتصميم حياته الجديدة وهو مقبلٌ على إنشاء عائلة جديدة. بعد عودتي إلى المعبد كذلك، لم أَمَلَّ مشاهدةَ الاثنين. أسحب الخنجر من غِمده وأجرِّب أن ألعق نصله بلساني. وسريعًا ما يتراكم البخار على النصل، فأشعر بطَعم حلاوة بعيدة بعد إحساس برودة واضحة للنصل على لساني. كانت الحلاوة تأتي إلى لساني من أعماق الصلب الرقيق الذي لا يمكن الوصول إليه، من جوهر الحديد اللامع قليلًا. كانت تلك الحلاوة الرائقة والباردة بلا نهاية ... تحمل مع اللعاب على طرف اللسان، شكلًا واضحًا، ولمعةً للحديد تشبه زرقة البحر العميق. وأخيرًا تبتعد تلك الحلاوة هي الأخرى. أفكِّر بمتعة في ذلك اليوم الذي يسكر فيه لحم جسدي في فورة تلك الحلاوة. وتبدو سماء الموت مضيئة، وشبيهة تمامًا بسماء الحياة. ثم نسيتُ أنا الأفكار المظلمة. فبالتأكيد لا وجودَ للمعاناة في هذا العالم.

أُدخِل في المعبد الذهبي بعد الحرب أحدثُ أنظمة ذاتية للتنبيه عن الحرائق. صُمِّم النظام بحيث أنه إذا وصلت درجة الحرارة داخل المعبد الذهبي إلى درجة معينة، تستمر

صفاراتُ الإنذار في الرنين داخل طرقات المكاتب الإدارية لكامل معبد روكوؤنجي. ولكن حدث في ليلة التاسع والعشرين من شهر يونيو، عطلٌ في جهاز الإنذار. كان الدليل العجوز هو مَن اكتشف ذلك العطل. وسمِعت أنا إبلاغ ذلك العجوز لمكتب الإدارة بعطل جهاز الإنذار أثناء وجودي صدفةً في المخزن الخلفي. وقتَها اعتقدتُ أنا أنني أسمع أصوات تشجيع السماء لي.

ولكن في صباح اليوم التالي، الموافق الثلاثين من يونيو، اتصل نائب كبير الرهبان بالمصنع الذي تم شراء أجهزة الإنذار منه وطلب منهم الحضورَ لإصلاح العطل. وجاء الدليل الطيب القلب ليبلغني بذلك خصوصًا. عندما سمعتُ منه ذلك الخبر، عضضتُ على شفتيَّ. فرغم أن الليلة الفائتة كانت فرصةً عظيمة للتنفيذ، إلا أن تلك الفرصة فلتت مني.

وجاء عامل التصليح في وقت الغروب. وقفنا جميعًا صفًّا واحدًا نشاهد عمليةَ تصليح العطل بوجوه متعجبة. استغرقت عملية التصليح وقتًا طويلًا، العامل ظل يعوج عنقه مستنكرًا، فانصرف المشاهدون واحدًا بعد الآخر. تركتُ أنا أيضًا المكان في وقت مناسب. بعد ذلك لم يكن أمامي إلا أن أنتظر إصلاحَ العطل، وأن يطلق العامل إنذارَ الحريق لتجربة الجهاز، فيتردَّد صدى صوت الإنذار عاليًا في أرجاء المعبد ليكون إشارةً لليأس وانقطاع أي أمل بالنسبة لي ... فانتظرت. اندفع الليل إلى المعبد الذهبي مثل مدٍّ أمواج البحر، والمصباح الصغير المخصَّص للتصليح ترتعش إضاءته. لم تنطلق صفارات الإنذار. وعامل التصليح الذي فقدَ الأمل غادر المعبدَ بعد أن قال إنه سيعود ثانيةً في اليوم التالي.

لم يأتِ العامل في الأول من يوليو مخالفًا لوعده. ولكن لم يكن لدى إدارة المعبد سببٌ كبير يجعلها تحرص على الإسراع في عملية التصليح.

كنتُ قد ذهبت في الثلاثين من يونيو إلى منطقة سنبون إيماديكاوا مرةً أخرى، واشتريت خبزًا بالسُّكر وحلوى بمربى الصويا. ولأن المعبد لا يقدِّم لنا طعامًا بين الوجبات، كنتُ أحيانًا ما أشتري من هناك القليل من الحلوى من مصروف الجيب الضئيل، في كل مرة.

ولكن لم أشترِ الحلوى يوم الثلاثين من يونيو، بسبب إحساسي بالجوع. ولم تكن من أجل أن تساعدني في تناول منوِّم الكالموتين. إذا بحثتُ عن سبب، فربما كان القلق هو الذي جعلني أشتريه.

العلاقة بيني وبين الكيس الورقي المنفوخ المتدلي من يدي، العلاقة بين العمل الغارق تمامًا في وحدته الذي كنتُ أنا الآن على وشْك البدء في فعله وبين خبز السُّكَّر وحلوى مربى الصويا المتواضعين ... تقف الشمس التي برزت من السماء ذات الغيوم، في مساكن المدينة

القديمة مثل الضباب الحار الرطب. تصبَّب العَرق فجأة وفي سرية على ظهري منسابًا وهو يجرُّ معه خيطًا باردًا. كنتُ في غاية الفتور.

العلاقة بيني وبين خبز السُّكر! ماذا تكون يا تُرى هذه العلاقة؟ أتوقَّع أنا أنه عند مواجهة الفعل وجهًا لوجه، مهما حاولتُ التركيزَ وتجميعَ شجاعتي، فإن الحالة الذهنية لِمَعدتي التي تُركتْ كما هي في وحدتها، تحاول رغم ذلك، طلبَ دليل وبرهان على تلك الوحدة. أحسستُ كأن أحشائي تشبه كلبي الرثَّ المنظر الذي أرعاه ولكنه لا يأنس بي أبدًا. كنتُ أعرف أنه مهما تيقَّظ قلبي وانتبه، فإن أحشائي البليدة الحس كالمَعِدة والأمعاء تبدأ من تلقاء نفسها في الحُلم بحياة معيشية يومية باردة لا حياة فيها.

كنت أعرف أن مَعِدتي ترى أحلامًا. تحلُم بخبز السُّكر وحلوى مربى الصويا. أثناء حُلم حالتي النفسية بالجواهر، فهي تحلُم بعنادٍ بخبز السُّكَّر وحلوى مربى الصويا ... حتمًا سيقدِّم خبز السُّكر دليلًا مناسبًا للناس عندما يحاولون إجبارَ أنفسهم على تفهُّم جريمتي. ربما يقول الناس: «إنه كان جائعًا. يا له من أمرٍ إنساني بحت!»

جاء يوم الأول من يوليو لعام ١٩٥٠. وكما ذكرتُ من قبل، كان من المتوقَّع ألا يتم إصلاح جهاز إنذار الحريق خلال ذلك اليوم. وأصبح ذلك الأمر مؤكدًا في الساعة السادسة مساءً. فقد اتصل الدليل العجوز هاتفيًّا لحثِّهم مرةً ثانية، فكان ردُّ العامل الاعتذارَ عن عدم استطاعته المجيءَ بسبب انشغاله، وأنه سيأتي غدًا بالتأكيد.

كان عدد زوار المعبد الذهبي في ذلك اليوم قرابة مائة شخص، ولأن المعبد يغلق أبوابه في الساعة السادسة والنصف، فقد بدأت موجات الزوار مغادرةَ المعبد بالفعل. بعد أن أنهى العجوز المكالمةَ الهاتفية، ولأن عمله في إرشاد الزوار قد انتهى، وقف شاردًا يتأمل الحقلَ الصغير من مدخل الجانب الشرقي للمخزن الخلفي.

تمطر السماء رذاذًا مثل الضباب. منذ الصباح وهي تمطر ثم تتوقَّف ثم تمطر، وتكرِّر ذلك عدةَ مرات. كذلك تهبُّ رياحٌ خفيفة، ولذا فالجو لم يكن حارًّا رطبًا بدرجة كبيرة. وفي الحقول تظهر أزهارُ نبات اليقطين كنقاط مضيئة وسط المطر. من جهةٍ أخرى بدأت براعم فول الصويا التي نُثرت بذورها في بداية الشهر الماضي في الظهور فوق التلال المرتفعة السوداء التي تلمع في بهاء.

كان العجوز عندما يغرق في التفكير في أمرٍ ما، يحرِّك فكَّيه ليجعل طقمَ أسنانه الذي لا يوافق أعلاه أسفله يطلق أصواتًا مزعجة. ربما كان طقم الأسنان هذا هو سببَ زيادة

صعوبة فهْم شرحه مع مرور الأيام، رغم أنه يقول نفس كلمات الإرشاد كلَّ يوم. ولا يحاول أن يقوم بإصلاحه مهما حثَّه الناس على ذلك. يتأمل الحقل ويهمس بشيءٍ ما. يهمس ثم يعود ليطقطق طقم الأسنان ... يتوقَّف عن طقطقة طقم الأسنان ثم يهمس مرةً أخرى. على الأرجح هو يتبرَّم من عدم سير عملية إصلاح جهاز الإنذار على الوجه المرجو.

عند سماعي لهمساته التي لا يمكن فهْم محتواها تلك، يأتيني اعتقادٌ بأنه يقول إن إصلاح جهاز الإنذار وإصلاح طقم الأسنان أمران مستحيلان.

في معبد روكوؤنجي تلك الليلة، جاء إلى كبير الرهبان ضيفٌ نادرًا ما يأتي لزيارته. إنه الراهب الكبير زنكاي كواي الراهب المقيم لمعبد ريوهوجي في محافظة فوكوي، وقد كان زميلًا لكبير الرهبان في معبد الزِّن فيما مضى. ومعنى أنه كان صديقًا لكبير الرهبان في معبد الزِّن، أنه كان كذلك صديقًا لأبي.

تم التواصل مع كبير الرهبان هاتفيًّا في مكان وجوده خارج المعبد. وأبلغ كبير الرهبان المتصل أنه سيعود خلال ساعة تقريبًا. أتى الراهب زنكاي إلى كيوتو على نية المبيت ليلةً أو ليلتين.

فهمت تمامًا لماذا كان أبي عندما يتحدث عن أمرٍ ما يخصُّ الراهب زنكاي كان مستمتعًا، وكان قلبه يمتلئ حبًّا واحترامًا له. فقد كان الراهبَ المبجَّل من حيث مظهره الخارجي وشخصيته، ويُعدُّ نموذجًا مثاليًّا للغاية لراهب الزِّن المتمسك بطبيعته الفطرية. يبلغ طوله ما يقرُب من ستة أقدام، ذو بشرة سمراء وحواجب كثيفة. وكان ذا صوت جهور مثل صوت الرعد. أبلغت برغبة الراهب الكبير في الحديث معي أثناء انتظاره مجيءَ كبير الرهبان، وعندما جاء أحدُ زملائي لاستدعائي أصابتني حَيرة وتردُّد. فلقد خشيت أن يستشفَّ الراهب زنكاي بعيونه الصافية والثاقبة خطتي التي اقتربتُ من تنفيذها تلك الليلة.

كان الراهب الكبير يجلس متربعًا في الغرفة ذات الاثنتي عشرة حصيرة تاتامي، يشرب من الساكي الذي قدَّمه له بكرم نائبُ كبير الرهبان مع المقبِّلات النباتية. حتى ذلك الحين كان أحد الزملاء يصبُّ الساكي للراهب، فلما جئتُ أنا بدلت معه وقمت بصبِّ الساكي له بعد أن جلست على ركبتَي فوق الحصيرة التي أمامه. وقد أعطيت ظهري لأمطار الظلام التي تهطل بلا صوت تقريبًا. وبهذا لم يكن أمام الراهب الكبير إلا النظر إلى وجهي ومنظر الليل في تلك الحديقة ذات الطقس الموسمي للأمطار نظراتٍ طويلةً كئيبة.

ولكن لا يمكن لشيء أن يقيِّد الراهبَ زنكاي. في اللحظة التي رآني فيها، وهي أول لقاء بيننا، قال لي إنني أشبه والدي، وإنني كبرتُ سريعًا وأصبحتُ رجلًا، وإنَّ موت والدي

كان خسارةً حقيقية. قال كل ذلك في ترتيب مستمر وبنبرة مبهجة. كان الراهب زنكاي يملك بساطةً قلبية ليست لدى كبير الرهبان، ويملك قوةً ليست لدى والدي. كان وجهه قد سَفعَته الشمس فاسمرَّ، وأنفه ذا فتحتين كبيرتين، ولحمُ حاجبيه الكثيفين المقتربين نتأ بارزًا كأنه قد صُنع على هيئة وجه قناع أوبشيمي في مسرح «النو». لم تكن ملامح وجهه منتظِمةً البتة. كانت قوَّته الداخلية وافرة، وتخرج تلك القوة للعلن كما يحلو لها لتهدم أيَّ انتظام ممكن. عظام الخد البارزة للأمام شديدةُ الانحدار مثل رسمة جبل صخري في لوحات المدرسة الجنوبية الصينية.

ومع كل هذا، كان للراهب زنكاي الذي يتحدَّث بصوت جهير مثل الرعد، طيبةٌ تردَّد صداها في قلبي. ليست تلك الطيبة العادية الموجودة بين الناس، بل طيبة تشبه طيبةَ أشجار ضخمة ذات جذور فظة ولكنها تعطي ظلها كمكان استراحة لمسافر في مكان ناءٍ من القرية، طيبة خشنة الملمس بدرجة كبيرة. مع حديثه وخاصة الليلة وما تمثله الليلة، بدأتُ أحذر أن يتراخى قراري الحاسم بعد ملامستي لهذه الطيبة. وبسبب ذلك ورد على ذهني شكٌّ في أن كبير الرهبان استدعى الراهب زنكاي خصوصًا من أجلي، ولكن كان من المستحيل أن يدعوَ الراهب زنكاي ليأتيَ من محافظة فوكوي إلى كيوتو خصوصًا من أجلي أنا. لم يكن الراهب زنكاي إلا مجرد ضيف في صدفة عجيبة وشاهد لا يُضارَع للحظة الانهيار.

عندما فرغتْ قنينة الساكي المصنوعة من الخزف الأبيض التي تبلغ ما يقرب من صاع ونصف (٣٦٠ ملِّيلترًا)، انحنيتُ تحيةً للضيف، وذهبت إلى المطبخ لإحضار المزيد. عندما عدتُ ممسكًا في يدي بقنينة الساكي الساخن، تولَّدت لدي مشاعرُ لم أعرفها من قبل. رغم أنني لم يسبق لي أن شعرتُ بالرغبة في أن يفهمني أحد، إلا أنه عند وصولي إلى هذه اللحظة من اللقاء تمنيتُ كما لو أنني أريد أن يفهمني الراهب زنكاي فقط. بعد أن عدتُ مرةً أخرى وصببتُ الساكي للراهب، وخلافًا على ما كانت عليه عيناي. منذ قليل، أفترض أن الراهب زنكاي انتبه لأي درجة من الصدق كانت تلمع عيني.

سألته:

«ما رأيك فيَّ؟»

«هاه، تبدو طالبًا مجتهدًا وجيدًا. ولا أدري ما وقت فراغك في الخفاء. ولكن يا لك من مسكين، فخلافًا لِما كان عليه الوضع في الماضي ليس لديك المال اللازم للهوايات. لقد فعلنا أنا ووالدك وكبير رهبان هذا المعبد الكثيرَ من الشرور في شبابنا.»

«هل أبدو لك طالبًا عاديًّا؟»

«أن تبدوَ عاديًّا فهو أمر حسن. العادي أفضل شيء. فهذا لا يجعل الآخرين يشكُّون فيك.»

لم يكن لدى الراهب زنكاي أيُّ غرور. كثيرًا ما يسقط الرهبان ذوو المكانة المرتفعة في تلك الخطيئة، وهي أن يُرى أنه يُطلب منهم فحص كل شيء من البشر وحتى التحف الفنية وعندها يرون أنه لا يجب قول شيء كأمرٍ مسلَّم به لكيلا يُسخر من خطأ تقديره فيما بعد. بالطبع يمكن تجريب إنزال القرار الفردي في التو والحال على طريقة رهبان الزِّن، لكن يجب إبقاء مساحة لفهم الكلام على كلا المعنيين. لم يكن الراهب زنكاي من هذا النوع. لقد عرفت جيدًا أنه يتحدَّث بما يراه وما يشعر به كما هو. لم يكن يطلب معنًى معيَّنًا من الأشياء والأمور التي تنعكس على عينيه القويتين البسيطتين. كان الأمر سيان، سواء كان لها معنًى أو لم يكن. ولكن الأمر الذي جعلني أشعر بعظمة الراهب زنكاي أكثر من أي شيء آخر، نظرته للأمور، على سبيل المثال عندما ينظر إليَّ أنا، لم يكن يؤكد على شيء خاص به يراه هو فقط مختلفًا معتمدًا على شخصيته المتفردة، بل كان ينظر كما لو أن الآخرين ينظرون إلى نفس الشيء. بالنسبة للراهب زنكاي لن يكون هناك معنًى لعالم متجرد. لقد فهمت أنا ما لم يقُله الراهب زنكاي، وشعرتُ تدريجيًّا بالراحة. فلطالما كنتُ أُرى كشخص عادي من الآخرين، فأنا شخص عادي، ومهما حاولتُ على العكس فِعل شيء عادي وغريب تظل عاديتي كما هي مثل أرز تم غربلته في غربال.

ولا أعرف منذ متى وأنا أعتبر نفسي مثل شجرة صغيرة ذات أوراق ساكنة تقف أمام الراهب زنكاي.

«هل من الأفضل العيش بالشكل الذي يراني به الناس؟»

«لا يجب ذلك أبدًا. ولكن لو أظهرت فعلًا شاذًّا ومختلفًا، فسيصبح الناس يرونك بهذا الشكل الجديد. فأشخاص المجتمع ينسون دائمًا.»

«ما هو الأكثر استمرارًا، هل هو أنا كما يراني الناس، أم أنا كما أفكِّر أنا؟»

«كلاهما سيتوقف سريعًا. حتى لو فكرتَ في جعلهما يستمران عنوة، فسيأتي الوقت الذي يتوقَّفان فيه. أثناء سير القطار يكون الركَّاب متوقفين عن السير، وعندما يتوقف القطار يكون لزامًا أن يبدأ الركَّاب السير. يتوقَّف القطار وكذلك تتوقَّف الراحة. ويبدو أن الموت هو آخر راحة، ولكن حتى ذلك غير معلوم إلى أي مدًى هو مستمر.»

«أرجو منك أن تستشف ماذا أكون؟»

أخيرًا نطقتُ بما أريد.

«أنا لستُ الشخص الذي تعتقد أنني هو. أرجو منك أن تستشف حقيقتي.»

ابتلع الراهب شربةً من كأس الساكي ونظر إليَّ بإمعان. نزل عليَّ صمتٌ ثقيل مثل القرميد الأسود الكبير لمعبد روكوؤنجي الذي بلَّلته الأمطار، أصابني الرعب. فلقد انطلقت فجأة ضحكاتُ الراهب زنكاي الصافية للغاية.»

«لا ضرورة لأن أستشف. فكل شيء فيك واضح للعيان.»

هذا ما قال الراهب. وأحسست أنه فهمني فهمًا كاملًا ودون أن يترك أيَّ ركن مني. ولأول مرة في حياتي أصبحُ فارغًا. وانفجرت مجددًا شجاعة الفعل، مثل ماء يهدف لملء ذلك الفراغ.

عاد كبير الرهبان الساعةَ التاسعة مساء. وخرج الحراس الأربعة كما هي عادتهم في دورية لتفقُّد أرجاء المعبد. ولم يكن هناك أيُّ شيء مريب.

بعد أن عاد، جلس كبير الرهبان ينادم الراهب زنكاي في شرب الساكي، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف قام أحد زملائي الأصغر مني بإرشاد الراهب زنكاي إلى مكان نومه. وبعد ذلك قام كبير الرهبان بالطقس المسمَّى دخول الحمَّام فدخل للاستحمام، وفي الساعة الواحدة من صباح اليوم الثاني من يوليو توقَّف صوت طرقات الأخشاب التي يطلقها الحراس، فغرق المعبد في الهدوء. ولكن الأمطار ظلت تهطل بلا صوت.

جلست بمفردي فوق فراش النوم الذي قمت بفرشه بنفسي، أعدُّ ساعات الليل الذي يترسب على معبد روكوؤنجي. تدريجيًّا زاد الليل من ثقل كثافته، وبدت لي الأعمدة الغليظة وألواح هذا المخزن الصغير الذي أقيم فيه، صارمةً تسند هذا الليل العتيق.

جرَّبت أن أتلعثم في فمي. تكون الكلمة الواحدة كالمعتاد مثلما تضع يدك في جرابٍ باحثًا عن شيء داخله، فيتشابك ذلك الشيء مع أشياءَ أخرى ولا تستطيع إخراجه بسهولة، ثم أخيرًا تظهر الكلمة على شفتيَّ بعد مبالغتها في إغاظتي. كان ثقل عالمي الداخلي وكثافته، كما لو كان يشبه هذا الليل، وتخرج الكلمة منه متثاقلة وهي تطقطق وكأنها مثل دلو ثقيل في بئر هذا الليل العميق.

«الوقت اقترب. لم يبقَ إلا القليل من الصبر.» هكذا كنت أفكِّر. «سيُفتح القُفل الصدئ الذي بين عالمي الداخلي والعالم الخارجي ببراعة. ويصير العالم الداخلي والعالم الخارجي مُفرَّغَين، وتهب نسائم الريح بينهما في حرية. وسيرتفع دلو البئر المتدلي بسهولة وخفة وكأنه يطير مرفرفًا بجناحين، وسينفتح كل شيء أمامي مثل السهول الرحبة وتختفي

الغرفة السرية ... ذلك بالفعل أمام عيني. كانت يدي على وشْك الوصول إليه بالفعل وتكاد تلمسه ...»

جلستُ ساعة كاملة وسط الظلام وأنا في سعادة بالغة. وأحسست أنني لم أكن سعيدًا لهذه الدرجة منذ ولادتي وحتى ذلك اليوم ... فجأةً قمت واقفًا وسط الظلام.

خرجتُ متسللًا من الباب الخلفي لمبنى المكتبة الكبرى، ولبست خُفَّ القش الذي كنتُ قد جهَّزته من قبل. ومشيتُ في رذاذ المطر الضبابي محاذيًا للخندق الواقع خلف معبد روكوؤنجي، متوجهًا إلى غرفة مواد البناء. لم يكن بالغرفة موادُّ البناء الخشبية، ولكن كانت تفوح منها رائحةٌ حائرة لنشارة الخشب المتناثرة مع رطوبة المطر. يُخزَّن هنا القش بعد شرائه. ففي المرة الواحدة يتم شراء أربعين حُزمة من القش. ولكن في تلك الليلة لم يتبقَّ إلا ثلاث حزم فقط متكومة بعد أن استُخدم أغلب المخزون.

حملتُ الحزمات الثلاث وعدتُ إلى جوار الحقل. كان المكان خلف المخازن يقبع في هدوء شديد. استدرتُ عند ركن المطبخ، وعندما وصلت إلى مبنى الإدارة من الخلف، انطلقتْ فجأة إضاءة من نافذة مرحاض ذلك المبنى. انحنيتُ جاثمًا في مكاني.

سمعتُ أصواتَ سُعال في المرحاض. كان ذلك على ما يبدو نائب كبير الرهبان. وأخيرًا سمعت صوت انطلاق البول، واستمر ذلك فترة طويلة بلا توقف.

وخوفًا من أن يبتلَّ القش بماء المطر، قمتُ بتغطيته بصدري وأنا مُنحنٍ جاثمًا عليه. تكتَّلت رائحة المرحاض التي أصبحت شنيعة بسبب الأمطار، في حشائش نبات السرخس التي تهتز بفعل هبوب نسائم ريح خفيفة ... توقَّف صوت البول. وسمِعت صوت اصطدام جسدٍ مترنح بألواح الحائط الخشبية. يبدو أن نائب كبير الرهبان لم يكن مستيقظًا بدرجة كافية. انطفأت إضاءة النافذة، فحملت حزم القش الثلاث مرةً أخرى، وبدأت السير متوجهًا إلى مبنى المكتبة الكبرى من الخلف.

حسنًا، لقد كانت كل ثروتي عبارة عن سلة من الخوص جمعتُ فيها متعلقاتي الشخصية، وحقيبة سفر صغيرة قديمة فقط. وعزمتُ على حرقها جميعًا. وقمت بالفعل في هذه الليلة بوضع كل أغراضي من كتب وأوراق وملابس ومعاطف وغيرها من أشياءَ رفيعةٍ فيهما. كنتُ أريد أن يعترفَ الناس بدقتي في التفاصيل. لففت الأشياء التي تُصدِر صوتًا عند حملها، على سبيل المثال مكالب تعليق الناموسية، والأشياء التي لا تحترق وتظل كدلائل على صاحبها مثل منفضة السجائر، والأكواب ودواة الحبر وغيرها، لففتُ كلَّ ذلك في الوسائد وربطتُها بصرة من القماش ووضعتها في مكان مختلف. وعلاوةً على ما سبق كان

يجب حرقُ مرتبة الفراش ولحافين. فقمت بحمل كل تلك الأمتعة على عدة مرات ووضعتها عند المَخرج الخلفي لمبنى المكتبة الكبرى. وفوق ذلك ذهبتُ إلى المعبد الذهبي لخلع اللوح الخشبي من الجانب الشمالي الذي ذكرته من قبل.

كان خلع المسامير واحدًا بعد الآخر سهلًا وكأنها مغروسة في تربة لينة. كنتُ أسند اللوحَ الذي بدأ يميل بكامل جسدي، لمس سطح ذلك الخشب المتعفن المبلول، خدودي برطوبة ونعومة. ولم يكن وزنه ثقيلًا بالدرجة التي توقَّعتها. وضعتُ اللوح الخشبي الذي خلعته بالعرض على الأرض بجواري. كان الظلام يملأ المعبد الذهبي من داخله الذي انكشف أمام عيني.

كان عرض اللوح بالكاد يسمح بمرور الجسد بميل. غرقتُ بجسدي داخل ظلام المعبد الذهبي. ظهر وجهٌ عجيب أصابني بالرعب. في الخزانة الزجاجية التي بها نموذج مصغَّر للمعبد الذهبي الموجودة في مدخل المعبد، انعكس وجهي وأنا أرفع عود الثقاب المشتعل.

لم يكن هذا وقتَ فِعل ذلك، ولكني نظرتُ بتأمُّل وإمعان في المعبد الذهبي داخل الخزانة. كان ظل ذلك المعبد الذهبي الصغير يهتز، وقد أُضيء بضوء الثقاب الذي يشبه ضوء القمر، وتربض التراكيب الخشبية الدقيقة في قلقٍ بالغ وشديد. ثم على الفور بلعها الظلام الدامس. فلقد انطفأت شعلة الثقاب.

بالغتُ في اهتمامي بنقطة الضوء الحمراء التي تلمع في بقايا عود الثقاب المشتعل، جعلني ذلك أدهس عودَ الثقاب بجنون كما رأيتُ طالبًا يفعل ذلك في معبد ميوشين في موقفٍ بالغ الغرابة. علاوةً على ذلك أشعلت النارَ في عود ثقاب جديد. تخطيتُ غرفة التلاوات السداسية الأركان وتماثيل بوذا الثلاثية، وعندما وصلت المقدمة صندوق إلقاء التبرعات، ظهرت لي ظلال القضبان المتراصة بعدد كبير من أجل إلقاء الأموال بها وكأنها أمواجٌ تتدافع مع اهتزاز لهب الثقاب. خلف صندوق التبرعات، التمثال الخشبي للقائد يوشيميتسو أشيكاغا مؤسِّس معبد روكوؤنجي المسجَّل تراثًا قوميًّا. وهو تمثال للقائد مرتديًا ثيابَ الرهبنة في وضع الجلوس، وتمتد أطراف الثياب طويلًا على اليمين وعلى اليسار، ويميل الصولجان من اليد اليمنى إلى اليد اليسرى. يدفن الرأس الصغير الحليق ذو العيون المفتوحة على آخرها، عنقه داخل ياقة ثياب الرهبنة. ولمعت تلك العيون مع لهب الثقاب، ولكني لم أَخَفْ. كان الصنم الصغير مخيفًا بدرجة كبيرة، ومع جلوسه في سكون في ركنٍ من أركان المبنى الذي شيَّده، بدا لي أنه تخلَّى منذ الماضي البعيد عن فرض سيطرته.

فتحتُ البابَ الغربي الذي يؤدي إلى السوسيه. وكما ذكرتُ من قبلُ فهذا الباب يفتح على مصراعين من الداخل. سماء الليل المطرة كانت أكثرَ إضاءة من داخل المعبد الذهبي. الباب الرطب حدَّ من صوت الصرير الخافت، فأدخل هواء الليل الغامق اللون المتلئ بالنسيم.

«عيون يوشيميتسو، عيون يوشيميتسو تلك!» ظللتُ أفكر وأنا أجري عائدًا إلى خلف مبنى المكتبة الكبرى مترنحًا بجسمي إلى خارج ذلك الباب وأنا أقول: «كل شيء سيتم أمام تلك العيون. أمام عيون شاهد ميت لا يقدِر على رؤية أي شيء ...»

ثمَّة شيء في جيوب السروال يصدِر صوتًا مع الجري. إنها صيحاتُ علبة الثقاب. وقفتُ وكدَّست ورق منديل في فراغات علبة الثقاب وكتمت الصوت. لا يصدرُ صوتٌ من الجيب الآخر الذي وضعت فيه زجاجةَ الكالموتين الملفوفة في منديل والخنجر. وكذلك من الأصل لا صوت لجيب المعطف الذي وضعتُ فيه خبز السُّكَّر وحلوى مربى الصويا والسجائر.

بعد ذلك بدأت العمل آليًّا. حملتُ الأمتعة التي كوَّمتها خلف مبنى المكتبة الكبرى، إلى مقدمة تمثال يوشيميتسو على أربع مرات. أول ما حملته كان المرتبة، والناموسية دون أحزمة التعليق. وثاني ما حملته كان اللحافَين. وثالث شيء كان حقيبة السفر الصغيرة وخزانة الصفصاف. وبعد ذلك حُزَم القش الثلاث. كوَّمتُ كل ذلك بخشونةٍ بعضه فوق بعض، وحشرت حُزم القش الثلاث بين الناموسية والمرتبة. ولأنني كنت أعتقد أن الناموسية هي الأكثر سهولةً في الاشتعال، فقد جعلتها ممدودة على باقي الأشياء الأخرى.

وبعد ذلك عدتُ لآخر مرة إلى خلف مبنى المكتبة الكبرى، فحملت الصرة الملفوف بها الأمتعة الصعبة الاشتعال التي ذكرتها من قبل، وذهبت هذه المرة إلى ضفة البِركة التي على الحافة الشرقية للمعبد الذهبي. كان الموقع يُرى منه أمام العين مباشرة صخرة يودوماري التي وسط البركة. يقع تحت ظل بضع شجرات من الصنوبر ويمنع بالكاد وصولَ مياه المطر إليَّ.

صار سطح البركة أبيضَ بياضًا خفيفًا بعد أن عكس سماء الليل. ولكن كان العفن الأخضر الكثيف كأنه امتداد للأرض، ويمكن بالكاد معرفة وجود الماء من تحت تلك الفراغات الرفيعة المتناثرة هنا وهناك. ولم يكن المطر بالدرجة التي ترسم على سطح البِركة أمواجًا. كان المطر عبارة عن ضباب يحمل بخار الماء، والبِركة تبدو كما لو كانت مستمرة بلا نهاية.

ألقيت حجرًا صغيرًا تناولته من تحت أقدامي في البِركة. فتردد صدى صوت الماء في مبالغة بسبب ذلك وكأنه يكسر جدارَ الصمت في الهواء المحيط بي. انكمشتُ بجسدي في

سكون تام. كنتُ أريد بذلك الصمت أن أزيل أثرَ ذلك الصوت الذي اندفع قويًّا دون حساب مني.

وضعتُ يدي في ماء البركة، ولكن اشتبكت بيدي طحالبُ العفن الدافئة. أسقطتُ أولًا أحزمة الناموسية في يدي المغموسة في الماء. وبعد ذلك أسقطتُ منفضة السجائر في الماء وكأني أغسلها. ثم أسقطتُ الأكواب ودواة الحبر بنفس الطريقة. وانتهيت من كل الأشياء التي تغرق في الماء. وتبقى بجانبي فقط وسادة المقعد والصرة التي كانت تلفُّ تلك الأشياء. ثم حملتُ الاثنين ووضعتهما أمام تمثال يوشيميتسو، جاء أخيرًا وقتُ إشعال النيران.

وعندها هجم عليَّ إحساس الجوع، تحقيقًا لتوقعي المسبق، مما جعلني على العكس يهاجمني شعورٌ بأنني خُدعت. كان في جيبي خبز السُّكَّر وحلوى مربى الصويا المتبقيان من ليلة أمس. مسحت يدي المبلولة في طرف معطفي، وأكلت بنهمٍ بالغ. لم أحسَّ بطَعم الأكل. كانت مَعِدتي تصرخ بغض النظر عن حاسة التذوق، وكان الحل هو فقط تكديس الخبز السُّكري داخل فمي بسرعة. أصاب صدري خفقانٌ من الاستعجال. وبعد أن ابتلعته أخيرًا اغترفتُ من ماء البِركة ورويتُ ظمئي.

... كنتُ على بُعد خطوة واحدة فقط من «الفعل». أنهيتُ جميعَ التجهيزات الطويلة التي تقود للفعل ذاته، ووقفتُ عند أقصى طرف تلك الاستعدادات، ويتبقى فقط أن أرميَ جسدي في أتون الفعل. من المفترض أن أصل بقليل من الجهد إلى الفعل بسهولة.

كنتُ بين هذين الاثنين، لم أكن أرى ولو في حُلمٍ أن الهوة التي تكفي لابتلاع حياتي كلها تفتح فمها لي بهذه الطريقة.

بمعنى، أنني في ذلك الوقت كنت أتأمل المعبد الذهبي بنيةِ قول كلمة الوداع الأخيرة.

كان المعبد الذهبي معتمًا في ظلام الليل الممطر، ولم تكن تلك الحواف والظلال شيئًا مؤكدًا. كان غارقًا في السواد وكأن الليل قد وقف متبلورًا في هذا المكان. وعندما أجهدتُ مقلتيَّ في النظر، أمكنني بصعوبة رؤية التركيبة البنائية التي ترِقُّ فجأة وصولًا إلى قمة كوكيوتشو في الطابق الثالث، وكذلك رؤية غابة الأعمدة الرفيعة المحيطة بالتشوندو وهوسوين. ولكن التفاصيل الدقيقة التي كانت سببًا في إعجابي وعشقي من قبل، ذهبت متبخِّرة داخل الظلام الأحادي اللون.

ولكن مع زيادة قوة ذكريات شعوري تجاه الجَمال، أضحى ذلك الظلام الأسود قاعدة يمكن منها تشكيل ورسم الأوهام كما يحلو لي. ويختفي سرًّا داخل تلك الحالة المظلمة المنحنية، الشكلُ الكامل لفكرتي عن الجَمال. تظهر بقوة الذكريات، تفاصيل الجَمال واحدة

بعد أخرى متألقة من وسط الظلام، وتتواصل الأشياء المتألقة مع بعضها، وأخيرًا تحت أشعة وقت عجيب لا تعرف هل هو ليل أم نهار، ظهر المعبد الذهبي تدريجيًّا بوضوح أمام عيني. لم يسبق أن لمع المعبد الذهبي بجميع أركانه، بهذه الدرجة من الكمال وبهذا الحال من التفاصيل أمام عيني قبل الآن. كنتُ كأنني قد امتلكتُ قوةَ بصيرة الأعمى. أظهر المعبد الذهبي، الذي أصبح شفافًا بسبب الأشعة التي يصدرها من داخله، أظهر لي من الخارج بوضوح لوحاتِ الملائكة العازفات التي على السقف تشوندو، وبقايا قشرة الذهب القديم على حائط قمة كوكيوتشو. كان الجزء الخارجي ذو الفن الدقيق للمعبد الذهبي يختلط مع الجزء الداخلي. استطاعتْ عيناي أن تريا بنظرة واحدة من مكاني، تأثيرَ التباين والتماثل بين حواف الظلال الواضحة للموضوع الرئيس والبنية التركيبية له، وبين الزينة وتكرار التفاصيل الدقيقة بعناية التي تجسِّد الفكرة الرئيسة على الواقع. كان الطابقان الأول والثاني أيْ هوسوين وتشوندو، لهما نفس الاتساع مع اختلاف بسيط بينهما، ومحميَّين بظل واحد هو إفريز سقف عميق، ويقفان وكأنهما ذكرى حُلمين متشابهين تمامًا أو ذكرى متعتين متشابهتين تمامًا. واحدة منهما فقط تبدو على وشْك الانخراط وسط النسيان، فتتبادلان التأكُّد معًا من أعلى وأسفل بحنية، وبذلك يتحقَّق الحُلم، وتصبح المتعة بناءً معماريًّا. ومن خلال تتويج الطابقين بطابق ثالث هو تشوندو، متدرِّج السُّمك بطريقة مفاجئة، ينهار الواقع الذي تم التأكُّد منه، ويصل الأمر إلى الاستسلام للتوحُّد في الفلسفة الرائعة النبيلة لعصر ظلام فاخر. ثم يرتفع طائر العنقاء المصنوع من البرونز الذهبي فوق قمة السقف المعرَّش بألواح رفيعة، ليلمس ليل الظلام الطويل الذي يشبه الحَيرة.

ولكن لم يكتفِ المعماري أو يقنع بهذا فقط. بل جعل في الجهة الغربية من مبنى هوسوين، سوسيه ضئيلًا ناتئًا من إفريز السقف يشبه منصةَ صيد. كان المعماري بخرقه لقاعدة المساواة والتماثل كأنه يراهن بكلِّ ما يملك على قوة الجَمال. كان دور السوسيه بالنسبة لذلك المعمار هو أن يقاوم الميتافيزيقا. فرغم أنه لا يمتد طولًا إلى البِركة على الإطلاق إلا أنه يجعل المعبد الذهبي في المركز يبدو كأنه يهرب في كل مكان. وكأن السوسيه طائر يقفز مرفرفًا من ذلك المعمار، فهو يفرد جناحيه، هاربًا نحو سطح البِركة، نحو كل شيء ينتمي لهذا العالم. وذلك هربًا من النظام الذي يحكم ويقيِّد العالم، إلى حيث لا قيود، وعلى الأرجح هذا معناه الهروب إلى جسر الغريزة الحسية. نعم إنه كذلك. إن روح المعبد الذهبي تبدأ من ذلك السوسيه الذي يشبه جسرًا شبه مغلق، وتصنع برجًا ثلاثيَّ الطوابق، ثم مرةً

أخرى، تهرب عبر نفس الجسر. والسبب أن قوة الشهوة البالغة الضخامة التي تتهادى فوق سطح البِركة كانت هي نبع القوة الخفية لبناء المعبد الذهبي. ولكن تلك القوة بعد أن وقفت بكاملها ضمن نظام، وبعد أن صنعت الطوابق الثلاثة الجميلة، لم تحتمل البقاءَ هناك أكثرَ من ذلك، فلم يكن أمامها إلا الهروب من خلال السوسيه، إلى أعلى البِركة مرةً أخرى، إلى داخل الشهوة الحسية المتراقصة التي بلا حدود، إلى موطنها الأصلي هناك. أمرٌ كنتُ أعتقده على الدوام، وهو أنني كلما نظرت إلى شبورة الصباح أو ضباب المساء الذي يقف محتارًا فوق سطح بِركة كيوكو، كنت أرى ها هنا بالذات مخبأ قوة الغريزة الحسية المتدفِّقة التي أنشأت المعبد الذهبي.

كان الجَمال يسيطر سيطرةً تامة بعد أن وحَّد تناقضات وصراعات ونشاز كل هذه الأجزاء! كان بناءً معماريًّا مبنيًّا من طمي ذهب مثل كتاب سوترا مقدَّس كتبه متبرع وهو يؤكد على كل حرف من حروفه المكتوبة فوق الكتاب الورقي ذي أرضية بلون كحلي في ليل مظلم سرمدي، ولكن لم أكن أعرف هل الجَمال هو المعبد الذهبي ذاته، أم إن الجَمال هو من نفس نوع الليل العدمي الذي يلف المعبد الذهبي؟ على الأرجح كان الجَمال كلاهما معًا. كان كلَّ التفاصيل، وفي نفس الوقت الإجَمال، كان المعبد الذهبي، وفي نفس الوقت الليل الذي يلفُّ المعبد الذهبي. وبتفكيري هذا، أحسستُ أنني توصلت لفهم تقريبي لما كان مستحيلَ الفهم عليَّ من جَمال المعبد الذهبي الذي عانيت منه في الماضي. والسبب هو جَمال التفاصيل، تلك الأعمدة، وذلك الدرابزين، وهذا المصراع، الأبواب ذات الأُطر، النوافذ المزيَّنة، السطح ذو السقف الهرمي الشكل ... ذلك الهوسوين، تلك التشوندو، هذا كوكيوتشو، وذاك السوسيه ... الظلال التي تلقيها تلك البِركة، تلك الجُزر الصغيرة، ذلك الصنوبر، إذا فحصنا جَمال كل تلك التفاصيل حتى نصل مرسى المراكب في البِركة، فالجَمال في كل تفاصيل الأجزاء، ولا يكتمل مطلقًا في نهاية التفاصيل؛ لأن كلَّ جزئية تُنبِئ بالجَمال. كان جَمال كل جزئية يمتلئ بالقلق؛ فهو لا يعرف الاكتمال مع حُلمه الدائم بالكمال، ثم تغوي إلى الجَمال التالي؛ الجَمال المجهول. ثم يتصل التنبؤ بالتنبؤ، واحدًا واحدًا يتنبأ بجَمالٍ ليس له وجود هنا، بمعنى أنه صار الموضوعَ الرئيس للمعبد الذهبي. ذلك التنبؤ كان تنبؤًا عدميًّا. كان العدم هو تركيبة ذلك الجَمال. وهنا يصبح عدم اكتمال جزئيات الجَمال محتويًا داخله على تنبؤ بالعدم، كانت الخلايا الدقيقة لأخشاب ذلك البناء المعماري تهتز مع ذلك التنبؤ بالعدم، مثلما تهتز زينة التماثيل البوذية مع الرياح.

ومع ذلك، لم يأتِ على المعبد الذهبي وقتٌ انقطع فيه الجَمال! كان ذلك الجَمال يتردَّد صداه على الدوام من مكانٍ ما. وكأنه مثل مريض بألم رنين الأذن المزمن، كنتُ أسمع تردُّد صدى جَمال المعبد الذهبي في كل مكان، واعتدتُ على ذلك. إذا أعطينا له مثالًا لصوتٍ ما، فذلك المعمار مثل ناقوس معدني صغير يظل يتردَّد صوته على مدى خمسة قرون ونصف القرن، أو مثل آلة قانون وترية صغيرة. آه لو يتوقَّف ذلك الصوت!

هجم عليَّ تعبٌ وإرهاق شديدان.

يظهر شبح المعبد الذهبي بوضوح شديد فوق ظلام المعبد الذهبي. ولم يهدأ لمعانه وتألُّقه. وتراجع درابزين مبنى هوسوين المجاور للماء في تواضعٍ عظيم، بينما يبرز درابزين التشوندو الذي استند على إفريز السقف ذي القوس الخشبي الهندي الطراز، صدره باتجاه البِركة وكأنه يحلُم. كان الإفريز مضاء بانعكاسات البِركة، وتلألأ الماء لا يثبت على ذلك المَكان، بل يتحرك منعكسًا هنا وهناك. كانت أشعة الماء تحرِّك المعبد الذهبي، الذي يسطع مع شمس الغروب ويضيئه القمر، بإضاءة عجيبة ليظهر وكأنه طائر يرفرف بجناحيه. تتحرر قيود حالة الثبات من خلال انعكاس الماء المتهادي، ويبدو المعبد الذهبي الذي تسقط عليه تلك الانعكاسات وكأنه مبنيٌّ بموادَّ مثل اللهب والماء والريح التي تتحرَّك مهتزةً إلى الأبد.

كان ذلك الجَمال منقطعَ النظير. كنتُ أعرفُ من أين يأتيني ذلك التعب والإرهاق العنيفان. مرةً أخرى يحاول الجَمال أن يعتصر كل قوَّته وجبروته، في آخر فرصة سانحة له، لكي يقيدني بذلك الشعور بالضَّعف الذي هجمني من قبل عدة مرات. أصاب الضَّعف يديَّ وقدميَّ. أنا الذي كنت حتى تلك اللحظة على بُعد خطوة واحدة فقط من الفعل، تراجعتُ لمسافة بعيدة جدًّا من ذلك الموضع.

«لقد عملت كلَّ الاستعدادات حتى ما قبل خطوة واحدة فقط من الفعل.» هكذا همست لنفسي. «لقد رأيتُ الفعل ذاته كاملًا في أحلامي، وبقدرِ معيشتي بالكامل لذلك الحُلم، هل هناك ضرورة لعمل ذلك الفعل علاوةً على ذلك؟ ألا يكون ذلك على العكس عملًا غير ذي فائدة؟»

على الأرجح ما قاله كاشيواغي كان صحيحًا. قال إن ما يغيِّر العالم ليس الفعل ولكنه الوعي. ثمَّة وعي يحاول محاكاةَ الفعل ما أمكنه ذلك. وطبيعة وعيي أنا من هذا النوع. ثم هو نفس نوع الوعي الذي يجعل من الفعل أمرًا لا فائدة له بدرجة حقيقية. إذا أعدنا النظر، ألا نجد أن عنايتي بكل تلك الاستعدادات الطويلة لم تكن إلا لإدراك الوعي النهائي أنه لا ضرورة لعمل ذلك الفعل؟

لِبُعدِ النظر. فالفعل الآن بالنسبة لي لا يزيد عن كونه مجرد شيء فائض. وهو يبرز منحرفًا عن الحياة، منحرفًا عن إرادتي، وكأنه آلة مختلفة مصنوعة من حديد بارد، تقف أمامي تنتظر بدايةَ الحركة. وكأنه ما من علاقة ولا رابط بين ذلك الفعل وبيني. حتى الآن كنتُ أنا، ومن الآن فصاعدًا لن أكون أنا ... تُرى لماذا أحاول متعمدًا ألا أكون أنا؟

أسندتُ ظهري إلى أسفل الصنوبر. سحرتني بشرة تلك الشجرة المبتلة الباردة. أحسستُ بذلك الشعور، أن تلك البرودة هي أنا. توقَّف العالم بحالته كما هو في تلك اللحظة، كنت مكتفيًا قانعًا بلا أي رغبة أو غريزة.

وفكرتُ «من أين يأتي ذلك الإرهاق الفظيع؟ كما لو أنه حمَّى ممتلئة داخلي، فجسدي خامل ولا أستطيع أن أحرِّك يدي لتصل إلى حيث أريد. من المؤكَّد أنني مريض.»

ما زال المعبد الذهبي كما هو متألقًا. كان يبدو مثل منظر جيسُّوكان الذي رآه شونتوكومارو في حكاية «يوروبوشي».

لقد رأى شونتوكومارو في ظلامِ عماه منظرَ الشمس وهي تغرب متراقصة في بحر نانيوا. رأى حتى جزيرة أواجي وجزيرة سوماكاشي وحتى بحر «كي» يعكس أشعة شمس المغيب بلا أي غيوم.

أصبح جسدي وكأن الشلل أصابه، ودموعي تنساب من وقت لآخر بلا توقُّف. وربما كان من الأفضل البقاء على هذا الوضع حتى الصباح فيأتي أحدهم ويكتشفني. من المؤكد أنني لن أنبس بكلمة واحدة دفاعًا عن نفسي.

... حسنًا لقد استغرقت وقتًا طويلًا حتى الآن في ذكرِ ما يشبه توثيق عدم قوَّتي وهواني منذ طفولتي، ويجب القول إنه أحيانًا ما تكون الذاكرة التي تُبعث فجأة سببًا لقوة الإقامة من الموت والعودة للحياة مرة أخرى. فالماضي لا يجرجرنا ويعيدنا إلى الماضي فقط. ففي أماكن مختلفة ذاكرة الماضي، رغم أن عددها صغير، إلا أنه ثمة زنبرك معدني ذو قوة كبيرة، وعندما يلمسنا ذلك الزنبرك في الوقت الحاضر، ينبض الزنبرك على الفور، ويردنا بقوة دفعه إلى المستقبل.

مع بقاء الجسد شبه مشلول، ولكن كان القلب في مكانٍ ما، يعبث بأنامله داخل ذاكرتي. فتطفو كلمةٌ ما على سطح الذاكرة ثم تختفي. وتصبح على وشْك أن تصل إلى أنامل القلب، ثم تختبئ ... تلك الكلمة كانت تدعوني. تحاول أن تقترب مني على الأرجح من أجل أن تراقصني.

«توجَّه للداخل، توجَّه للخارج، إذا قابلت أحدًا، فاقتله فورًا!»

... كان هذا هو أولَ سطر من الآية الشهيرة في كتاب «أقوال رينزاي». بعد ذلك انسابت الكلمات لتظهر في سلاسة.

«إذا قابلتَ بوذا فاقتله، إذا قابلتَ الأسلاف، فاقتلهم. إذا قابلت الراكان، فاقتله. إذا قابلت الوالدين فاقتلهما. إذا قابلت شينكين فاقتله. ثم تنال خلاص الروح للمرة الأولى. بغض النظر عن الأشياء، فالاستنارة عملٌ فردي.»

أخرجتني الكلمات منطلقًا قافزًا من مستنقع الضَّعف الذي كنت قد سقطت فيه. وفجأةً فارت القوة والصحة على جسدي كله. ورغم قول ذلك، ما زال جزء من قلبي يُبلِغني بإلحاح أن ما يجب عليَّ القيام به بعد قليل هو أمر عديم الجدوى، ولكن قوَّتي أصبحت لا تخشى من أي شيء عديم الجدوى. أصلًا يجب عليَّ القيام به لأنه عديم الجدوى.

لففتُ وسادةَ القعود والصرة اللتين كانتا بجانبي وحملتهما تحت إبطي، ووقفت. ثم نظرتُ تجاه المعبد الذهبي. كان شبح المعبد الذهبي المتلألئ يضعُف تدريجيًّا. وابْتُلِع الدرابزين في ظلام الليل تدريجيًّا، وغابة الأعمدة الواقفة فقدَت وضوحَها. واختفى شعاع الماء، وكذلك اختفى انعكاسه خلف إفريز السقف. وأخيرًا اختبأتْ كلُّ التفاصيل الدقيقة في ظلام الليل، وصار المعبد الذهبي مجرَّد ظلال لون أسود فقط.

جريتُ ودرتُ حول الركن الشمالي للمعبد الذهبي. كانت قدماي معتادتان فلم أتعثَّر أو أقع. كان الظلام ينفتح تدريجيًّا ويرشدني.

اقتحمتُ المعبد الذهبي من حائط الألواح الغربي، بجوار السوسيه، من خلال باب يُفتح على مصراعين، كنتُ قد تركته مفتوحًا كما هو. وألقيتُ وسادة القعود والصرة التي كنتُ أحملهما إلى بقية الأمتعة المكوَّمة هناك.

القلب ينبض بمرح، واليد المبتلة بالماء تهتز بخفوت. وعلاوةً على ذلك تبلَّل الثقاب. لم يشتعل العود الأول. ثم انكسر العود الثاني بعد أن كان على وشْك الاشتعال. اشتعل العود الثالث مضيئًا الفراغات التي بين أصابع يدي التي تحميه من الريح.

وسبب بحثي عن مكان وجود القش هو أنني نسيت بالفعل مكانه وكنت وضعته هنا وهناك. وعندما وصلت إليه بعد البحث، كان لهب الثقاب قد انطفأ. وعندها جلست القرفصاء ومسكت هذه المرة عودين معًا وحككتهما بالعلبة.

رسمت النار ظلالًا معقَّدة في كومة القش، وبرز لون الحقول المهجورة المنارة، وانتشرت تفاصيلها في الاتجاهات الأربعة. وكان اللهب يخفي نفسه في داخل الدخان الذي تبِع ذلك ونهض. ولكن من بعيد، ارتفعت النيران من الناموسية على غير المتوقَّع، نافخةً من لونها الأخضر. وأحسست أن ما حولي أصبح ضجيجًا.

كان رأسي في ذلك الوقت في شدة الانتباه واليقظة. كان عدد الثقاب محدودًا. هُرعت هذه المرة إلى ركنٍ آخر، وأشعلتُ النيران في حزمة أخرى من القش وأنا أحرص على كل عود ثقاب. كانت النيران التي ترتفع مشتعلة تواسيني. كنتُ أبرع زملائي الرهبان، في جعل الحطب يشتعل، عندما كنا نشعله في الأيام العادية.

تراقصت ظلالٌ ضخمة داخل مبنى هوسوئن. وأُضيئت التماثيل الثلاثة لبوذا المقدسة أميدا وكانون وسيشي، الموجودة في منتصف المبنى بظلال حمراء. وتلألأت عينا تمثال يوشيميتسو. وكان ظل ذلك التمثال الخشبي يتراقص في الخلفية.

لم أشعر بالحرارة على الأغلب. وعندما رأيت النار تنتقل انتقالًا مؤكدًا إلى صندوق التبرُّعات، فكرتُ أن الأمر تم كما يرام.

ولكني نسيتُ الخنجر والكالموتين. وعندها تولَّدت لديَّ فجأة فكرة أن أموت في قمة كوكيوتشو تلفني تلك النيران.

ولكن وبعد ذلك تفاديتُ النيران وهُرعت صاعدًا درجات السُّلم الضيق. ولم يُثِر لديَّ شك في سبب انفتاح الباب الذي يصعد بي إلى كهف صوت الأمواج. كان المرشد العجوز قد نسي إغلاقَ باب الطابق الثاني.

اقترب الدخان من ظهري. وأنا أسعُل نظرت إلى تمثال كانون الرحمة الذي يقال إنه مِن صنْع الراهب إيشين ولوحات عزف الملائكة التي تزيِّن السقف. تدريجيًّا امتلأ المكان بالدخان الذي يفوح في كهف صوت الأمواج. صعدتُ درجات السُّلم أكثرَ وأكثر، وحاولتُ فتْح باب قمة كوكيوتشو.

الباب لا يفتح. كان قفل الطابق الثالث مغلقًا بإحكام.

طرقتُ ذلك الباب. لا بد وأن صوت الطَّرق كان عنيفًا، ولكنه لم يصل إلى أذنيَّ. طرقتُ الباب بكل جهدي. كنت أشعر أن شخصًا ما سيفتح لي باب طابق قمة كوكيوتشو من الداخل.

الحُلم الذي حلَمتُ به وقتها في قمة كوكيوتشو كان بالتأكيد موضع موتي، ولكن لأن الدخان كان قد اقترب مني بالفعل، كنتُ وكأنني أطلب الخلاص، وأعتقدُ أنني كنتُ أطرق ذلك الباب بعنف وتعجُّل. يُفترض أنه ليس على الجانب الآخر من الباب إلا غرفة صغيرة مساحتها حوالي سبعة أمتار مربعة فقط لا غير. ثم في ذلك الوقت كنت أرى حلمًا مؤلمًا، ومع أن أغلبه قد سقط وضاع إلا أنه من المفترض أن تكون تلك الغرفة الصغيرة مبطَّنة في كل ركن وزاوية منها بقشرة الذهب الخالص. ومع طرقي للباب، لا يمكنني شرح الدرجة

التي كنت أتوق فيها لتلك الغرفة الصغيرة المشعَّة. كان ما أفكِّر فيه هو الوصول إليها فقط بأي طريقة. فقط لو أستطيع الوصولَ إلى تلك الغرفة الصغيرة المبهرة ...

دفعتُ الباب بكلِّ ما أوتيتُ من قوة. وعندما لم تكفِ يداي، ارتطمتُ عليه بكل جسدي. ولكن الباب لم ينفتح.

امتلأ التشوندو بأكمله بالدخان. وتردَّد صدى حسيس النيران بالقرب من قدمي. ابتلعتُ كثيرًا من الدخان وكنتُ على وشْك أن أفقد وعيي. وداومتُ على دفع الباب وأنا أسعُل بشدة. ولكن الباب لم ينفتح.

في لحظةٍ ما، عندما جاءني شعورٌ مؤكَّد أنني مرفوض، لم أتردَّد. عدلت جسمي وأسرعت بالنزول من الطابق. نزلت حتى مبنى هوسوين وسط الدخان المتماوج عاليًا، وعلى الأرجح أنني اخترقت النيران. وأخيرًا وصلتُ إلى الباب الغربي وقفزتُ طائرًا إلى خارج البوابة. وبعدها لم أعرف إلى أي مكان أتَّجه، فكنتُ أجري وكأنني الإله «سكاندا» حامي السماء سريعُ العدوِ.

... جريتُ بأقصى ما أستطيع. لا يمكن تخيُّل إلى أي درجة جريت دون راحة. ولا أتذكر مطلقًا من أين مررت وكيف مررت؟ على الأرجح أنني خرجتُ من جوار مبنى النجم الشمالي، وخرجت من البوابة الخلفية الشمالية، ومررتُ بجوار قاعة ميوؤدن، وصعدتُ جريًا الطريق الجبلية المليئة بنبات الخيزران وزهور الأزالية، وأتيت إلى قمة جبل هيداري دايمونجي.

من المؤكد أن سقوطي فوق مرعى حشائش نبات الخيزران تحت ظل شجرة صنوبر أحمر، ولهاثي من أجل أن يهدأ خفقان القلب العنيف كان فوق قمة جبل هيداري دايمونجي. وهو الجبل الذي يحمي المعبد الذهبي من الشمال تمامًا.

كان السبب الذي أعاد إليَّ الوعيَ بوضوح، هو صيحات الطيور التي أصابتها الدهشة. أحدها طار بعد أن رفرف بكل قوَّته وانزلق بجوار وجهي تمامًا.

أنا الذي سقطتُ على ظهري كانت عيناي تنظران إلى سماء الليل. مرَّت الطيور بعدد هائل بين أفرع أشجار الصنوبر الأحمر وهي تصيح وتصرخ، وكانت تتطاير بالفعل رقائق متناثرة من سُخام النيران في السماء فوق رأسي.

نهضتُ ونظرت لأتأمل المعبد الذهبي أسفل الوادي البعيد. تردَّد صدى أصوات غريبة من هناك، أصوات تشبه الألعاب النارية. وثمَّة أصوات تشبه طقطقة مفاصل عدد لا نهائي من البشر.

لا يمكن رؤية منظر المعبد الذهبي ذاته من هنا. لا يمكنني رؤية شيء، غير النيران التي تتصاعد في السماء، والدخان المتموج كالدوامة. تتطاير قِطَع سُخام النيران الملتهبة بكثافة بين الأشجار، وكأن سماء المعبد الذهبي قد نُثرت عليها حبَّات رمال ذهبية.

جلستُ مفترشًا وظللتُ لوقت طويل أتأمَّل ذلك المشهد.

وعندما انتبهتُ وجدت أن خدوشًا وجروحًا وحروق النيران تملأ جسمي وتنزف مني الدماء. وتسيل دماء من أصابع يدي فيما يُعتقد أنها جروح جُرِحتها بسبب الطَّرق الشديد على الباب منذ قليل. لعقتُ تلك الجروح مثل وحش هارب من غريمه.

وعندما بحثتُ في جيوب ردائي، ظهر الخنجر وزجاجة الكالموتين ملفوفين في منديل. فرميتهما مستهدفًا قاع الوادي.

لمستْ يدي السجائرَ في الجيب الآخر، فأخرجتُ سيجارة ودخَّنتها، ومثلما يقرِّر أيُّ شخص قد انتهى لتوه من عملٍ ما ضخم، قرَّرتُ أن أعيش.

(١٤ أغسطس ١٩٥٦م)

هنداوي